

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01093 6676

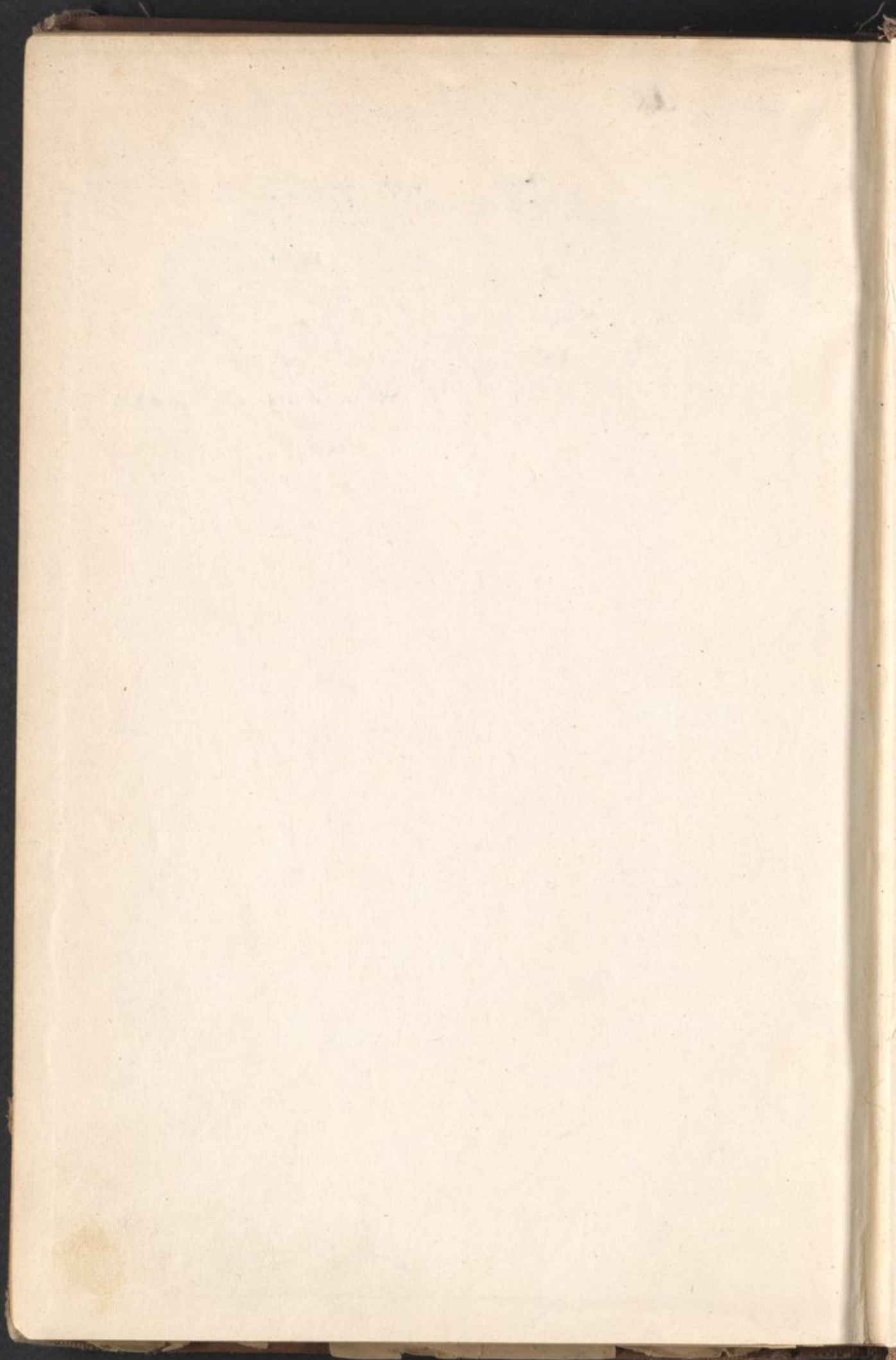
HD
15
.E
A9
194

١٩: ٥٥-٦٢٦١٨



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة



1942

الفنّان

HD

1538

E3

A 9512

1943

Ayrout, Henry Habib

al-Fallāhūn

تأليف

الدكتور الأب عيزوط اليسوعي

نقد الى العربية

الدكتور

محمد غدار

خريج جامعة ليون

وأستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

٤٤٤
٣٠١
عمير وط

٦٤٣٩٧

مطبعة كوثر

٢٩ شارع قصر اللؤلؤة ، بالقاهرة

تصدير

ليس هناك كتاب من بين المؤلفات التي عنيانا حتى الآن بترجمتها من منتجات صفوة المؤلفين الأوروبيين بدا لنا عظيم الفائدة ، جليل النفع ، وجلب الى نفسنا كثيراً من اللذة العقلية على النحو الذي أحسنا به عند ترجمتنا كتاب « الفلاحون » تأليف الأب المحترم الدكتور هنري عيروط ، هذا السفر القيم الذي خصصه المؤلف لتصوير تلك الناحية التي كانت لا تزال مجهولة من مصرنا العزيزة وهي حياة الفلاح ، ذلك المخلوق العس الذي نحن مدينون له ، بعد النيل ، بهذه الحقول الخضراء الخصبة الباسمة التي هي منذ أقدم العصور موضوع افتتان الشعراء ، وإعجاب الكتاب ، وإجلال المؤرخين ، وحسد الأنايين ، وطمع النهمين .

هذا الكتاب الذي تقدمه اليوم هو في طبعته الثانية تحت عنوان جديد ، وإذا كان تقديم كتاب سبق نشره بنفس اللغة يخشى أن يكون فيه شيء من العبث أو من الفضول - كما لاحظ ذلك بحق سعادة فؤاد أباطه باشا في تقديمه - إذ يمكن أن يعيد المقدم الجديد شيئاً من التعليقات المثنية أو التقریظات المطرية التي أفاضتها صحافة أرقى الدول المتحضرة في الشرق والغرب على هذا السفر الجليل ^(١) في استحقاق نبيل كريم ، فإن هذه المهمة بالنسبة إلينا - ونحن بازاء نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية - تصير

(١) ليس في هذا شيء من الاسراف ، فقد قرظت هذا الكتاب صحف فرانسوا وألمانيا وإنجلترا وبلجيكا وسويسرا وإيطاليا وأمريكا والبرتغال ومصر ولبنان .

أكثر سهولة ويسراً ما دمنّا نحن الذين سنؤدى رسالة الاطلاع عليه إلى مواطنينا وإلى جميع الناطقين بالضاد الذين لا يعرفون اللغات الأجنبية ولا سيما الفرنسية ، وما دام أنه من الخير لهؤلاء جميعاً أن يلموا ولو إماماً عاجلاً بصدى ذلك الاستقبال الحافل والاعجاب الشامل اللذين لقيهما في البيئات الأدبية هذا السفر الذى لم يرم إلى تثقيف قرائه بما احتواه من معرفة محددة ، ووقائع معينة ، أو إلى فتنهم بما صيغت فيه معانيه من مبان رائعة وعبارات أخاذة فحسب ، وإنما رمى إلى إنشاء حركة واسعة لضمان العدالة الاجتماعية ، وتحقيق الوطنية الصحيحة ، وبالتالى هو مساهمة فعلية فى بناء نهضتنا الحديثة التى تتوقف عليها عظمة بلادنا الحقيقية التى هى مطمع جميع أنظار المجددين المخلصين من المعاصرين ، وإذا ، فما يرفع شأن هذا الكتاب ، ظهوره على مسرح الحياة المصرية فى أشد الأوقات حاجة إليه ، ومعالجته مشكلة إذا وضعها المجتمع الحديث فى الصف الأول من صفوف المشكلات العمرانية ، فإنها فى مصر تتشكل فوق ذلك بصورة الضرورة الملحة التى يبقى حلها البلاد شراً مستطيراً عاجلاً ، تلك هى مشكلة القرويين وكل ما يتفرع عنها من معضلات أساسية تختلف خطورتها باختلاف منزلتها من المشكلة العظمى .

لم تثر مسألة الفلاح فى مصر قبل الآن رغم خطورتها وتعقدها وضرورة سرعة التفكير فيها إلا إثارة سطحية تم إما عن جهل مثيرها بجوانبها المتباينة ، وإما عن عدم اكتراثهم بنتائجها ، وهى على كل حال تدل على غفلة المصريين عن ناحية من أهم نواحي حياتهم الاجتماعية ، ولكن لعل الجهل بحالة الفلاح الحقيقية هو منشأ هذا الإهمال البغيض ، إذ من ذا الذى يعرف الفلاح أو يأبه لتعاسته من الأجانب بل من المصريين ؟ وإنما قدمنّا الأجانب هنا على المصريين ، لأنهم هم الذين مسوا على الأخص هذه المشكلة وإن كان مسهم إياها يشبه مس الزهرة ، لأنهم لا يتحدثون عن الفلاح الا عرضاً فى أحاديثهم عن المسائل الجيوغرافية أو الاقتصادية أو الزراعية ،

ولا يكادون يذكرونه إلا تبعاً للرى أو للبذر أو للتسميد أو للحصاد ، أما ذاته ككائن حي ذى كرامة وعزة فلا نؤشك أن نغتر عليها فى مؤلفاتهم . نعم إن الاجانب يعرفون جيداً مصر الفرعونية بآثارها ومعابدها ، ومصر الاسلامية بفنها ومساجدها ، ويعرفون كذلك مصر السائحين بمدنها العظمى ، وفنادقها الكبرى ، ومقاصفها الفاخرة ، ومراقصها الساهرة ، وملاهيها الزاخرة ، ومتنزهاتها الفاتنة ، ونيها الصافى ، ومناخها المعتدل ، ونسيمها العليل ، وقرها الزاهى ، ولياليها العذبة ، ولكنهم يجهلون الفلاح جهلاً يوشك أن يكون تاماً ، بل هم لا يلمحونه - كما يقول المؤلف - إلا من خلال نوافذ القطار أو السيارة مختلطاً بالأرض التى هو مقوس عليها ولا يكاد يظهر من الغراس الذى بين يديه ، وكل ما يظفره منهم هو إثارة حب الاطلاع فى نفوسهم .

أما المضريون فان صفوتهم المثقفة ، والطبقة المتوسطة فى المدن منهم ، وكبار ملاكهم يجهلون الفلاح جهلاً مطبقاً يزيد من صفاقة مع الأسف الشديد احتقارهم لهذه الطبقة الريفية الفقيرة إلى حد جهل أو تجاهل كل شىء عنها .

يا للخجل ! أليس ذلك فقدراً تاماً للاحاساس بالمسئولية بل بالكرامة من جانب هذه الطبقات الثلاث التى تعزو إلى نفسها شرف الادارة والقيادة ؟ ولم لا ؟ ألا يؤلف الفلاح ثلاثة أرباع سكان مصر ؟ أو يحسب أولئك الأقلون أنه يكفى لتكوين شعب عظيم أن توجد صفوة ممتازة تتولى إدارة أكرية عظمى ، هى كما يرسمها لنا الأب عيروط فى هذا الجهل المرهق وتلك التعاسة المادية والأدبية الشاملة ؟ أو ليست هذه الصفوة وتلك الجماهير أبناء وطن واحد ؟ ثم ألا تلحق وصمات الوالد جباه جميع أبنائه على السواء ؟ أولا تلتصق هنات الاخوة بأسماء إخوتهم ؟

فى هذه الساعة التى تنبأهى فيها ييقظة عاطفتنا الوطنية ، وبزوغ فجر نهضتنا الأدبية والفنية والعلمية ، فى هذه الساعة التى يتطلع فيها العالم العربى كله إلى مصر كزعيمته

الناطقة بلسانه ، والمعبرة عما يجيش بجنانه من آمال وأحلام ، والتي ينظر فيها العالم المتمدين نحوها مترقباً نتائج نشاطها في جميع أفرع الحياة الراقية ، ومفتوناً بجلالة مليكها الشاب الحكيم ، في هذه الساعة الخطيرة المحملة بكل تلك الأعباء الجسام ، ألا نحس تلك الصفوة بوطأة المسؤولية الثقيلة التي تنهال عليها أمام ذلك المنظر الأليم الذي يمثل التعاستين : المادية والأدبية لأكثرية الشعب المصري ؟

نحن نعلم أنه لم يعد من الممكن دوام هذه الحالة الأسيئة، بل إن أصوات الاحتجاج عليها قد بدأت ترتفع من كل مكان لا سيما في هذه الآونة الحاضرة التي أخذت فيها فكرة التضامن الاجتماعي بين أعضاء جسم الوطن الواحد تسلك سبيلها إلى عالم النور .

ليس من الغريب أن تتمتع هذه العاطفة النبيلة في قلب المؤلف المحترم وفي قلوب من هم على شاكلته من المثقفين الممتازين ، لأنهم لم يعدوا في هذا أن انتهجوا نهج ملوكهم العظماء ، فبالألمس نقل لنا المؤلف عن جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول تلك العبارة السامية التي تدل دلالة ناصعة على أنه لم يكن يشاطر كبار رجال حاشيته وأبيهم في إهمال الفلاح والاستهانة به .

واليوم لا يجمل أحد ذلك المجهود العظيم الذي يقوم به حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول لا في العمل على تخفيف ويلات هذه الطبقة التسعة فحسب ، لأن هذا أمر طبيعي ، ولكن في محاولة الوقوف على حقيقة أحوالها الداخلية بنفسه ، لا عن طريق الوسطاء الذين كثيراً ما يجربون الحقائق عن أرباب السلطان لغايات في نفوسهم ، فيظل الشر كامناً حيث هو ينخر في عظام الأمة حتى يأتي عليها .

أما إذا عرفت حقيقته ، واكتشف مقره ، وظهر مأتاه ، فقد أمكن استئصال شأفته ، واقتلاع جرثومته وهذا هو الذي سيكون بالفعل في عهد هذا الملك العظيم المترسم خطي والده الجليل والذي جمع إلى نشاط الشباب الفائق وحماسه الكامل نضوج الكهول

المجربين ، وحكمة الشيوخ المحنكين . أليس في عهده الميمون قد أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية التي يمكن أن ينتظر الشعب منها في هذه البرهة الراهنة تحسينات جمة لأحوال الطبقات الدنيا ولا سيما طبقة الفلاحين الذين هم عماد سعادة البلاد ورخائها ؟

قد يدهش القارىء عند ما يرى أننا نقدر من جانب صاحب العرش مجهوده في تعرف دواخل الأمور حق قدره وتقديمه على كل شيء ، ولكنه لا يلبث أن يرى هذا أمراً طبيعياً إذا علم أن المعرفة الصحيحة هي أساس كل خير ونجاح ، وأن الجهل هو منبع كل بلية ، إذ هو مصدر شل حركة الذين لا يعملون ألبته ، كما أنه مأتى إخفاق الذين يقومون ببعض المجهودات .

ومن دلائل هذه العناية الملكية الكريمة بمشكلة الفلاح أن جلالاته قد تفضل فقبل هذا الكتاب في طبعته الفرنسية بعطفه السامى وأمر رئيس ديوانه بإبلاغ هذا العطف إلى المؤلف . لهذه الأسباب عينها كان من الضروري أن ننقل إلى العربية هذا السفر الذى هو - إلى جانب قيمته الأدبية العالية - سيسد تلك الثغرة الشائنة في حياتنا الاجتماعية ، وهى ثغرة الجهل التى كانت نتائجها شؤماً على الدولة . ولقد عرف كثير من العلماء والكتاب الصحفيين فى أوروبا وفى مصر قيمة هذا الكتاب فأترلوه منزله من التجلة والاحترام ، ووصفوه بأنه « كتاب أساسى » أو بأنه « لا غنى لأى مصرى عن مطالعته » أو بأنه « يجب أن يذاع فى كل مكان كالبذرة الطيبة » أو بأن « نتيجته ستكون عظيمة تلفت الأنظار » .

لم يكن من الخير إذا ، أن يظل هذا السفر - وله كل هذا الشأن - مجهولاً فى مصر إلا من هذه الصفوة القليلة العدد التى تجيد اللغة الفرنسية إجادة تسمح لها بمعرفة ما فيه من حقائق محددة وصور ناطقة ، ولوحات صادقة ، ومشكلات معقدة ، وحلول موقفة ، وأفكار ثاقبة ، وآراء صائبة .

ولما كنا نشاطر المؤلف آراءه ، فانه يسرنا أن تقدم هذا السفر إلى مواطنينا
الأغراء آمين أن نساهم بهذا العمل في رسالة التجديد الذي ترمقه مصر بعين شغوفة .

وإذا كان لا بد لنا بعد هذا الوصف العام للكتاب أن تقدمه إلى القراء تقديمًا
أقرب إلى العلم وأدنى إلى التحديد والتعيين ، فانه ينبغي لنا أن نقرر بديا انه سفر
نفيس ، لانه مليء بالأحاسيس المخلصة التي لا ترمى الى التهريج أو إلى الدعاية للذات ،
ومفعم بالحساس الصادق المعتدل الذي لا يدعو الى الثورة أو إلى الصيد في الماء
العكر ، وإنما يدعو الى تحقيق العدالة الاجتماعية التي بها يستقيم ميزان البلاد ، وأنه
يمتاز بالموضوعية على أدق ما تحمله هذه الكلمة من معان ، فمؤلفه لا يكاد يظهر
على المسرح ، وإنما هو يعالج الموضوعات التي يعرض لها معالجة هادئة نزيهة بريئة من
التعصب ، وكل ما يبدو عليها من علائم الحياة العملية هو المظهر الإنساني تارة ،
والمظهر المصري تارة أخرى .

ومن تلك الخصائص الذاتية لهذا الكتاب أيضاً أنه معتمد على مستندات
مباشرة ، ومصادر أساسية ، ومعلومات يقينية . ولا ريب أن الذي يسرله هذا هو عدة
عوامل جوهرية ، منها أن مؤلفه الأَب المحترم الدكتور عيروط هو مصري الجنس والنشأة ،
وان رسالته الدينية قد أتاحت له فرصة الاتصال بالفلاح عن قرب ، وممكنه من
معرفة كثير من عاداته وتقاليده ، وأخلاقه وميوله ورغباته ، فجمع كل هذه الجوانب
ورتبها دون أن يشوهها كما يفعل البعض ، أو يجملها كما يفعل الآخرون ، وإنما رسمها
كما ألفاها على حالتها الطبيعية شأن الفنان الأمين .

ولما كنا - والله الحمد - قد انحدرنا من إحدى الأسر التليدة في الريف المصري ،
بل الضاربة في القدم ، فقد اجتمع لدينا عن تقاليد الريفيين وطبايعهم وتصرفاتهم من
المستندات التحريرية والشفوية ما يحملنا على إقرار ما سجله الأَب عيروط راضين
مطمئنين . وإذا كنا قد أشرنا في هوامش هذه الترجمة الى بعض الملاحظات ، فانها

ليست الانفصالات ترجع الى أسس عرضية كالالتباس بين عادات الأسر القبطية والأسر المسلمة ، أو كالاطمئنان الى رواية مشهورة ، ولكنها كلها تتعلق بأمور ثانوية ليست من الموضوع الجوهرى للكتاب فى شىء .

وأخيراً يمتاز هذا السفر كذلك بدقة ملاحظة غذتها الاحاطة بالمشكلات الاجتماعية ، والجيوغرافيا الانسانية ، والحواليج النفسية ، والروح الادبية .

لهذا كان ذلك الكتاب القيم دراسة علمية محددة بأسلوب أدبى أنيق بعيد عن جفاف العلم المسثم ، فهو يصور الفلاح ويرسم إطاره الجيوغرافى والاجتماعى ، وأرومته وتاريخه المفعم بالبأساء ، وحياته الراهنة التى لم تتغير منذ آلاف السنين ، والتى يحمل وصفها الى النفس الالم والرحمة والاحساس بالمسئولية .

فى هذا الكتاب يعثر المثقف الممتاز على ضالته المنشودة ، لان المؤلف يعالج فيه معضلات عامة تستهوى كل العقول الراجحة حتى الغير المختصة فى تلك النواحي ولا سيما فى هذه البرهة الحاضرة كمعضلات ازدهام السكان ، وهجرة الريفيين الى المدن ، ووفرة الوفيات بين الاطفال ، والامراض الريفية المتوطنة وغير ذلك .

فاذا فرغ من رسم هذا الاطار وتصوير أحوال من هم فى داخله ومعالجة مشكلاتهم ، اتجه الى شخص الفلاح ولم يأب أن ينزل إليه فى أرضه ، ليجتث عنه بين بذور النبات وأسمدته ، أو بين ماء النيل ورواسبه ، فاذا عثر عليه مدفوناً فى وسط العناصر الطبيعية ، أو مضغوطاً بين الأرض والهيئة الاجتماعية ، إحداهما تحته والأخرى فوقه ، وهو بينهما كأنه بين شقى الرحى وقد فقد كل أمل فى الخلاص ، فأصبح لا يصرخ ولا يستغيث ثم جعل يتناسى الاسترحام ، بل يتناسى الألم حتى نسيه وأضحى لا يشعر به ، إذا عثر عليه المؤلف فى هذه الحالة تناول ريشته وأخذ يرسم بيد رحيمة شخصيته وما يحقدق بها من بؤس مادى وأدبى ، ولكنه - مع اهتمامه بالناحية المادية -

هو يعنى أكثر من ذلك بالناحية الأدبية فيصور لنا ذكاه الناشئ الزاهر الذى يفوق فى طليعة الشباب ذكاه نظرائه من أبناء الغرب والذى لا تلبث عوامل البيئة أن تصدمه صدمة عنيفة فتقف إنتاجه وابتكاره ، وتحوله الى آلة ميكانيكية لا عمل لها إلا المحاكاة وتنفيذ الأوامر الصادرة من الغير ، وتنمى فيه نوعاً من اللا شعور بالتعاسة يسمح له بأن يعيش فى الشقاء راضياً ، لأنه ما دام أن أدنى قدر ممكن من القوت متحقق وأنه « لا يموت أحد فى الريف جوعاً » فهو لا يمد عينيه الى ما وراء ذلك . ولا ريب أن هذا اللا شعور ، أو هذا الاطمئنان يصلح رداً على أولئك المعارضين الذين يحددون بأساء الفلاحين محتجين بأنهم لو كانوا تعساء لما نما عددهم من مليونين الى اثني عشر مليوناً فى أكثر قليلاً من قرن واحد ، وهم يرون أن المصورين لشقاؤهم إنما يغالون في رسمون فى ذلك لوحات أكثر سواداً من الواقع . ولكن هذا غير صحيح ، فتلك اللوحات صادقة دقيقة ، وإنما الفلاح يأكل ويعيش ويتناسل ، وجبلته رصينة ، وأخلاقه متينة ، والروابط الطبيعية فى أسرته قوية .

وهذه العوامل مجتمعة هى التى تكاثفت على نموه ، غير أن هذا كله لا يمنعنا من أن نقرر أنه لا يحيا حياة داخلية لذيذة ، ولا ينعم بحالة اجتماعية ذات قيمة ، ولا يعرف أدنى قدر من الرفنية ، وليس لديه أية فكرة عن التدبير الصحى ، وأنه يجب على الصفوة المثقفة أن تنقذه من هذه الوهدة السحيقة ما دام أنه ليس كفوئلاً لتقاذ نفسه ، وهذا هو الذى دعا اليه المؤلف فى حرارة تلك الطبقة العليا التى تستطيع القيام بهذه المهمة والتى يجب عليها الاسراع الى تنفيذها . ولا جرم أن القسم الذى اشتمل على هذه الدعوة من الكتاب يهم المصريين أكثر من الأجانب ، لأنه هو الذى يعين العمل الايجابى الذى يجب على الطبقة المثقفة أن تسلك سبيله ، لتشارك الحكومة فى مهمتها ، وتضاعف نشاطها وتكمل مجهودها بالنجاح ، وتقدم اليها حلول المعضلات التى تتورط فيها ، إذ أن الحكومات الرشيدة لا تسير الا على ضوء نصائح المثقفين من

أبناء دولها . ولقد أجمل الأب عيروط أهم هذه النصائح في كتابه وألح عليها إلحاحاً جعلها واضحة جلية أمام كل من يبنى الاستفادة منها . وقد أوصى كذلك بتعليم الفلاح وأبنائه بكل الوسائل ، ولكن على أن يؤسس هذا التعليم على قواعد الالتئام مع عقلية الخاصة وحاجاته الضرورية ، لا تقليداً لمنهج أوروبا التي لا تتفق مع طبيعة مناخه ونشأته وحالته الاجتماعية .

يبدى المؤلف في هذا القسم الأخير حمية كريمة تشف عن مقدار السخط الذى تركه فى نفسه هذا الحيف الاجتماعى البغيض ويسجل فى حزم قسوة أكثر كبار لملاك وفقدان وطنيتهم اللذين يتمثلان فى أنانيتهم المقنونة التى تساهم فى إدامة شقاء هذا الفلاح التعس . أليسوا هم اللذين كان يجب عليهم أن ينظروا الى هذا السفر على أنه « عمل خطير كأنه محاسبة للضمير » كما يصفه أحد المقرطين ؟ .

ذلك هو الشعور الذى يجب أن تتركه مطالعة هذا الكتاب فى نفس كل مصرى ، ولا ريب أن هذه المحاسبة اذا تحققت فانها تقود أربابها فى الطريق السوى الذى طالما تمناه المؤلف والذى ينتهى إلى أشرف المقاصد وأنبيل الغايات وأجدرها بالاحترام ، وهى تحقيق العدالة الاجتماعية والسمو الى الوطنية الصادقة .

هذا ، ولا يفوتنا قبل مغادرة هذا المقام أن نرجو أننا نكون قد وقفنا الى الاحتفاظ بشيء من جمال هذا الاسلوب الحى اللدن الرشيق الواضح الصافى ، فىكون له فى العربية بعض الجاذبية التى له فى الفرنسية لنحقق بهذا العمل فائدة جلية لا لمصر وحدها ، ولكن لجميع الناطقين بالضاد .

محمد غنوب

« من يلقي بنفسه بين الشعب أو في الأقاليم لا يلبث — إذا كان له عينان — أن يستحدث اكتشافات غريبة ، إذ يرى فيهما أشياء هي عنده جديدة لم يكن يتصور وجودها ، ولم يكن يستطيع إحراز أقل فكرة عنها فيتقدم بتجارب متواصلة في معرفة الإنسانية » .

طبروير

استهلال

أخرجنا في سنة ١٩٣٨ عند « بايو » بباريس في « مجموعة الدراسات والمستندات والشهادات لخدمة تاريخ زماننا » مؤلفاً عنوانه « أخلاق الفلاحين وعاداتهم » قد صدر بمقدمة قيمة لـ « أندريه أليكس » .

كان ذلك السفر المعتمد على الدراسات والملاحظات وعلى ميل دام عدة سنين يتطلب الايضاح والتحديد بل بدء العمل فعلاً .

ولما كنا اليوم منوطين بخمس وسبعين مدرسة أولية في مصر العليا ، ولما كنا نغادر العاصمة في كل شهر إلى تلك القرى البعيدة ، فأننا نحاول أن نبرز إلى الواقع أفكار ذلك الكتاب ، ولكي نهذب فلاحينا ونخرجهم من الأرض ، سنجهد أن نقرب ما نسميه مصر الخارجية : أي نحن ، من مصر الداخلية : أي هم .

ولكن لما أصبح ذلك الكتاب — وقد صار ملائماً — مطلوباً أكثر من ذي قبل ، أضحي غير موجود وطلب منا أن نعيد طبعه .

وهذا السفر الذي تقدمه اليوم بمقدمة أخرى وتحت عنوان جديد يحمل معه عدة تنقيحات وإضافات ، ولكن ليس فيه تغييرات جوهرية ، لأن الفلاح لا يتغير كثيراً في أربعة أعوام .

أما الصور فلم يسبق لها نشر ، ونحن مدينون بها إلى أصدقاء نشكرهم هنا .

الفن والفنانون

مقدمة

معرفة الفن

كتلك الأدوات النحوية التي تربط الجملة وتُنحها ثباتها، أو كخصائص اللحمة الذي يمسك ويرسم القطع المتعددة الألوان من زجاج نوافذ الكنيسة، طبقة الريفيين تخلع على الوطن مظهره العميق، هي دعامة متواضعة، ولكنها ضرورية لتوازنه الاقتصادي ونظامه الاجتماعي. ولما كانت منتجة أكثر منها مستهلكة فإنها تحفظ صحة الدولة وتضمن لماليتها تنفساً منتظماً.

ولكن طبقة القرويين مكونة من ريفيين أي من رجال... مهما كانوا عبيداً للأرض وللأرض، ومهما بدت طريقتهم في التأثر متجلدة وبطيئة، ومهما كانوا خاضعين للعادة جامدين إلى الحد الذي يخيل إلينا، فهم يبررون أكثر من غيرهم كرامة الشخص البشري.

لما كان الناس قد خلطوا زمناً طويلاً بين الإنتاج والمنتج، والعمل والعامل، والغلة والزارع، وحدقوا إلى المخزن دون أن يروا رجل الأرض الذي ملأه ولم يلاحظوا التضاييق الذي لم يكن يعرف التعبير عنه والذي ربما أنه لم يكن يشعر به الشعور الكافي، فأنهم يشهدون اليوم اليقظة الريفية دهشين ويلاحظون في ذهول عبء الجبل المثقلة به الجماعة والدولة بأزاء رجل الأرض.

إن الشعراء والفنانين في كل الأزمنة منذ «فيرجيل» إلى «جوزيف دي بيسكيدو» -

باستغلالهم موضوعي « الحارث » و « جمال الختول » وبأذابتهم القروى فى الاطار الذى يحوطه - قد ساهموا فى حجب الحقيقة الريفية . انهم رسموا صوراً عامة جميلة ، ولكنهم عودونا أيضاً ألا نرى فى الحياة الريفية الا المظهر المؤثر والعاطفى ، وأن نجد فى اللوحة كل الحقيقة « إن إشارة الزارع الجليلة (١) » قد أخفت عنا الزارع نفسه .

هذا التزييف الأدبي يتحقق بنوع خاص بالنسبة الى مصر . ولقد لفت أنظارنا الى ذلك تعقبنا عاماً بعد عام كل ما كان ينشر فى باريس فحسب ، إذ أن مصر لدى الكتاب الفرنسيين المصريين قطب جاذبية ، وهم فى ذلك يسايرون إحدى تقاليدهم (٢) .

فمنذ سنة ١٩٢٦ مثلاً أثرت المراجع المصرية بنحو أربعين من الروايات أو التحقيقات الجديدة ، وذلك عدا مقالات الصحف والمجلات التى لا تحصى ، والمحاولات المنشورة فى مصر وفى الكتب الانجليزية ، وهذا الانتاج العظيم والشيق من عدة وجوه يصف برشاقة إطاراً ومناظر ، ويرسم مشاهد وأشخاصاً يشغلها بهم ، ولا يفوته ألبتة أن يذكر الفلاح ، فهو يخصص له بضعة سطور أو بضع صفحات ولكنه يراه من الخارج ولا يعرفه ، ينبغى أن نذكر أن الفلاح ليس ممثلاً باديًا للعيان ، فهو لا يبرز كثيراً من الارض .

(١) هذا هو بيت شهير لفيكتور هوجو فى إحدى مقطوعات مجموعة « أغنيات الطرقات والغابات » (المترجم) .

(٢) « جان - مارى كاريه » ، الرحالة والكتاب الفرنسيون فى مصر منذ بدء السيادة التركية (١٥١٧) الى افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) ، مجلدان ضخمان من القطع الثمانى ؛ القاهرة فى سنة ١٩٣٢ . و « م . ليكستينبيرجيه » ، الكتاب الفرنسيون فى مصر العصرية من سنة ١٨٧٠ الى أيامنا ، من القطع الثمانى ؛ المطابع الجامعية بباريس سنة ١٩٣٤ . - ٣٠ - دراسات عن المستعمرات ، مصر فى الادب الفرنسى . ، مجلة التعاليم الشيعية مائة صفحة من القطع الاثنى عشرى ؛ باريس سنة ١٩٣٦

وإذا ، فالذى يحدث بمطالعتنا هذه الكتب هو أننا نعرف معرفة جيدة جداً :
أحياء البغايا والفنادق الكبرى فى القاهرة والاسكندرية ، وجيدة نوعاً : الاهرام
والمتاحف والمعابد أو المساجد والاسواق ، وأقل من ذلك الحالة السياسية والاقتصادية
والاجتماعية ، ولكننا لن نعرف شيئاً ألبتة عن روح أو عن حياة هذا الرجل الذى هو
جزء أساسى فى أداة مصر العاملة وهو الفلاح .

ولم يكن رجال العلم الذين نظروا الى مصر أكثر من رجال الأدب رؤية
للفلاح ، فهؤلاء كانوا يعتبرون المناظر الطبيعية ، وأولئك يعتبرون البلاد ، والقرويون
يظنون ثانويين . نحن نقصد خبراء الزراعة والاقتصاديين بل الجيوغرافيين الذين
كثيراً ما ساهموا فى كشف أرض مصر .

ان نبحوث المسيو أوديو ، والمسيو موسيرى عن الزراعة ، والمسيو فيلكوكس ،
والمسيو باروا عن وسائل الري ، والامير عمر طوسون عن النيل ، وأرتين باشا ،
والمسيو أرمانجون ، والمسيو مينوست عن الملكية العقارية ، والمسيو كيفيليه ،
والمسيو هوج عن طبقات أرض مصر وجيوغرافيتها تعتبر بحق عمدة .

يتحدث فى هذه الكتب عن الفلاح ، ولكن فى علاقته بهذه العوامل الأولية ،
وكعنصر من عناصرها ، فهو يرى بمناسبة التسميد والحصاد والري ، وبمناسبة الضريبة
والملكية والانتاج ...

قد حسبنا أنه يمكن أن يخصص للفلاح المصرى مؤلف فردى يصفه كشخص
إنسانى ويعتبر كل تلك العوامل التى يجعل هو تابعاً لها ، متعلقة به ، وهو عكس لوجهة النظر
يسمح بفهم مصر على طريقة أفضل .

نحن لن نقول : « لا شيء الا الارض » . سنشتغل بالجيوغرافيا ، ولكن
بالجيوغرافيا الانسانية . homo additus naturae أى الانسان يوجد بديلاً .

بالجيوغرافيا الانسانية كما كان « فيدال دى لابلاش » يفهمها أى الوصف الشارح ، العلم الذى يصل الى الدراسة النفسية والاجتماعية ، وهكذا ، دون أن نجرد ألبته رجل لأرض من الأرض التى تحفظه وتغذيه - وذلك يكون تشويهاً له - نحن سنركز فيه دراستنا .

ان رسم الاطار والشخص وتصوير الحياة الوقتية لأولئك الرجال الذين « يؤنسون » أرض مصر وهى تدفنهم ، اذ هذه الارض هى نظيرتهم ، ومحاولة إظهار نقطة التماس التى تشرح النفس هى موضوع هذا البحث .

ولكى لا نطيل سنفرض أن حوادث تاريخ مصر الكبرى وأوليات جيوغرافيتها معروفة . على أن المؤلفات الحديثة لا تدع شيئاً يشتهى فى هذا الشأن (١) .

ولما كنا قد قصرنا بحثنا على الفلاح بالمعنى الضيق لهذه الكلمة أى الزارع الصغير ، فلن نتحدث عن الملاحين وصناع القرى . هؤلاء هم أيضاً فلاحون ، ولكن اختصاصاتهم تخلق لهم نوعاً من الحياة يستحق دراسة منفردة .

ولما كنا ننظر الى الفلاح اليوم ، فلن نذكر عن الماضى الا الشئ الجوهري على أنه فى الحاضر يتلخص كل الماضى كما يمكن ان نلاحظ ذلك .

أما فهم المقاييس والموازين والمكاييل والعملة والعبارات الوطنية التى ليست

(١) « تاريخ الوطن المصرى ، تحت اشراف « ج . هانوتو » وهو سبعة مجلدات من القطع الرباعى باريس سنة ١٩٣١ - ١٩٣٥ . موجز تاريخ مصر » تأليف عدة مؤرخين وأثرين : أربعة مجلدات من القطع الثمانى ، القاهرة سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٥ « مصر القديمة والحديثة والعصرية » تأليف « دى هينو » س . ج . من القطع الاثنى عشرى ٤٤٠ ص ، الطبعة السادسة ، القاهرة سنة ١٩٣٥ . « مصر ، لمحة تاريخية وجيوغرافية » من القطع الثمانى ، ٤٥٦ ص ، القاهرة سنة ١٩٣٦ .

مشروحة في كل مرة في النص ، فليفضل القارئ بالرجوع فيه إلى القائمتين المبتتين
في آخر الكتاب .

وأما فيما يتعلق بالمراجع التي ليست كثيرة العدد ، فنحن لم نذكر من بين
المؤلفات التي قرأناها إلا ما أعاننا على تحديد هذه النقطة أو تلك ، وقد جرينا على
تفصيل المؤلفين المصريين والدوريات المصرية ، لأنهما - وإن كان مليئين بالحشو
وليسا علميين إلا قليلا - يريان الأشياء المصرية من الداخل ، وهذا النوع من الأنباء
الذي يفسح المجال للحكم يفوق كل نوع آخر .

ولكن قضيتنا تعتمد في جوهرها على ملاحظات شخصية تمتد الى عدة سنين -
فنحن من مصر - وإلى عدة أقاليم من وادي النيل . وهي تعتمد أيضاً على محادثات
خاصة مع أناس من جميع البيئات ، وعلى التفكير المنطبق على الأشياء المرئية والمسموعة .
وإذاً ، فهذا المؤلف الذي تقدمه اليوم قد نظرنا فيه وتأملناه قبل كتابته .

فارجو أن يساهم في أن تبسط في عمق مسألة الفلاح ، وأن يساعد في أن تعرف
بوساطته مصر الخالدة .

الفصل الاول

إن الفلاحين أى الصعاليك القرويين الذين سنصف حياتهم فى الفصول التالية يؤلفون أكثر من طبقة اجتماعية واحدة ، فهم بعدد هم الذى هو أكثر من ثلاثة أرباع مجموعة الاهلين ، وبوحدة طبيعتهم وبأصالتهم يكونون حقاً الشعب المصرى ، ذلك الشعب الذى أنتج المدينة الأولى أو على الأقل أنتج مدينة جد خاصة يملأ تاريخها خمسين قرناً من الزمن يبدى لنا خصائص ليست أقل شخصية من مدنيته .

الدوام والثبات : فسادته ودينه ولغته وثقافته قد تغيروا ، ولكن نوع حياته لم يتغير ، بل استعصم واحتفظ بذاته منذ زمن الامبراطورية القديمة البعيد الذى هو فوق قمة عصر الأسر .

امتلكه على التوالي : الفرس والاعريق والرومان والبيزانتيون والعرب والترك والفرنسيون والانجليز . وسواء أكان هذا الامتلاك عدة قرون أم بضعة أعوام فانه بقى كما هو .

واليوم أيضاً هو لا يساهم فى نهضة مصر وفى حريتها وفى تطورها إلا قليلاً ، أو لا يساهم ألبتة .

أما روحه - التى هى وثنية منذ ما وراء عصر (التوتيميسم) : تقديس الحيوان أى منذ عهد عبادته ثم هى ، إبان ستة قرون مسيحية الى حد الكمال الممثل فى التنسك وفى احتمال التعذيب - فقد تركت ذاتها تسلم بلا مقاومة ، ولكن دون أن تستطيع ثلاثة عشر قرناً فى الاسلام أن تغير دخليتها الدينية (١) .

(١) المراد الدخيلة الوثنية القديمة التى تتمثل فى تقديس الأشجار والأحجار .

شعب قابل للانفعال ، ولسكنه غير قابل للاستكناه ، صبور ولسكنه مقاوم ، ومع أن هذا الشعب يعيش منذ زمن طويل في ملتقى القارات ، وعلى مفترق الطرق الدولية ، وفي بلد كان مسرحاً لأعظم أحداث التاريخ ، قد بقي هادئاً ثابتاً كقاع البحر تحت الأمواج الهائجة .

لقد غيرت وجوه الأوطان المحجب مرات كثيرة حسب ألاعب الرجال ، وكذلك وجه مصر أيضاً ، ولسكن الذي لم يتغير هو الأساس ، والفلاح الذي هو عين ذلك الأساس من مصر .

كان يقدم نفسه دعامة للمناظر التي كانت تجري عنده وفوقه وكان يصمد لها ، وبينما كانت تلك النزاع العنيفة المتكررة تعصف بالشعوب أو تدمرها كما تشهد بذلك إلى اليوم خرائب إفريقيا وكلدان المقفرة ، وتلك البساتين المزدهجة بالأجانب ، كان الفلاح الغير القابل للاستهلاك باقياً . . .

يروى تاريخ مصر كثيراً من الحروب والثورات ، ولسكن الشعب لم يكن يحترق بها ، ومع ذلك فهو - في عصر واحد أي بين سنتي ٧٢٥ و ٨٣٠ - يتحدث عن اضطرابات في الأرياف ، إذ حين أرهق الفاتحون^(١) العرب الفلاحين بالضرائب جعلوا يهجرون القرى التي هم مقيدون فيها ويستقرون في بلاد أخرى وقد صارت حركة الفرار هذه عامة ولكن القمع كان فظيماً إلى حد جعل الاقباط على الثورة الصريحة ، فتألبوا ست مرات ولكن بدون تماسك ولا اتحاد في الزمن ، فقهروا في

(١) يقصد المؤلف وصف الاضطرابات التي بدأت في مصر من عهد هشام ابن عبد الملك واستمرت إلى عهد المأمون واضطهد الولاة أثناءها المصريين وأرهبوهم حتى اضطروهم إلى الثورة عدة مرات ثم قمعوا تلك الثورات بالعنف وإراقة الدماء (المترجم)

المرات الست على أشد الصور إراقة للدماء ، وذلك لأن الثورات ليست من خاصياتهم ، على أن غور الشعب حتى في هذه الثورات لم يلحق .

لم يتفقت هذا الشعب أكثر من جرائيت المعابد ، ولكنه لم يتطور تطوراً جوهرياً أكثر من تلك الصور الفنية التي تحدت مرة واحدة ، فتفاصيل حياته اليومية التي تستحضرها نقوش حوائط القبور الفرعونية ، أو الخرافات القبطية ، أو مؤرخو العرب ، أو « وصف مصر » أو المحققون الانجليز ، أو حالة اليوم يخيل إلينا أنها سلسلة من فصل واحد ، وشعورنا هو أن هذه المناظر التي تفصلها القرون تتكرر ويغطي بعضها بعضاً . على أن هذا ليس أحاسيس فحسب ، فنحن نشاهد وحدة آلات العمل : كالحراث والشادوف والساقية والجاروف ، والمنجل والقفة ، ووحدة معاملة الجسم كالوشم والختان ، واستعمال السكل والحناء وإزالة الشعر ، وثبات عدد كبير من العادات في الزواج والحداد وما شا كل ذلك (١) .

من خلال روايات هيرودوت ، وديودور الصقلي ، واسترابون والمقريري ، وفانسليب ، والاب سيكار ، وفولنيه وأمثالهم نحن نعرف ذات الفلاح : لا ثورة ولا تطور .

هنا نحن أولاً ، في صميم المشكلة ، فكيف يمكن شرح هذا الثبات الجسماني ، وذلك التوازن النفساني والاجتماعي ، وذلك الدوام فوق العادي عند شعب من الناس ؟

نحن نشرح ذلك بالأرض كما يمكن أن نشرح ثبات الفن المصري الذي تكون بوساطة الاستيلاء على البيئة الطبيعية ، فالخطوط الأفقية الحادة للصخور العربية والليبية قد ألهمت ذلك الشبح المنخفض المستطيل الممتلئ السميك المعابد الفرعونية ، وذلك الافريز المتحد الصور الذي يتممها .

(١) سنبين هذه التشابهات في مواضعها ، وكل واحد يستطيع أن يثبتها بنظره في منابع المذكورة في المصادر .

وكومات البردى واللوتوس والقصب التي كانت تزهر على شاطئ النيل قد منحت صوراً فنية تشاهد على هذه الأعمدة وتيجانها التي ندعوها بصور البردى وصور اللوتوس والدور يانية البدائية .

منذ زمن بعيد قد تثبت في وادى النيل بين العقل والطبيعة تماسك متين . وقد أبرز ملاك مصر المختلفون بكل أعباء سيادتهم هذا التماسك .

يجد الفلاح نفسه موضوعاً بين الأرض وأربابها كأنه بين المطرقة والسندان ولكنه بنوع حياته أقرب إليها منه إليهم ، وضرباتهم بالمطرقة تزيد التصاقه « بالأرض » . هذا الاتحاد واقعى الى حد أن سادة الفلاح باستيلائهم عليه يستولون على الأرض وبامتلاكهم الأرض هم يمتلكونه .

وهكذا يحتفظ الشعب الفلاحى بهذا الثبات وتلك الوحدة اللذين يدهشانا ، بوساطة ارتباطه بثبات آخر ووحدة أخرى ، وهما : ثبات تربة مصر ووحدتها .

قد وجد بين هاتين الكتلتين الحيتين اتصال مرن وضيق ، وتوازن مقفل وشبه كفاية لا تصل الحوادث ولا الحكومة إلى سبر غوره . وقد نستطيع أن نستعمل هنا تعبير « سولى - پرودوم » الجميل الذى يتحدث عن : « ذلك الزواج القاسى السابق على التاريخ بين جنس وحقل قد صنعا نفسيهما فيما بينهما » .

إن رفقة الجنس والحقل المتصلة قد أتت طائفة من الأفعال وتجاوزاتها الدائمة ، ومن المشابهات والمعارضات صيرت الاتحاد الغير القابل للانحلال بين تينك الكتلتين أكثر متانة ، ولنقل بالأحرى : بين تينك البيئتين : الطبيعة أو البيئة الطبيعية بالمعنى الواسع لكل ما يحيط كما يقول الانجليز أى المناخ والنور ، ولكن قبل هذا كله : ماء النيل ورواسبه ونباته وجيرته من الرمال من ناحية ، ومن ناحية أخرى الانسان أو البيئة الاجتماعية بمعناها الضيق أى البيئة الفلاحية المحصورة فى عاداتها وفى قراها ،

والشديدة الانضغاط والازدحام ، وإن كانت منعزلة وغير منظمة والتي هي أقرب إلى الأرض التي يعرفها الفلاح من الحكومة التي لا يعرفها .

ولكن لنحترس هنا من كل جبرية ناموسية ، بل نحن نريد أن نقصى منها حتى ظاهرها ، فالفلاح ليس ثمرة الريف المصرى أكثر من أن يكون هذا الريف ثمرة ، والأمر لا يتعلق هنا بخلق ضرورى ولا بتأثير محدد ، وإنما الانسان يظل حراً ، ونحن نحدد الحرية بأنها « مقدرة المرء على تحديد نفسه بنفسه » .

الانسان حر ، والطبيعة الزراعية إحدى الممكنات ، وهى تنتج إمكانات غير محدودة تختار من بينها إرادات الأناسى - ولكن السادة لا الفلاحون - أحدها أو الآخر حسب الزمان

فيما مضى غرست الكروم في حقول مصر ، ولكن لما كان الغنб يعطى التبيد ، فقد قتلت التحريمات القرآنية تلك الكروم . وبالأمر كانت شجيرات التبغ تغطي سطوحاً واسعة ، ولكن الحكومة حظرت زرعها ، وعلى العكس من ذلك الذرة (الشامية) الآتية من أمريكا ، والقطن المحبوب في القرن التاسع عشر لها اليوم الصدارة على جميع الزراعات الأخرى . وغداً سيكون استغلال نباتات مغايرة .

ليست هناك أية ضرورة من ضرورات المناخ أو ضرورات الأرض تحدد مرة نهائية الانتاج الزراعى في مصر ، ومن باب أولى هي لا تحدد الوجود الانسانى . ومع ذلك فقد بقى فعل خاص للبيئة (المناخية) في الكائنات التي تعيش فيها ومنها .

لدى سكان المدن ولدى عمال الصناعات تكون الرابطة بين الطبيعة والأناسى أكثر تفككاً ، وطابع البيئة الطبيعية ينحل ويتعطل عمله لصالح البيئة الاجتماعية والوطنية والسياسية التي تبرز وتسد ، وذلك يصير الجماعة أقل ثباتاً ، ولكن أكثر

تقدماً ، وليست هذه هي الحالة بالنسبة إلى رجل الحقول ، فطابع الأرض عليه يظل بادياً . والمسيو « فيفر » يعارض بحق في تعميمات « رازيل » و « برون » حول تأثير البيئة الطبيعية ^(١) ولكن نخيل الينا أننا - دون أن نمنح قضيتيهما قيمة الحقائق التي تنطبق على مجموعة التاريخ والأرض - نستطيع أن نعرف بأنهما تنطبقان انطباقاً جيداً على الجماعات الزراعية ، وأجود من ذلك أيضاً انطباقها على الحالة الخاصة التي ندرسها وهي حالة فلاح مصر .

سنرى في الواقع أنه على تماثل وادي النيل ووحدته وخصوبته يجاب تماثل الجمعية الفلاحية ووحدتها وخصوبتها وسنرى أن هاتين الظاهرتين الموجودتين ليستا متوازيتين ، ولكنهما متناسبتان تلتقيان في « نوع الحياة » (العنصر الجيوغرافي والاجتماعي) .

سنرى كيف أن ماء النيل ورواسبه تتغلغل في عمل الفلاح وجسمه ونفسه ومسكنه وأسرته وكل حياته وتشرح جزءاً عظيماً منها وتنقل اليه محامدها ومساوئها .

بسبب أن الفلاح « مدفون » في هذه الرواسب صارت هذه الأخيرة مخصصة : مصر هبة النيل ، وهي ليست أقل من ذلك هبة الفلاح .

وبسبب أن هذه الأرض تجسدت في الفلاح ، كان هذا الأخير ثابتاً إلى هذا الحد ، ولكنه كان أيضاً مادياً وراكداً .

(١) « جان برون » . « الجيوغرافيا الانسانية » . « السكان » . باريس سنة ١٩٢٥
الطبعة الثالثة ٩٧٥ صفحة عدا مجلد صور ، ب . فيدال دي لابلانك . « مبادئ
الجيوغرافيا الانسانية » . « كولان » . باريس سنة ١٩٢٢ ، ٣٢٠ صفحة « لوسيان فيفر ،
« الأرض والتطور الانساني » . « مقدمة جيوغرافية للتاريخ » ، مكتبة سائير التاريخية ،
نهضة الكتاب . باريس سنة ١٩٢٢ ، ٤٧١ صفحة .

وإذا ، فالتقدم سيأتي من انتزاع وبروز وتربية بالمعنى الأصلي لهذه الكلمة

e ducere :

انتزاع روح الفلاح من هذا الغلاف الطيني الذي يخنقه ، ورفعها دون اقتلاع جذوره ، وتخليصه من معائب الأرض دون محامدها ، هذا هو عمل الجماعة ، ولكن هذه الجماعة ليست جماعته التي هي بدون قوة روحانية داخلية . ليست تلك الجماعة القروية المشغولة في حالتها الراهنة ، ولسكنها جماعة الطبقة العليا التي تدثره ونستطيع أن نتغلغل فيه ، جماعة الصفوة التي بوسائلها وثرواتها تستطيع أن تمنحه الحياة .

ذلك هو فعل الخميرة في العجين ، وفعل الذكاء وحسب الآخرين .

ستحدد الفصول الآتية هذه الاعتبارات العامة وستمثل لها وستقودنا بواسطة منطق الحوادث الى هذه النتيجة الانسانية الخالصة التي رسمناها كلها آنفاً .

الفصل الثاني

الاطار الطبيعي

مصر ————— بلد زراعي

— ١ — الجيوغرافيا

لقد استطاع الناس التحدث عن تصيير مصر بلداً صناعياً ، وفي الواقع أن وثوب الصناعة في هذه السنين الخمس الأخيرة يسجل من الاتساع بقدر ما يسجل من السرعة ومنذ الآن توجد طبقة من صعاليك المصانع أو طبقة عاملة وطنية تمكن دراستها ، ومع ذلك فإن انعدام مناجم الحديد ^(١) أو الفحم من الأرض المصرية سيمنع دائماً هذا القطر من أن يصير مركزاً صناعياً بمعنى الكلمة ، بل من أن يكفي في المواد الصناعية لسد حاجات سكانه ، ولكنه يبقى وسيبقى بلداً زراعياً من الصف الأول .

ذلك هو قانون تكوينها الطبيعي .

إن مصر بأرضها المسطحة ، وتربتها الغنية الرطبة الرخوة . ونهرها الفيض ، ومناخها الحار الجاف تحقق الجيوغرافيا المطلوبة للزراعات الكثيرة الانتاج ، الواسعة الامتداد ؛ وتولاها بدون تحاذل .

(١) ستتغير هذه الفكرة بعد اكتشاف منجم حديد اسوان العظيم الذي نرجو أن توفق الحكومة المصرية الى استغلاله على صورة تضمن تحقيق أمل البلاد في أن يكون ذلك المنجم منبع ثروة جديدة لها . — المترجم .

رمال هي في ذاتها لا تكاد تكون زراعية أكثر منها صناعية ، وكتل من الجرانيت والجص غير صالحة لأي بذر . على هذا النحو كان وجه مصر سيبدو أرضاً فقيرة يسكنها البدو والرعاة كشبه جزيرة العرب وقورينا جارتها لو لم يمر في هذه الجهة من صحراء افريقيا خط من خطوط الحياة ، وهو النيل الزارع .

ليس النيل من موالد مصرى ، ولكنه يهب مصر نضوجه والتفتح الذى ينهيه . هو يدخل أرضها غنياً بجريان ٥٠٠٠ كم ، ومحملاً بالرواسب التى يجلبها معه إبان هذا السفر العظيم خلال أشد الاراضي تبايناً . هو يتجدد في كل عام وينظم بحياته حياة مصر .

إن الطمي الذى يجمعه النيل من الخارج ويحمله مع فيضانه يضعه منذ القدم الاخير من العصر الرابع فوق شاطئى مجراه المسطحين ويسطه في هيئة طبقة غافرة بعرض منسوبه على حساب البحر (١) .

كونت هذه المحمولات فوق الجرانيت أو الجص أو الرمل سمكاً من « أرض سوداء » (كيمي) يتراوح بين عشرة أمتار وثلاثين متراً حسب الجهات .

إن الارض النيلية التى تغطي الوادى على هذا النحو مكونة من صلصال طبيعي وصلصال هلامي تنضم اليه جواهر ملحية ، وذلك منتج دقيق من تحلل آت من محمولات شديدة الانسحاق من النيلين : الابيض والازرق .

وتكون هذه الارض القابلة للزراعة - بعكس ما عليه جميع الجهات الزراعية تقريباً - هو بعينه في جميع أجزاء القطر . والتحليل الآتى الذى يثبت وحدة هذه التربة يظهر أيضاً محتوياتها المعدنية القوية . وسنشير إلى ذلك بمناسبة غذاء الفلاحين .

(١) ب . بوفيه - لايبير . « مصر فيما قبل التاريخ » في كتاب : تاريخ مصر ، المجلد الأول . صفحة ٩ - ١٤ : مصر والنيل .

مصر العليا		مصر السفلى		
مطاي	إطسا	المنصورة	طنطا	
٪	٪	٪	٪	
٠.١٧٦	٠.٠٦٣	٠.١٥٦	٠.١٥٥	بوتاس
٠.١٧٤	٠.١٧٢	٠.١٧٠	٠.١٥٨	صودا
٤.٤٤٧	٥.١٥٣	٣.٢٨	٣.٣٨	كالمسيوم
٣.٨٩	٣.٧٥	٣.٦٦	٣.٨٨	مانيزيا
٠.١٢٦	٠.١٢٤	٠.١٤٥	٠.١٢٢	(المنغنيز
٢٤.٣٩	٢٠.١٢٣	٢٤.٩٠	٢٣.٣٦	(الحديد والشب
٠.١٢٨	٠.١٢٢	٠.١٢٣	٠.١٢٠	(الفوسفوريك
١.١١٠	٣.١٠٣	٠.٨٥	٠.٦٧	(الكرونيك
٠.١١٠	٠.١١١	٠.١٠٣	٠.١٠٩	كلورين
٧.٧٨	٧.٣٨	٧.٧٦	٧.٧٩	(العضوية
٥٧.٢٣	٥٩.١٦	٥٨.٥٨	٦٠.٢٨	(الفير القابلة للتحلل والرمل
٩.١٩	٠.١٠٥	٠.١٠٧	٠.١٠٧	نيتروجين
(١) بحوث مدرسة الزراعة الملكية بالجيزة .				

إن الأرض التي آتى بها النيل لا يكف عن إغائها وإروائها بالفيضان أو عن طريق القنوات ، وذلك دائماً تحت مراقبة الانسان .

وطريقة الري بالحياض الضاربة في القدم والتي لا تزال إلى اليوم تشمل مليوناً من الأفدنة تنحصر في إحضار الماء في عصر الفيضان عن طريق قنوات صغيرة إلى

سطوح واسعة من الأرض محوطة بمجسور عالية فتبتلع الأرض الماء إلى حد الشبع ،
والباقي يسيل في سير بطيء بعد أن يضع طبقة من الرواسب الدقيقة التي كان الماء
محملاً بها قبل وصوله إلى الحياض . وعلى هذا النحو ينال كل فدان ٧٠٠٠ متر مكعب
من الماء تغنيه بمائة أو تسعة (أطنان) من الرواسب . وعلى أثر انسحاب الماء مباشرة
(نوفمبر) يبدأ العمل في الزراعات التي تأخذ في النمو إلى الحصاد دون احتياج إلى
رى آخر . وبعد هذا تظل الأرض باثرة إلى الفيضان التالي ، ومع ذلك فزراع
الأرض الواقعة في الحياض لكي يستفيدوا من زراعة صيفية بعد غلة الشتاء يلتجئون
إلى الماء النابع من الأرض بوسيلة (ماكينات) المياه التي انتشرت إلى حد أن غيرت
بهج الزراعة في تلك الأصقاع .

أما طريقة الري الذي يدعى بالدائم والذي أدخل في سنة ١٨٤٠ وصار ممكناً
بفضل الأشغال الفنية ، وأكثرها جدارة بالاعتبار سد خزان اسوان ، فهي تسيطر
على كل الدلتا وعلى جزء عظيم من الوجه القبلي (٤٣٠٠٠٠٠ فدان) .

لم يعد النيل يفيض في تلك الجهات ، ولكنه - محجوزاً في خزانات وموزعاً بواسطة
سدود - يتفرع إلى عدد كبير من القنوات ويغذيها في جميع الفصول أي أنه :

أولاً في موسم الفيضان (من أغسطس إلى أكتوبر) لا تكون الحقول مغمورة
بالمياه ، ولكنها تكون مروية فقط وتنتج الغلة المسماة بـ (النيلية) .

ثانياً في وقت نقص النيل (من نوفمبر إلى إبريل) تتلقى الأرض التي تكون
لا تزال رطبة الماء الكافي لزراعة الشتاء (الشتوية) .

ثالثاً في زمن التحريق (من إبريل إلى يولية) تفتح الخزانات وتسمح بالرى
الذي يقاد الغلة الثالثة المسماة بـ (الضيفية) إلى النضوج .

لكي تثمر الأرض يجب أن تروى ، ويجب أيضاً أن تنفس .

بوساطة التشققات التي ترسبها أشعة شمس الصيف على الأرض المسطحة تتكفل تلك الشمس بصحة الحقول البائرة وتساعد على إقناص أملاحها وتجففها وتحقق لها تهوية عميقة وهكذا تصير الأرض جافة ومتجددة (١) . . .

وإذا ، فنحن نرى النيل بمساعدة الشمس يعد أرض البلاد ويزرعها ، وهو بهذه الظاهرة نفسها يرسم حد البيئة الطبيعية للفلاح أو مصر الحية .

في الواقع أنه في الأماكن التي لا يتغلغل فيها من فوق أو من تحت تبدأ الصحراء بقتة بدون منطقة انتقال . واصطلاحات الأطالس التي تظهر فوق خريطة مصر شريطاً رقيقاً أخضر على أساس بين الصفرة والحمرة تتحقق هنا تماماً .

من فوق قمة الهرم الأكبر أو من ضواحي القاهرة أو من الصعيد (مصر العليا) (٢) وأياماً اتجه نظر المرء يسترعى انتباهه وضوح خط الانقسام ، وهناك ينتهي مقر الإنسان وعمله .

واد مسطح بين صحور الصحراويين : الليبية والعربية ، طوله ١٥٠٠ كيلو متر ، وعرضه كيلو متر عند وادى حلفا ، و ٥ كيلو مترات في ادكو ، و ١٤ كيلو متر بين

(١) . موسيرى وأوديبيو : عن دور وتشققات الأرض في جفاف تربات مصر وصحتها الدائمة نشرة معهد مصر ، المجلد الأول (١٩٢٢ - ١٩٢٣) ص ٩ - ١٠١٩ ديمانجون ، المشا كل الوقتية والمظاهر الحديثة للحياة الريفية في مصر ، : المجلة الجيوغرافية ، باريس ، مارس ١٩٢٦ ص ١٥٥ - ١٧٣ .

(٢) قال المقرئى : الصعيد المرتفع من الأرض ، وقيل : الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة ، وقيل ما لم يخالطه لمل ، وقيل وجه الأرض ، وقيل الأرض الطيبة وقيل هو كل تراب طيب . . . سماها العرب بذلك لأنها جهة مرتفعة عما دونها من أرض مصر . ص ١٨٩ من المجلد الأول من خطط المقرئى .

الأقصر واسهوط حيث يضيق من جديد ، و ٢٥ كيلو متر في بني سويف حيث يتفرع نحو الغرب (الفيوم) وهو يمتد على عرض ٢٦٠ كيلو متر في الدلتا . ومجموعة كل هذا ٣٢٠٠٠ كيلو متر مربع من أرض جيدة في وسط مليون من الكيلومترات المربعة من الرمال القاحلة - وهي ٣٪ من مجموعة الأرض - هذه هي مصر الحية المغذية .

رسم النيل شبحها : هو يبدو لنا كأنه لوتوسة غلاقة ، جذراها - وهما : النيل الأبيض والنيل الأزرق - مغروسان في قلب إفريقيا وفي جبال إيتيوبيا العليا وفي بحيرة كونجو الكبرى ينبتان من الخرطوم ساقاً وحيدة تتغلغل في مصر ضيقة عند وادي حلفا ولا تخفض إلا في اسوان ، وهي تثبت ورقة في بني سويف (بحر يوسف - الفيوم) وهي تزهر في القاهرة وتفتح إلى أغصان لا تحصى على فرعي وشيد ودمياط ثم تلحق البحر الأبيض المتوسط من خلال أهداب بحيرات : مريوط ، وادكو ، وبرلس ، والمنزلة التي تمتد من الغرب إلى الشرق حول مصب النهر .

إن وادي النيل المحصور بين الصحراويين اللتين تقوم وراءهما الحدود السياسية هو ذو طبيعة زراعية في جوهرها ، وحياته يعبر عنها بنغمة واحدة وهي : الأخضر ذو الزراعات الغير المنقطعة ، وهذه الزراعات تمتد في ريف عظيم واحد مسطح يكثر المدن والقرى .

على ارتفاع قامته الرجل وقبل ضم غلة الذرة مثلاً لا يرى المرء النيل ولا القنوات التي لا تحصى ، ولا مجارى المياه ، ولا قضبان السكة الحديدية التي تظهرها الأعمدة التلفرافية وحدها ، ولا المنازل المنخفضة المتجمعة ... على نحو ما في مروج هولاندا أو روسيا الرطبة ، ولكن تحت سماء لا تمطر تبدو صدارة الزراعة والحقول . لينذهب كل راحل في مصر النيلية من القاهرة إلى الاسكندرية ، أو لينذهب بالعكس

نحو الجنوب ، ليسافر في سفينة أو في سيارة ، وفي الدلتا أو في الصعيد ، وفي الصيف أو في الشتاء ، فإن المظهر الزراعي للمناظر المحيطة يتغير .

غير أنه عند ما يبتعد عن النيل نحو السويس ، أو نحو دبر واد النطرون القبطي فإن الصحراء تبتاعه من كل جهة . وإذا ذلك يعتقد أنه قد غير البلاد .

في الغرب يلتقي بالواحات البدوية : الخارجة والداخلة ، والفراقة وسيوة ، وفي الشرق نحو شواطئ البحر الأحمر يجد استغلالات للبتروك والفوسفات وأسراً من الفلاحين (الصمائدة) قد استقرت هناك للأشغال .

في هذا القسم القصي الأجرد الذي ليس هو مصر العليا ولا مصر السفلى يذكر هؤلاء الرجال الذين انتقلوا من منابهم المسافرين بالريف المؤلف الذي هو عنده كما عند تسعة أعشار المصريين يمثل البلاد .

٢- الدراسة الاقتصادية للجغرافية البشرية

ومع ذلك ، فلا ماء النيل ولا رواسيه ولا أشعة الشمس الحارة كانت ستصنع أو ستحفظ إلى اليوم مصر الزراعية بدون معاونة شعب هو في جوهره أيضاً زراعي .

نحن نلاحظ بدياً اتصالاً بين الاجتماع البشري وإمكان الاحتواء ، فهنا أكثر من أي مكان آخر تلتئم خريطة الماء وخريطة الأناس .

يمكن أن يكون العدد قد احتمل تغيرات على ممر العصور ولن يستطيع أحد أن يحدد تلك التغيرات بطريقة يقينية ، ومع ذلك فما عثر عليه من آثار ما قبل التاريخ يسم منذ زمن مبكر عن أمارات الازدهار .^(١)

(١) ج دي مورجان ، بحوث عن أصول مصر ، ص ٦٧ . مجلد واحد .

وقد يتأرجح العصر الفرعوني بين سبعة ملايين ، وهو العدد الذى عينه ديودور الصقل ، وعشرة ملايين^(١) . ويتحدث كتاب مصر المسيحية عن عشرين مليونا ، وفى زمن الحملة الفرنسية - وكان الفتحان : العربى والتركى قد مرأ - نهوى الى مليونين ونصف تقريبا . وقد اعتبر «جومار»^(٢) معتمدا على كمية القرى وعلى الانتاج أن من الطبيعى أن يكون هذا عدد السكان .

أما أن يكون ذلك بالعكس حدا أدنى تجاوز المألوف ، فهذا ما يستكفل الاحصاءات التالية باثباته . وفى الواقع أن التوازن الذى دمرته أسباب غير جيوغرافية كالقتل والوباء والجوع^(٣) . . . لم يلبث أن عاد إلى الاستقرار كما يسجل ذلك المسيو فيدال دى لا بلاش بحق عندتنا وله مصر فيقول : «عند هذه المدنات القديمة المؤسسة على ما هو أقل الاشياء تعبرا ، وهو خصوبة التربة وقواها على إصلاح نفسها»^(٤) توجد محدة غريبة وهى المرونة .

(١) ١ . موريه «النبيل والمدنية المصرية» . ص ٥٦٧ . لا تقدم الآثار أى تحديد على عدد الشعب فى الأزمنة الفرعونية ، وبالمقارنة مع العصر الحديث يمكن المرء أن يعتبر أن مصر بمعنى الكلمة قد استطاعت أن تمون ثمانية ملايين نسمة فى عهد الإمبراطورية الطيبية ، وقد قدر الأمير عمر طوسون هذا العدد بثمانية عشر مليونا (مذكرات عن ماليات مصر منذ الفراعنة إلى أيامنا)

(٢) جومار ، مذكورة عن الشعب مواز فى مصر القديمة والحديثة فى «وصف مصر» . طبعة بانكوك ، المجلد التاسع صفحة ١٠١ - ٢١٠ .

(٣) قال عبد اللطيف البغدادى فى «وصف مصر» ، متحدثا عن قراها بعد نزول الكوارث بها ما معناه : حسبى أن أقول : إن القرية التى تحتوى عشرة آلاف نسمة لم نعد نأظفر لمن يمر بالقرب منها إلا موضعا واسعا لإلقاء القاذورات ، فتارة يوجد فيها بضعة أشخاص منعزلين ، وتارة لا يرى فيها أى ساكن .

(٤) مباى ، الجيوغرافيا الإنسانية صفحة ٥٣ .

وفي الواقع أن الأمن العائد ، والنظام المستقر ، واستعمال الري الدم ، والزراعات الصناعية التي تنتشر انتشارا مطردا بمضاعفتها إمكانات التربة ، كانت تضاعف في الوقت ذاته بفعل السببية المتبادلة اقتضاءات الأيدي العاملة ، وبالتالي كان ذلك يستتبع نمواً في عدد الأهلين .

أسفر التعداد الفردي الأول سنة ١٨٧٣ عن ٥٢٥٠٠٠٠ ساكن ، وبعد نصف قرن أي (في سنة ١٩٢٧) صعد عدد الأهلين إلى ١٤٢١٧٨٦٤ . وفي سنة ١٩٣٧ وصل إلى ١٥٩٠٤٥٢٥ .

ومهما يكن من شيء فإن العمران يظل دائماً مزدحماً على الأرض السوداء ، وهو دائماً محدود بها ، و ٩٩ / أي أكثر من خمسة عشر مليوناً يقيمون في الحركة الناشئة من مياه النيل أي فوق جزء من ٣٠ جزءاً من أرض المملوكة .

في هذا المسطح الضيق لا تكاد المدن المفرطة في الزحام وإن كانت قليلة العدد تحتوى على أكثر من ثلاثة ملايين من المدنيين ، والمصريون الآخرون قرويون ، وهم كلهم تقريباً عمال في الأرض أي فلاحون . وبمقتضى التعداد الرسمي يشتغل ٦٢ / من رجال البلاد في الحقول ، وينبغي أن يضاف إليهم النساء والأطفال ، لأنه يجب علينا هنا أن نقدر هذه الأيدي العاملة النشيطة الكثيرة العدد . وإذا ، فنحن نعتقد أننا نظل في داخل حدود الحقيقة إذا أوصلنا إلى اثني عشر مليوناً من الأنفس هذا الشعب الزراعي الذي هو موضوع دراستنا . (١)

وهذا الشعب ينمو . . . نعم بحالة أقل منها سرعة في شعب القاهرة مثلاً ما دام أن الزيادة في القاهرة فيما بين سنتي ١٩١٧ و ١٩٢٧ كانت بنسبة ٢٨ / على

(١) لا يوجد في إنجلترا مثلاً إلا أربعة ملايين قروي . ومنذ سنة ١٩٠٠ فقط هجر الزراعة ٢٥٠٠٠٠ شخص

حين أنها في الريف لم تكسب تتجاوز ١٠ ٪ ، ولكن بينما يكون في المدن جزءاً عظيم من تلك الزيادة ناشئاً من هجرة الأجانب والقرويين إليها ، فإنها في الريف ليس لها سبب إلا التناسل ، وهكذا يكون لدينا متوسط من الشعب الريفي عدده (٤٥٠) شخصاً في كل كيلو متر مربع . وهذه الحالة ليس لها نظير إلا في توكان حيث يقيم ٦٠٠٠٠٠٠ من الأنفس فوق ١٤٥٠٠ كيلو متر مربع أي ٤١٣ شخصاً في كل كيلو متر مربع ، و ٩٣ ٪ من الأهلين فوق ١٦ ٪ من مجموعة الأرض . ومن هذا الجمهور يعيش مليونان وتسعمائة وثمانون ألف شخص في متوسط قدره ٥٠٠ في كل كيلو متر مربع ومليون وخمسمائة وخمسون ألفاً في متوسط قدره ألف شخص في كل كيلو متر مربع (١)

إن ازدهار التعمير في وادي النيل تشرحه ظاهرة واحدة وهي أن جميع الشروط الجيوغرافية والاقتصادية والاجتماعية المعينة على نمو النسل تلتقي على هذه الأرض وتلك الشروط هي :

(١) المناخ الحار ونفس طبيعة الوادي المحدد تحديداً واضحاً والذي هو مسطح وواحد وسهل الاستنبات .

(٢) تكسب الزراعات المقوتة التي تغذى في مكانها شعباً عظيم العدد : فالذرة والقمح والأرز والعدس والفول تنبت في جميع البلاد ، وزراعة القطن التي تتطلب عدداً كبيراً وثبتته والتي يستطيع دخلها أن يغني . والري الدائم الذي يقتضي من جهة مساعدين كثيرين ، ومن جهة أخرى - بسبب زيادة القيمة التي يمنح الأرض إياها - يسمح بالحياة لعدد أكبر .

(٣) ذلك التقسيم الأقصى للأرض إلى قطع صغيرة سواء أكان ذلك في الأيجار أم في الملك ، إذ يصير الاستغلال الصغير سبباً لزيادة السكان . وهذا يتعلق

(١) أرقام المسيو « جودو » في « فلاحو الدلتا التونكانيون » . دراسة الجيوغرافيا الانسانية . باريس طبعة الفن والتاريخ . ٦٦٦ صفحة - سنة ١٩٣٦

الأمر بالحصول على معونة في مقابل رخيص ، وهي معونة الأطفال . الفلاح إذا مدفوع بحاجة الأرض ، فالحصول على الأولاد بأسرع ما يمكن هو في رأيه معنى الزواج والأسرة .

هناك حيث تجتمع هذه الأسباب كما في مديرية المنوفية بالدلتا مثلاً ، وهي أقدم الأراضي المزروعة والمروية وأكثرها زراعة للقطن وأشدها توزعاً (قطع من ١٠ إلى ١٥ قيراطاً ^(١)) نشاهد متوسطاً قدره : ٧٤٧ شخصاً في كل كيلو متر مربع .

وعندما تكون تلك الأسباب غير متلائمة يخف هذا المتوسط . مثال ذلك في الجنوب في الجهات الواقعة في أعلى وفي أدنى شلالات أسوان حيث الأراضي أقل غنى ولا تزال خاضعة لنظام الفيضان والملكية الكبرى : ففي مديرية أسوان نجد ٣٠٥١٩٥ فقط على ٢٢٤٠٠٠ فدان أي أن المتوسط هو ٢٨٥ في كل كيلو متر مربع ، وكذلك في الشمال في جهة البحيرات حيث الأراضي شديدة الانخفاض والملوحة والرطوبة ، فإن لدينا هناك أضعف المتوسطات الريفية ، إذ يوجد في كفر الدوار على مقربة من الاسكندرية ١٨٥ شخصاً في كل كيلو متر مربع ، غير أن عدم التساوي في التوزيع إذا كان يشرح بوساطة التأثيرات الطبيعية ، فإنه لا يحدد بوساطتها ، إذ أن الاستعداد لسعة السكان في الجهات المتطرفة التي عيناها آتفاً بعيد عن أن يكون قدامتلاً . وهنا ينبغي الالتجاء إلى عامل نفسي من الدرجة الأولى في الأهمية وهو : العادات . ففي عقل الإنسان يؤثر الزمان بمقدار ما يؤثر المكان . وفي الواقع أن الفلاح ذو مزاج مستقر إن لم نقل : إنه ملازم لداره ، فهو يبقى مسمراً في قريته التي هي مسقط رأسه والتي تمثل له اطمئنان الحاضر والماضي . هو على العكس من قروي فلسطين وسوريا لا يهاجر ليحرب حظه ، بل هو لا يذهب ليجتث عن عمل في مديرية أخرى

(١) من الملكيات التي عددها ٢٨٣٢٣٢ الموجودة في تلك المديرية يملك ٢١٦٨٦١ أقل من فدان ومتوسطها ٤ ، من الفدان .

تقل فيها الأذرة إلا إذا صودر وأخذ بالقوة . وإذا غادر بلده ، فليس إلى قرية أخرى لا يمكن أن تساوى قريته ، ولا يمكن أن تكون حياته ولا ربحه فيها أحسن ، ولكن إلى المدينة ، وعلى التفضيل إلى القاهرة .

وهكذا تندر الانتقالات ، ولكي يُعمر الملاك أراضي البرارى الجديدة رغم شروط الدفع والسكنى المفيدة التي يعرضونها ، هم يحصلون بصعوبة على الأيدي العاملة الكافية .

ربى متزاحم مستقر ، كذلك يبدو لنا الشعب المصرى فى خصائصه السائدة . ولقد تسببت هذه الخصائص فى ازدهام وادى النيل بقدر ما تسببت فيه الحاجات وإمكانات الأرض . ومع ذلك فنحن لا نعتقد أن هذا الزحام هو إلى حد أنه يمكن أن يصير خطراً .

إن التربة السهلة تضاعف عدد الزراع ، ولكن الزراع أيضاً يضاعفون حجم الأرض . وإذا نما عدد الـاهلين الزراع فإن الأرض القابلة للزراعة والمقوتة تنمو ويمكن أن يكون نموها فى الإثمار بقدر ما يكون فى الكمية .

بوساطة تعميم الرى الدائم واتساع استعمال الأسمدة الكيمائية — وذلك رغم إنهاك التربة الناشئ من القطن — قد تضاعف دخل الأرض ، والمسطح الذى يزرع واقعياً فى كل عام يمثل تقريباً من تسعة ملايين فدان .

ومن ناحية أخرى فبين سنتى ١٨٩٧ و ١٩٣٧ بفضل أعمال المصارف والتحسينات المدخلة على التربة (الأرض البور والبرارى) الواقعة فى طرف الدلتا قد نما المسطح المزروع بمقدار ٧ ٪ / ويوجد اليوم ٥٤٠٠٠٠٠ فدان منتجة ولا يزال ١٧٠٠٠٠٠ فدان بدون استغلال ، إذ أن مجموعة مسطح الأرض المصرية الصالحة للزراعة هى ٧١٠٠٠٠٠ وهذا الهامش يمثل نوعاً من الاحتياطى يؤخذ منه بقدر ما تتطلب

الحاجات وتسمح الوسائل ويستصلح منه ٨٠٠٠ فدان تقريباً في كل عام . وعند ما ينتهى منه سيقى السودان الصالح للاستقبال والقليل التعمير والذي هو يطيل مصر العليا ويشبهها .

ولكن مصر لا تزال بعيدة عن درجة التخمّة ، وهذه التخمّة توجد عند ما تزول المقدرة على الابتلاع أى حينما تصبح كمية الوسائل في بلد من البلاد عاجزة عن تقوية السكان الذين يشغلونه في مستوى حياتهم .

وما دام أن موضوع هذه الدراسة هو الفلاح ، فانه ليس عندنا نية عرض دراسة الشعب المصرى بطريقة تامة ، وإنما سنقتصر على هذه المسألة فحسب ، وهى : هل يوجد زحام فوق الطبيعى في القرى ؟

٧١٠:٠٠٠٠ فدان - وهى مجموعة المسطح الصالح للزراعة - تستطيع أن تقوت ١٤٢٠٠٠٠٠٠ فلاح ، ففي الواقع أننا إذا سائرنا نفقة المعيشة في القرية حتى مع فرضنا تحسين مستوى حياة الفلاح فان دخل نصف فدان يمكن أن يحقق قوته . إن متوسط دخل الفدان هو اثنا عشر جنيهاً . فلنأخذ أسرة ريفية مكونة من ستة أشخاص مثلاً : أب وأم وأربعة أولاد ، فالجميع يستطيعون أن يعيشوا من ثلاثة أفدنة أى من ٣٦ جنيهاً في العام وثلاثة جنيهاً في الشهر . وينبغى أن تضاف إلى ذلك الوسائل الصغيرة التي تأتي بها المرأة (كبيع البيض والطيور المرباة في المنزل) بهذا لا تعيش هذه الأسرة في البأساء وتستطيع أن تدخر .

سيتحقق من هذه الحالة عندما سيكون في البلاد ١٤٢٠٠٠٠٠٠ شخص لا يعيشون إلا من العمل في الأرض ، وهذا يقتضي أن يكون سكان مصر عشرين مليوناً لأننا لا نعد هنا المدنيين ولا الريفيين الذين ليسوا زراعاً كالصناع والملاحين والتجار ، فهؤلاء كأولئك لديهم وسائل أخرى للعيش .

ولما كان لا يوجد اليوم اثنا عشر مليوناً من الفلاحين بالمعنى الضيق المراد هنا فانه

يبقى إذاً ، هامش قدره ثلاثة ملايين للحقوق بمستوى التخمة ولكن ذلك لن يكون قريباً ، لأنه إذا كان النسل القروى قوياً جداً : ٤٤ في الألف (أى متوسط ثمانية مواليد فى كل أسرة) . وإذا كانت الهجرة جد ضعيفة (١ /) فان وفيات الأطفال — وعلى الأخص بالزهرى الوراثى — تبقى جديرة بالاعتبار ، وهو يبيد أكثر من نصف المواليد . فى سنة ١٩٣٤ مثلاً بدون عد الأطفال الذين يولدون أمواتاً كان الأطفال الذين توفوا قبل العاشرة يمثلون ٦٥ ٪ من الوفيات العامة ، والذين لا يلحقون من بين الأحياء ٢٠ عاماً هم بقدر الذين يتعدونها . وفى المجموعة بين الإحصاء وفيات قدرها : ٢٦ ، ٦ فى الألف ، وفوق ذلك فان الأمراض المتوطنة التى تهاجم الشعب القروى وتضعفه تقف متوسط سن الجيل عند الستين ، والرجال الذين يولدون أكثر عدداً من النساء يلحقون الشيخوخة بهيئة أندر منهم .

وأخيراً قل تعدد الزوجات ، فى سنة ١٩٣٤ من بين ٣٠٧٩٤ مسلماً قد تزوجوا ، كان ٣٥٠٠ فقط من ذوى الزوجتين .

من المحقق أنه بتقدم الصحة العامة يمكن أن تنجو حياة كثير من الأنفس ، فإذا واجهنا الأمور فى أحسن صورها ، فإن الشعب القروى يمكن أن يزيد مائتى ألف تقريباً فى كل عام بدلاً من ١٦٨٠٠٠ كما حدث فيما بين سنتى ١٩٢٧ و ١٩٣٧ وإذ ذاك يصير عدد الفلاحين أربعة عشر مليوناً بعد أربعين سنة .

تلك هى نقطة الاتهام إذا لم يكن المصريون إلى ذلك العهد قد عرفوا كيف يصيرون الأرض أكثر إنتاجاً ، ولكن تلك الأرض ليست عند نهاية استعداداتها ، فكل الناس يعرفون — والتجربة تؤيد ذلك — أن الفدان بقليل من العناية يغل سبعة أراذب من القمح بدل خمسة ، وعشرة من الذرة بدل سبعة .

ولكى نعود إلى الحالة الراهنة نقول : إننا إذا اعتبرنا كل مديرية على حدة ،

نلاحظ أن عدد السكان يتفق في العموم مع عدد الأفدنة حسب النسبة التي حكمنا بأنما ضرورية أي نصف فدان تقريباً لكل شخص ، فمثلاً لكي لا نذكر إلا المديريات الأكثر ازدحاماً في الوجه البحري نقول :

الغربية	١٦٢١٠٠٠	فدان	على	١٩٦٣٦٥٤	شخصاً
الدقهلية	٦٣٢٠٠٠	»	»	١٢١٥٤٤٠	»
الشرقية	٨٥٢٠٠٠	»	»	١١١٩٣٣٦	»
البحيرة	١٠١١٠٠٠	»	»	١٠٦٠٨٨٩	»

ان مديرية المنوفية التي تحدثنا عنها هي وحدها التي يبدو أنها لحقت درجة التخمّة فيها ٣٨٣٠٠٠ فدان على ١١٥٧٤٣٣ شخصاً أي أقل من ثلث فدان لكل فرد . ولهذا بينما كانت المديريات الأخرى فيما بين سنتي ١٩٢٧ - ١٩٣٧ تسجل زيادة قدرها ١٠٪ لم تكن زيادتها هي إلا ٤٪ (في سنة ١٩٢٧ كانت ١١٠٥١٩٧) وبالإيجاز يوجد تضخم في الشعب ، ولكنه محصور ونسبي . والدواء ليس في « المتوسية » (أي تحديد النسل) كما يطلب ذلك بعض الملاحظين السطحين ، ولكنه في سياسة التقسيم والتوزيع وزيادة الإنتاج . والحكومة وحدها لا تستطيع أن تقوم بالتطبيق الناجع لهذه السياسة . وهناك كما في كل المشكلات الفلاحية التي سنتقي بها : التريية قبل كل شيء .

لم تكن غاية هذا الفصل هي إعادة الكتابة عن جيوغرافية مصر أو دراسة شعبها ، ففي هذه الحالة كان سيجيء غير كامل ، وكان عدم الخرائط سيكون فيه ثغرة ضخمة ، فنحن قد أردنا - باعتبار الأرض بقدر ما أردنا ذلك باعتبار السكان وبالصلة بين هذين المظهرين - أن نظهر أن مصر هي قبل كل شيء بلد زراعي ، وإن يفتادنا ذلك إلى زراعتها ولكن إلى الرجال الذين يقومون بتلك الزراعة والذين قد تكونوا بوساطتها وهم الفلاحون .

الفصل الثالث

الاطار الاجتماعى

مصر ———— بلد أوليجارشى

في الدولة وفي الجماعة - واليوم كأمس - يمثل شعب مصر القروى الجمهور والسكينة وكأنه المادة الأولى . إنه يؤلف الدعامة ، وكنا سنقول أسس البنية الحكومية والاجتماعية هذه البنية المزدوجة هي التي تهتم معرفتها قبل مرافق الفلاح في حياته .

إن واجهة مصر العصرية هي من طراز حديث ومختلط . وهذه الواجهة تشغلها ثلاث مدن وهي : القاهرة والاسكندرية وبور سعيد بنشاطها المتضاعف الساطع .

القاهرة بجامعاتها المحتويتين على عشرين ألف طالب ، وبمتاحفها ومعاهدها العلمية ومؤتمراتها الدولية ، ومحاضراتها الشتائية وقصورها . . .

والاسكندرية بمرفئها التجارى العظيم (وبورستها) القطئية وحماماتها الفاخرة ، ومعاهدها الأجنبية وإفريزها . . .

وبور سعيد - وهي طريق الهند - بقناة السويس وكل التجارة التي تنتجها . . .

على هذه اللوحات الثلاث تصطف طوائف اجتماعية متزاخمة ومتباينة ، وهي تخفى مصر الأساسية كما تخفى أحجار الفسيفساء الأسمت الرمادى الذى هي ملتصقة به . . . لأنه على نفس النهج الذى كان يقال به سابقاً عدة « روسياوات » و « ألمانياوات » من الحيثية الاجتماعية يمكن أن يقال اليوم « الأمصار » نعم لا توجد هنا جماعة مصرية

بالمعنى الذى يفهم من هذه الكلمة فى الأدب أو فى التاريخ ، ولكن يوجد فقط مجتمع متقلب ومتباين لا يكاد يلتئم مع البلاد ، وكذلك لا توجد جماعة قروية وإنما يوجد فقط جمهور ذو طبيعة واحدة مؤلف من قرويين منتسبين الى الأرض ومستقرين فى القرى .

فى كثرة لا تؤلف جسماً تتلامس الجمعيات أو يتكدس بعضها فوق بعض دون انساق ولا تداخل ، بل دون تعارف .

لا يعرف مدينو القاهرة أو الاسكندرية الريف الا كمنظر يلمح فى الخارج من باب السيارة أو مركبة القطار ، وكذلك الفلاحون المحصورون فى حقولهم وقراهم لا يعرفون المدينة الا عن طريق العمدة أو البقال الاغريقى أو الناظر .

وفى القاهرة نفسها أو الاسكندرية اللتين تجمعان أريستوقراطية مصر لا تختلط الجماعات الا بأطرافها ، وكل فرد يقتاد حياته الخاصة الكافية ، ولكل واحد عقلية ومصره .

هذا هو العالم الوطنى ، وهو قبطى أو مسلم ، وبيئة الملاك الأثرياء هى مغارة لبيئة الموظفين ، وطائفة الأزهر الدينية لا تكاد تتصل ببيئة الجامعة الملكية المدنية ، وفى الاستقبالات والحفلات يظل عالم المجتمعين ذكوراً ، والنساء يؤلفن عالماً آخر ، وهناك أيضاً بيئة القصر ، وبيئة الأمراء المستقلة وهـكذا .

وها هى ذى « الجاليات » انها قد تمصرت . هذا هو مظهرها العام ، ولكن كل واحدة منها تحتفظ بسحتتها وميوها : السوريون النشطاء الجراء ، واليهود المالىيون المقتدرون ، والانجليز المترفعون أصحاب « تورف كلوب » والفرنسيون والبلجيكي ذو الشركات العظمى : (الغاز ، والمياه ، والبنك العقارى ، والسكر ، وقناة السويس) . والإيطاليون المتخصصون فى العمارة والتجارة ، والاغريق الاكثر عدداً وقرباً من الشعب .

كل هذه البيئات المدنية في جوهرها هي بصفاتها ورؤوس أموالها كأنها خيرية
الاقتصادية والمالية والسياسية لمصر ، ولكنها لا تكاد تكون خيرية اجتماعية ، لأنها
لا تمتاز بالعجين لرفعه ، وهي لا تجذبه معها في تطوراتها ، وإنما هي - من الخارج وعلى
بعد وعن طريق عدد من الوسطاء - تعجنه وتستخلص منه كل ما يمكن استخلاصه .

إن مستودع ثروة مصر هو دخل الأرض عن طريق عمل الفلاح ، ولكن قبل
كل شيء ما هو النظام الشرعي للتربة المنتجة ؟ إذ أن التكوين الاجتماعي للبلد الزراعي
يرتسم على نظامه العقاري .

إن الأراضي النافعة في مصر - وهي الثلاثون ألف كيلو متر مربع تقريباً التي تمثل
ثروة قدرها ٤٣٥ مليون جنيه - تنقسم إلى ممتلكات أميرية (وهي الممتلكات
الحكومية الخاصة) وممتلكات الأوقاف (وهي غير قابلة للانتقال) والممتلكات الشخصية .

الدولة والأرض

في سنة ١٨١٣ بعد أن صادر محمد علي (١٧٦٩ - ١٨٤٩) مؤسس مصر الحديثة
ثروة المالك قسم الأراضي التي كانوا يملكونها إلى مناطق ثم وزعها على القرويين ،
وهكذا نال كل زارع من ثلاثة إلى خمسة أفدنة بعنوان مستثمر . وقد ظل إلى سنة
١٨٤٠ تحت نظام الاحتكار ، فكان يجب عليه أن يسلم إلى مستودعات الحكومة كل
قطنه في مقابل ثمن رسمي أدنى من الثمن الحقيقي . أما الغلال التي يستطيع بيعها بعيداً ،
فقد كان يدفع عنها حقوقاً تبلغ ثمانية عشر قرشاً عن كل إردب بمقتضى المبدأ الإسلامي
كان الحاكم الأعلى - وهو في الماضي السلطان أمير المؤمنين ، والآن واليه المتحرر -
يبقى مالكا لجميع الأراضي المفتوحة باسم الله ، ومع ذلك فالأراضي التي تنازل عنها
السلطين السابقون للأفراد والتي كانت تمنح لرؤساء الضرائب والثروات المنتقلة إلى
الأوقاف كانت تظل خارج ممتلكاته ، وفوق ذلك فإن أراضي واسعة وغير منزوعة

قد أقيمت عن سجل المساحة فبقيت غير خاضعة للضرائب (الى سنة ١٨٥٨) ثم عزيت ملكيتها الى الأعيان وكبار الموظفين وأعضاء الأسرة الحاكمة القادرين على جعلها مخصصة ، وهذا هو منشأ الملكية الكبرى .

أما الملكية الصغرى فقد تكونت صادرة عن تقسيم الاراضى . وفي سنة ١٨٤٦ قد أذن للفلاح المستثمر فى أن يتنازل عن نصيبه بطريقة شرعية مع احتفاظه بحقه فى الاسترداد بدون إمكان سقوط الحق ، وكذلك إذا خرج من الملكية بسبب تأخر الضرائب فانه بمجرد استطاعته دفعها يعود الى ملكية حقه . وبعد ذلك بقليل أصبح أولاد المستثمرين يستطيعون الاستمتاع بنفس حقول آبائهم ، ولم يكن هذا عن طريق الإرث ، وإنما هو منحة من الحكومة . وفى ١٨٧١ عرض اسماعيل باشا المهرق بالديون على المستثمرين أن يمتلك كل من يستطيع منهم دفع ضريبة ستة أعوام مقدماً نصيبه امتلاكاً كاملاً ، ولكن هذا القانون لم يفز إلا بنصف نجاح ، وقد ألغى فى سنة ١٨٨٠ غير أن مبدأ ملكية الفلاح قد صار حقاً مكتسباً وقد اعتمدته الحكومة ببيعها فى كل عام لصغار الملاك قطعاً من ممتلكاتها .

ومع ذلك فقد ظلت نسبة الضرائب وطريقة دفعها خاضعتين للأهواء الشخصية وكانت سبباً فى نشوء عسف فظيع ، وقد اكتشفت « اللجنة العليا لتحقيق الضريبة العقارية » (١٨٧٨ - ١٨٨٠) ذلك فى جميع المديرىات وبأعظم النسب فصارت المساواة فى توزيع الضرائب شيئاً يقتضى سرعة البت ولكن لابد قبل ذلك من وضع سجل جديد بطريقة علمية اذ كان محمد على فى تقسيماته قضائياً أكثر من المؤلف .

وفى سنة ١٨٩٣ شرعت مصلحة المساحة التى كانت قد أسندت الى مهندسين من الانجليز فى ذلك العمل الضخم وهو تجزى الارض ، فبعد أن استبعدت مقادير الطرق والقنوات والحدود الطبيعية قسمت أراضى كل قرية (زمامها) وهو ٢٠٠٠ فدان تقريباً الى أجزاء (أحواض) كل منها من خمسين الى مائة فدان متحدة

القيمة والخصائص بنسبة ٩٥٪ على الأقل ، وهذه الاحواض محددة بقطع من الحديد ورسم المساحة لكل قرية - وهو المعد على أساس $\frac{1}{25000}$ لجميع الاراضي الزراعية

ثم تقدم فصار $\frac{1}{25000}$ - يعين كل حوض برقمه السائر طبق النظام والتقدير . أما مقر السكنى فهو مرسوم فى صورته العامة ومعنى من الضريبة ، وسجل المساحة مضافاً إلى هذا الرسم يعين لكل قطعة من الحوض مكانها ومسطحها بالفدان والقيراط والضريبة النهائية واسم المالك (١)

تم هذا العمل فى سنة ١٩٠٧ ولكن الحكومة كان لديها منذ سنة ١٨٩٩ من العناصر ما يمكنها من تحديد النسبة العامة للضريبة وقد حددتها بنسبة ٦٤ ، ٦٥٪ من قيمة متوسط ايجاره ، وهذه القائمة المحددة مشروعة لمدة ثلاثين سنة.

هذا المتوسط المؤسس على مقتضى تقدير لجان من الوطنيين يراعى طبيعة التربة وما تحتويه من ملح ورمل وماء ، ومساقطها من النيل ، ولكنه يراعى اكثر من ذلك ظواهر الجيوغرافيا الانسانية كسهولة الري وصعوبته وكانتاج القطن وقرب الارض من المدينة أو القرية وقدم الاستغلال ونوع اليد العاملة والمواصلات والأمن وقانون العرض والطلب ... وبالأجمال : هو يراعى نفس الاسباب التى تؤرجح ثمن الفدان بين ٤٠ جنيهاً و ١٨٠ وهكذا توجد اثنتان وعشرون درجة من القيم يمتاز بعضها عن بعض وإذا كانت الضريبة تناسس على نفس النسبة ، فأنها تتراوح بين ١٤ قرشاً و ١٦٤ قرشاً . وفى سنة ١٩٣٩ حدد القانون رقم ١١٣ الضريبة الجديدة بنسبة ١٦٪ من قيمة ايجار الاراضى ، وذلك حسب التقدير الذى أجرته فى جميع البلاد لجان خاصة على متوسطات ايجارات الاعوام العشرة السابقة ، ومع ذلك فان رقم الضريبة كما كان قبل لا يمكن أن يتعدى ١٦٤ قرشاً للفدان .

(١) "the Cadastral Survey of Egypt" سجل المساحة المصرية ، ١٨٩١ - ١٩٠٧ تأليف ك . ا . ب . ه . ج . ليونس ، وزارة المالية القاهرة سنة ١٩٠٨ ٥٠٠ صفحة .

ذلك بدون إضرار بضرية النخل - الى سنة ١٩٢٠ - وهي قرشان ونصف على كل نخلة ، ويجرى التعداد في كل خمس سنين ، ولا بحق الرى وهي خمسون قرشاً عن كل فدان في الأراضى التى يمكن أن يحدث الرى الصيفى فيها بوساطة الجريان الطبيعى (free flow) وثلاثون قرشاً فى الأراضى المحتاجة إلى آلات رافعة (lift flow) وقد تنبه الى إنقاص الضرائب فى حالات لحوق أضرار بالزراعة بوساطة نقص الماء على أن تكون بحيث يتطلب ربا تكاليف ضخمة ، والذي يدفع الضريبة هو المالك وحده .

وكما أن رقم الضريبة محدد ، كذلك يوم الدفع محدد من قبل ، وهو يختلف فى كل مديرية حسب تواريخ الغلات الأساسية فيها ، وتجرى الدفعات بصورة تحقق سداد كل ما يجب على الأربعة والعشرين قيراطاً فى آخر العام . ففي القليوبية مثلاً فى يناير ٢ وفى مارس ٣ وأبريل ٣ وفى أكتوبر ٨ ونوفمبر ٨ ، وفى أسوان فى سبتمبر ١٢ وفى أكتوبر ١٢ وهكذا تجرى الدفعات الضخمة كما يرى على الأخص فيما بين سبتمبر ونوفمبر أى فى موسم غلة القطن .

تدفع الضريبة فى القرية عن طريق الصراف ، والإخطار (الورد) الموقع عليه يستعمل كمخالصة . وإذا لم تحدث الدفعات - وهوشى : مألوف - فإن الحكومة تتقاضى حقها بوساطة الحجز الإدارى والبيع الجبرى . فمثلاً فى عدد يناير من سنة ١٩٣٧ من الجريدة الرسمية قد أحصينا ٧٣٢ نزع ملكية ، وكلها تقريباً ملكيات صغيرة ، وهى دائماً معلنة فى صيغة واحدة ، وهى « فى ١٩ يناير ثلاثة قرارات يملكها إمام إمام إبراهيم المقيم بقرية كفر منصور مركز طوخ بحوض مدور رقم ٤ قطعة رقم ١٩ ومحجوز عليها بتمتضى صورة دعوى ٢ مارس سنة ١٩٣٦ وذلك لسداد الأقساط ، والتمن المحدد هو تسعة جنيهات وستون قرشاً للقيمة المحجوز عليها »

إن الحكومة أكثر صبراً مع كبار الملاك ، وقد اعترف لنا أحد الصيارفة بأن

هذا ظلم ، ولكن قد يكون الظلم في التطبيق لا في نفس النسبة التي هي - فيما عدا أوقات الازمات - ليس مبالغاً فيها ، إذ هي تقتضي فقط ممولا لا يكون ادخاره في حالة سيئة ودخلا بدون تقلب محسوس .

وإذا ، فإذا أضفنا إلى الضريبة العقارية (وهي خمسة ملايين ونصف) الضرائب المستحقة على بيع القطن ودخل الممتلكات الخاصة للحكومة فإن الارض تدر عليها نحو عشرة ملايين من الجنيهات في العام أي ما يقرب من ربع إيراد الميزانية ، ذلك لأن الحكومة هي أول مالك في مصر ، إذ أنها - زيادة على الاراضي المرصودة في سجل محمد علي والتي لم يشترها القرويون - قد امتلكت في سنة ١٨٧٨ ثروات الاسرة الخديوية في مقابل دفع جزء من ديون إسماعيل الجسيمة ثم بنت ممتلكاتها بإصلاح مساحات جديدة في جهة البحيرات وعند حدود الصحراء ، وهكذا لا تزال الحكومة تملك خمس المسطح الزراعي الذي هو سبعة ملايين فدان أي تملك بالضبط ١٤٧٠٣٠٥ وهي تستغل منها مباشرة ٤١٨٧٧٨ منشأة على الاخص في مصر السفلى تلك الممتلكات الضخمة المعفاة من الضريبة منها قسم مرهون (لضمان الدين العام) وقسم غير منتج . ومع ذلك ففي كل عام تصلح الحكومة حوالي ٨٠٠٠ فدان من تلك الاراضي الشديدة الجفاف أو الشديدة الرطوبة وتبيع القسم الأكبر منها للأفراد : صغار الزراع . تشغل ممتلكات الحكومة وتقوت نحو مليونين من الفلاحين الأجراء والمستأجرين وهناك كثرة لا تكاد تقل عن ١٢٠٠٠٠٠ نسمة تعمل في أراض لن تستطيع امتلاكها أبداً .

الاراضي الموقوفة

منذ الفتح الاسلامي ولغاية من غايات التقوى ، ولكن أيضا لوضع الثروات في مأمن من مصادرة الامراء أو من إسراف الورثة قد حول كثير من الملاك كل

أراضيهم أو قسماً منها إلى الوقف أى أنهم بوساطة نوع من التخصيص الدينى أو الهبة للإله قد صيروها شرعاً وأبدأ غير قابلة للانتقال، ولكن دخلها معد للمساجد والمدارس والمقابر والملاجئ وهو الوقف الخيرى ، أو عائد الى المنحدرين من المالك الى انطفاء الاسرة . وإذا ذاك يرد هذا الدخل الى الاعمال الخيرية ، وهذا هو الوقف الاهلى

ولما كان الإله وحده هو المالك فان المنتفعين بالاراضى الموقوفة لا يستطيعون أن ينالوا منها إلا الربح ، ولكنهم لا يتصرفون فيها البتة . وقد تبع المسيحيون الشرقيون هذا النوع من الايداع ، واليوم أكثر من ٦٠٠٠٠١٠ فدان أى سدس الاراضى المنزرعة تقريباً توجد على هذا النحو خارج الاعمال التجارية .

هناك وزارة - وهى وزارة الاوقاف - تسهر على استغلال الموقوفات القديمة للمسلمين وعلى تحقيق مقاصد الموصين والواهبين ، غير أنه من الواضح أن هذه الممتلكات المحبوسة التى ليس لها مالك إنسانى هي أقل الممتلكات إنتاجاً ، ومع ذلك فهذا السبب نفسه وبسبب قلة الحماية لدى النظار والوسطاء الذين يتقاضون أجورهم بيجبوحة على الدخل أيا كان ، يعيش الفلاحون على أرض الوقف بدون كثير عناء

الملكية الخاصة

بروق النشرات الحكومية أن تعلن أن مصر بلد الملاك الصغار ، وهى تستشهد على هذا بالإحصاءات الرسمية . وفى الواقع يوجد مليون ونصف من الفلاحين يملك كل واحد منهم حوالى ثلث فدان ، ونصف مليون من الفلاحين الآخرين يملك الواحد منهم من فدان الى خمسة ونحو ١٥٠٠٠٠ يملك الواحد منهم من خمسة الى عشرين فداناً ، ولكن هؤلاء الملاك الصغار جميعاً لا يستحوذون على أكثر من نصف الاراضى المنزرعة . وفى أربعين سنة ازداد المسطح الذى يملكه صغار الملاك ٨٠٠٠٥٠ فداناً

أى ٨٣ ٪ على حين أن عدد صغار الملاك قد زاد الى ٣٥٥ ٪ (١) لانه اذا كان هناك من ناحية ٢٢٨٤٥١٣ شخصاً يملكون أقل من مليونى فدان ، فانه من ناحية اخرى يوجد أكثر من مليونى فدان يملكها فقط ١٢٥٥٩ مالكا . وبين هؤلاء الاخيرين ثلاثة وعشرون مصرى وخمسة وعشرون أجنبيا يملكون وحدهم حوالى ٣٠٠٠٠٠ فدان . وأول هؤلاء الملاك الكبراء هو المغفور له الملك فؤاد الاول الذى كان يملك ثمانمائة فدان عند صعوده على العرش سنة (١٩١٧) ثم ترك عند موته سنة (١٩٣٦) بفضل إدارة ماهرة ٢٨٠٠٠ فدان ، وهذا بدون اعتبار دخل ال ٤٥٠٠٠ فدان وهى الاراضى الموقوفة الموكولة الى رعايته . ومجموعة ممتلكات الشركات المجهولة الاسماء تبلغ ١٥٠٠٠٠ فدان . وهذا هو السر فى أن مصر قد ظلت بلد كبار الملاك .

توجد الملكية الكبرى على الأخص فى مصر العليا وفى الجهات التى أصححت حديثاً من الدلتا ، وهى لا تبقى دائماً فى الأيدى ذاتها بل إن بعض الملكيات قد غيرت سادتها ست مرات فى عشرين سنة دون أن تتبدل إدارتها من أجل ذلك .

كما تفعل شركات : (السكر ، وكوم امبو ، والبحيرة . . .) والمصارف : (كالبنك العقارى ، ولند بنك وغيرها) ومصالح الأوقاف والأمالك الأميرية ، كذلك يستغل كبار الملاك أراضهم بوساطة دوائرهم ونظارهم .

الدائرة هى مكتب الإدارة والحساب ، ومقرها المدينة ، وهى تنجز الطلبات والمشتريات وتم القروض والبيوع وتدفع الضرائب . . .

(١) ان نتيجة هذا التفاوت هى ان المسطح الذى يملكه كل واحد منهم ينقص باطراد : ففى سنة ١٨٩٧ كان متوسط ملك كل واحد من ملاك ما دون الخمسة أفدنة فداناً ونصفاً (١٠٥٨ ف بالاضبط) واليوم ليس المسطح المملوك إلا ٨٢ : من الفدان لكل فرد وذلك ضئيل .

والناظر هو في الحقول ممثل المالك ونائبه المنفذ وهو الآلة العاملة في الاستغلال .
ولما كان مفرطاً في الخضوع للمالك بقدر ما هو معدوم الشفقة بإزاء الفلاحين ، فإن مهنته
تنحصر في الضغط بكل الوسائل على الآلة الزراعية - وهي الفلاحون - لكي يزيد
في دخلها . « إنه كالمُنشَار طالع يا كل ، نازل يا كل » (مثل فلاحى) هو الذى ينظم
الحَرْث والتسميد والبذر والضم بمقتضى وسائل تجريدية جامدة ، ومع ذلك فالمُلاك
يفضلون خدماته وتجاربه على معاونة المهندسين الزراعيين الذين لم يستحوزوا بعد في
الحياة القروية المصرية على الدور الذى أعدوا له .

أما أملاك الحكومة والملك والأمرأ كما في المستغلات الكبرى فإن الإدارة فيها
أكثر تعقداً إذ أفرعها المختلفة تؤلف من تفتيش تقام لها مقرات في العزب ، لأن
العزبة مرتبطة بالملكية الكبرى ، وهى مقر المساكن المعدة لعمال الضيعة والمنفصلة عن
القرية أو هى مباني الدسكرة التى يملكها رب الضيعة . ولم يرجع هذا النوع إلى قرن
مضى وإنما هو قد نظم في سنة ١٩١٣ وجدد في سنة ١٩٣٣ .

« لا يمكن أن تبنى اية عزبة فى ضيعة بدون إذن مجلس المديرية الذى يجب
أن يراعى مساحة أراضى مقدم الطلب ومسافاتها من القرية وعدد الزارعين المراد
إسكانهم » لأن القانون الذى لا يسمح « بأية حالة ولاى شخص كان بأن يبنى
مساكن فى الاراضى الزراعية الكائنة خارج (دائرة الناحية) » لا يزال قائماً .

يوجد اليوم أكثر من خمسة عشر ألف عزبة ، وأهمية كل واحدة منها وتعميرها

وهكذا يكون نمو الملكية القروية فى مصر قد عنى فقط الملكية الصغيرة التى زادت
فى العدد ولكنها نقصت فى متوسط المسطح على حين أن الملكيتين : الكبرى والوسطى
قد ظلتا بدون تغير تقريباً واستمرت مستحوزتين على مسطحات واسعة (ج . انبورى ،
المظاهر الكبرى للاقتصاد الزراعى فى مصر . المطبعة الأميرية . القاهرة سنة ١٩٤١

يرتبطان باتساع ضيعتها ، وعدة من هذه العزب قد صارت قرى حقيقية ، ولكن أكثرها من الناحية الادارية يتعلق بالقرى التي انفصلت منها .

وهنا كل أدوات الاستغلال والآلات القديمة والحديثة أى الساقية أو المضخة المازوتية والنورج والدراسة الميكانيكية والمستودعات وفى أغلب الأحوال المواشى ، كل ذلك يملكه رب العزبة . وإذا كان هذا المالك يشتغل بالزراعة المباشرة كان الفلاحون أجراء بالمياومة وإلا فهم شركاء أو مستأجرون ، وفى إحدى الحالات أو فى الأخرى هم ينتسبون بنوع ما الى الأرض وهم يظلون فيها رغم تبدل الملاك إلا لسبب قاهر كالطرد الجبرى .

فى الواقع عند ما يرهن المالك أرضه - وتقدر الأرضى الثقيلة على هذا النحو بليون من الأفدنة - ولا يدفع فوائد دينه يحدث أن يحجز المصرف الدائن على الملك . وفى سنة ١٩٣٥ نزع ملكية خمسين ألف فدان بسبب الديون ، وفى هذه الأحوال يحجز فى الوقت ذاته على حصص الفلاحين غالباً ، إذ منذ الذى سيميزها ؟ وأحياناً يكونون قد دفعوا بالفعل ما كان يجب عليهم للبك أو للباشا ، وهم ليسوا مسئولين عن ديونه ، ولكن ما أهمية هذا فى نظر الدائنين ؟ إنهم يحجزون على الثروة المرهونة ...

كان أحد المصارف الكبرى قد انتزع عزبة يملكها أحد أعيان بلدة شبرا ريس مركز كفر الزيات وكانت هذه العزبة تحتوى على عدة قطع من الارض مجزأة ، وكان عدد كبير من القرويين يقطنها منذ أكثر من عشرين سنة ، وحينما وصل مندوب المصرف ليقوم بإجراءات نزع الملكية عارض السكان ، وكان لابد للشرطة من التدخل وقد انتقل معاون المركز على رأس قوة مسلحة إلى موضع الحادث ، ولكن الاهلين هاجموه فلما رأى ان الحالة ستصير أكثر سوءاً ألغى نفسه مضطراً إلى إطلاق عدة طلقات نارية فى الهواء ، ليرهب الفلاحين ، غير أن نتيجة هذه المناورة كانت إثارته

فشرعوا في قطع الاسلاك التليفونية وإحراق سيارة المندوب ولم تلبث قوة أخرى أن وصلت للنجدة ، ولكنها كانت في عدم الكفاية شبيهة بالاولى فأتى المدير الى مكان الحادث على رأس قوة ثالثة ولم يستقر النظام إلا حين أطلق عدد آخر من الطلقات في الهواء وقد جرح سبعة من رجال الشرطة ، لان السكان قد رشقوهم بالحجارة ، وقبض على عدد من القرويين وكلف أحد وكلاء النيابة بإجراء تحقيق (١)

هذه هي قصة عادية وفي مثل هذه الحالة دائماً تقريباً يكون المالك غائباً .

إن المالك العقارى الكبير ، ولو كان من أرومة فلاحية - والارض في اكبر أجزائها ومن كثير الى أكثر مملوكة للمصريين - لا يعنى بعزبته إلا من حيث هي منتجة دخل . إن مثله كمثل رؤساء الأديرة السابقين لا يذهب اليها إلا قليلاً ولا يقيم فيها إلا نادراً . أما عماله فهو لا يعرفهم الا عن طريق المال الذى يضعه ناظره بين يديه ، وهو لا يدري عن أسرهم أى شئ . انه يجمل حياتهم كأناسى وحاجاتهم الاجتماعية . المالك الكبير متأغرب يعيش فى القاهرة والاسكندرية ويمضى الصيف فى أوروبا ، والكل يعرف كم هو ينفق ثروة مصر . إنه يبذر فى مساء واحد ما يقوت فلاحيه مدة سنه ، وهو يرى بأساءهم ورفهنيته أمرين طبيعيين .

ليس بينه وبين رجاله أية جامعة ولا أى ماض يجتذبه أو يستبقيه فى قرية كهذه .

لا يوجد أثراف (٢) عقاريون فى مصر الحاضرة ، ولكن توجد فقط أريستوقراطية المال ، والمال يفضل المدينة .

(١) ٢٣ ابريل سنة ١٩٣٦

(٢) لعل المؤلف فى هذا الحكم قد نظر الى المدن ، إذ أن فى القرى كثيراً من الاسر العريقة فى شرف المتمدن والتي يصعد تاريخ مجدها على سلم الماضى عدة مئات من السنين . « المترجم »

حدثنا شاهد عيان أن جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول في إحدى زيارته
للأقاليم قد وقف ليستمع الأغاني وليرى الرقصات التي ارتجلها له الفلاحون على الطريق ،
فدهش أحد الوزراء المتعلقين من هذا الالتباه وقال :

« - مولاي أتضيع دقيقتين هكذا أى كرم ! ... »

فأجاب الملك :

- لولا هؤلاء الفلاحون يا صاحب المعالي لما كان دخلك خمسة آلاف جنيه ، ولما
كنت وزيراً ولا باشا .

إن احتقار الفلاح ناشب في عقول « المتمدنين » إلى حد أن هذه الكلمة
وحدها قد صارت أشد الشتائم إهانة : « يا فلاح » أى يابدوى يا خشن ، وأراداً من
ذلك أيضاً .

لقد لاحظنا في أغلب الأحياء لدى أولئك الأثرياء بإزاء الفلاحين عدم
الاكتراث . إنهم « أشياء » لا يليق الاعتناء بها ، ومن الممتاز عدم معرفتها أصلاً .
ولقد وجدنا لديهم تجاه المسائل الأشد بساطة جهلاً يدل تماماً على أن المسألة بالنسبة
إليهم لم تطرح ألبتة ولا تقتضى أية رغبة في الاطلاع . وهناك آخرون وهم خير من
الأولين يتأسفون على جهود الفلاحين وغبوتهم ، ولكن بدون أن يعملوا لتحسينهم
شيئاً يمكن أن ينقص من دخلهم وكل ذلك يحتفظ بقاء الطرفين المتعارضين .

ومع ذلك فهناك طبقة قروية من ذوى الثراء ، وهى طبقة الملكية الوسطى ، وهى -
كطبقة الملكية الصغرى - مرتبطة بالقرية ، وهى ميالة الى الربح ، محافظة ، بسيطة ،
تعيش في الريف وتراقب عن قرب دخل أفدنتها ، وفي الأعياد والمآتم هى تجود على
الفقراء في سعة ، والتلاميذ الذين يختلّفون الى المدارس الابتدائية والثانوية في عواصم

المديريات وطلاب المعاهد الدينية التابعة للأزهر ، والموظفون والضباط ، كل أولئك وهؤلاء ينتسبون إلى هذه الطبقة ، ومنها خرج عظماء رجال مصر العصرية : كالشيخ عبده ، وزغلول باشا ، والنحاس باشا ، وطه حسين . . . غير أن عدد هذه الأسر المحافظة قد أخذ يقل شيئاً فشيئاً .

أولاً بسبب زيادة الثراء والمطامع . وعلى هذا سيتسلسل الجيل الآتى إلى الدرجة العليا ويستقر في القاهرة أو في الاسكندرية . ولقد أثارت مجبوحة سنتي ١٩١٩ - ١٩٢٠ على الأخص هذه الهجرة ، وكذلك تربية الاطفال على الطريقة الغربية وتذوق أوروبا الذى جلب التفرز من الحياة القروية .

وهكذا اتسعت القاهرة والاسكندرية وجعلتا بهيئة قمينة بالاعتبار منذ خمسة عشر عاماً . وكل سنة تسجل وارداً جديداً من أهل الاقاليم آتياً من عواصم المراكز ومن بلاد جميع المديريات وهم يحضرون معهم المال فتضاعف البنايات الكبرى و« الفلل » وتنهأ متاجر الرفنية . . .

ثانياً بسبب تجزىء التركات ، إذ ينال كل واحد من الأبناء نصيباً ، ومن البنات نصف نصيب بمقتضى قانون الإسلام المطبق على الجميع . وهكذا ليس من النادر أن يصبح حفيد مالك ذى اربعين فداناً ولم يعد لديه من نصيب إلا فدان واحد ، واذا ذاك يهوى إلى صف الفلاحين .

ليس بوساطة تجزىء التركات دائماً تتألف الملكيات الصغيرة ، ولكن بوساطة شراء قطع صغيرة بقدر الإمكان ، اذ الفلاح يشتهى الارض إلى حد أنه يشتريها في أغلب الاحوال بضمن باهظ ، ولعل ذلك أيضاً ناشئ من أنه يشتريها بجزأة أى بالقبضات ولما كانت مؤجراته لا تكفى فهو لى يملك يستدين .

ذلك لانه بسبب الطلب تباع الحصص للاكثر عرضاً للمال وللمزايدين في حالة البيع الجبرى ، وقد يحدث ما يلى : تعرض عشرة أفدنة للبيع بثمن قدره أربع مائة جنيه مثلاً فيتفق نحو اثنى عشر فلاحاً على شرائها بدون رفع ثمنها وتقسيمها فيما بينهم ، ولكن أحد أثرياء الملاك من جيرانهم يسمع بالقصة فيحضر ويجلس بحالة ظاهرة في المقهى قبل اعلان المزايدة بيضع ساعات ويؤكد لكل من يريد سماعه أنه سيشتري هذه الحصة بأى ثمن كان. وهنا يأتى الفلاحون الذين سيحرمون ويتوسلون اليه أن ينسحب ويعرضون عليه مبلغاً كتعويض فيدعهم يرجونه ويساومهم ثم يستولى منهم على كل ما يستطيع أن يناله ويفادر القرية مسروراً من ضربته التى سيعدها فى فرصة أخرى والفلاحون أيضاً باعطائهم اياه عشرة جنيهات يظنون أنهم أحسنوا صنعا ..

الحكومة

تضع الحكومة نفسها فوق رأس المال والعمل والطبقة القروية بوساطة الأرض ، وأكثر من ذلك بوساطة الماء . إنها سيدة الرى وهى لهذا فى نظر الفلاح تتولى أهمية النيل ومقدرته . وبقدر ما تنظم الحكومة النهر تتعلق بها الأرض ، وبالتالى زارعها . ولما كانت مصر بلداً زراعياً فإن جميع أفرع السلطة فيها تقريباً تنتهى أخيراً بإصدار أوامر إلى الفلاح .

بينما تكل الحكومة فى الصناعة وفى المدينة بكل امتنان مصالح عامة إلى جهات خاصة فإنها فى الزراعة على العكس حتى أن الوظائف التى يحققها فى البلاد الأخرى أفراد ، هى تقوم بها إلى حد أنها فى نظر الشعب القروى هى الممثلة للعناية السماوية التى تنظم كل شئ وترتب كل شئ . أما الفلاح فى نظر الحكومة فهو بظل دائماً القاصر الذى ينبغى أن تأمره بكل شئ والعاجز الذى ينبغى أن تنوب عنه . . .

وهكذا تدير وزارة الأشغال العمومية رى جميع الزراعة وتعد لكل منطقة نظام أدوارها وتراقب الجسور والقنوات وتستولى على الفلاحين الضروريين عند ما يكون النيل مشرفاً على الفيضان . . . ووزارة الزراعة تنظم الأراضى التى ستزرع قطعاً والمسطحات التى ستزرع أرزاً ، وهى وحدها التى تبيع بذرة القطن والتى تتحقق من حسن اختيار الحبوب ، وهى التى بالاستيلاء على الرجال تنظم المقاومة ضد دودة القطن والجراد ، ووزارة المالية تتسلم الضريبة عن طريق الصيارفة المنتشرين فى جميع البلاد وتنفذ الحجز وتشتري القطن لتوجد التوازن فى السوق الداخلة ، وبوساطة مؤسسة (بنك) التسليف الزراعى هى تجتهد فى أن تنظم اقتصاد الفلاح . ووزارتا المعارف والصحة العموميتان ترعمان القرويين على النهوض عقلياً وبدنياً . ووزارة العدل عن طريق محاكم المراكز وبعد تأجيلات لا تنتهى تدينهم أو تبرئهم . ووزارة الدفاع تتكفل بتجنيد الجنود أو تتسلم الفدية العسكرية (البدل) . ووزارة الداخلية تؤيد كل هذه الأوامر التى تتعقب الفلاح فى المصلحة العامة وهى تحقق الأمن بالنظام .

لا يرجع تاريخ الحكومة على صورتها الحالية إلى مائة عام فقد أقامها المغفور له محمد على على نفس النحو الذى تسير عليه اليوم تقريباً . انه لم يخلق هذه الماكينة التى تنتهى فوق الفلاح ، ولكنه أعاد تنظيمها وترتيبها بعد حكم اهواء الاتراك والماليك وتدميراتهم وهكذا وضع مؤسس الاسرة المالكة فوق الفلاح نظام طبقات للشرعية والعدالة يسمح له بان يعيش ان لم يسمح له بأن يظهر .

لننظر من هذه الوجهة السلسلة الحكومية ولنعتبر كل حاكم بالنسبة الى المحكوم الذى يعيننا .

الملك فوق القمة .

ان الملكين الأخيرين - لكى لا نتكلم الا عنهما - كانا يشتهيان بإخلاص خير

الفلاح ، ولكنهما كانا بعيدين الى حد مغال ، وكان كثير من الوسطاء يمنعونهما من رؤية الحقائق الواقعة .

ثم الوزراء الذين ينشغلون بالسياسة أكثر من انشغالهم بالحكومة والذين يسافرون إلى أوروبا أكثر مما يسافرون إلى الأقاليم . إنهم كما في البلاد الحديثة يتغيرون غالباً فتعطل تجديداتهم بوساطة أخلافهم ، ومع ذلك فلما كانت الحكومة جد متمركزة ، كانت توقعاتهم ضرورية في التفاصيل . وبهذا يتضح كثيراً من البطء . ولما كانوا لا يعرفون الأشياء إلا عن طريق التقارير الرسمية ، فإن تصميماتهم فيما يتعلق بالفلاحين يعوزها غالباً الالتئام والاهتداء إلى الوقت المناسب .

ثم المصالح المكلفة بتطبيق هذه التصميمات وهي كثيرة العدد ، فنقل وتنفيذ المراسيم والأوامر والأحكام والقرارات بحققها جيش من ٢٠٠.٠٠٠ موظف يتلعون للقيام بهذه المهمة أكثر من ثلث دخل الدولة (١٣٥٧٥٣٨٨ جنيهًا في سنة ١٩٣٦) وهو تقريباً ما يقدمه عمل الفلاح إلى الحكومة ، وليس هذا التقريب صناعياً فقد قال مكرم عبيد وزير المالية في عرضه الميزانية على مجلس النواب :

« إن هذا الوجود الطويل للنظام المكتبي كان العامل الأساسي في بأساء الفلاح الدائمة رغم تقدم البلاد وهنائها » . ثم اقترح « أن يوضع حد لهذه الحالة المهيئة التي جعلت من الشعب خادماً للآلة الحكومية التي هي مع ذلك صنعت لتخدم » (١) غير أن ثقل هذه الآلة الهائل يتلخص في نظر الفلاح في المقدرة العظمى لمديره ومأموره وعمدته ، وسنضع كل واحد من هؤلاء الإداريين في إطاره .

تنقسم مصر السياسية إلى ثلاثة وعشرين قسمًا : خمس مناطق مدنية تدعى

بالمحافظات وهي : القاهرة ، والاسكندرية وبور سعيد ، والسويس ، والقنال ، وأربع مناطق على الحدود ، وهي : مركز البحر الأحمر ، وسينا ، والصحراء الغربية التي تشمل واحات : سيوة والبحرية والفرافرة ، والصحراء الجنوبية ، وتشمل واحتي الداخلة والخارجة . وأخيراً وعلى الأخص أربعة عشر إقليماً زراعياً تدعى بالمديريات : البحيرة ، والغربية ، والدقهلية ، والشرقية ، والمنوفية ، والقليوبية ، وهي تفتح في الدلتا على هيئة مروحة ، وكل واحدة منها مأهولة بعدد من الأنفس يتراوح بين ٣٠٠٠٠ و ٩٠٠٠٠٠ . وهذه المديريات الست المعينة على هذا النحو منذ عهد العرب هي الأشد عمراناً والأفضل رياً . وفي مصر العليا تتبع المديريات الثماني الجنوبية على طول النيل مصطفة كخرزات المسبحة ، ومعينة بأسماء المدن التي هي عواصمها (البنادر) وهي : الجيزة ، وبنى سويف ، والفيوم ، وألنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وقنا ، وأسوان . وعلى رأس إدارة كل مديرية يوجد موظف كبير يحمل عنوان مدير هو تابع لوزارة الداخلية ، وينقل من مكانه غالباً ، ويقرب من القاهرة أو يصير وزيراً إذا كان مميزاً ، وهو بالعكس يطاح به نحو الجنوب إذا فقد الخطوة .

يقيم المدير في المدينة التي تختلف أهميتها كثرة وقلة وإن كانت ليست شديدة المرح والتي هي له كعاصمة يمثل فيها السلطة المركزية .

ولما كان أكثر التفاتاً نحو الأكاير منه نحو الأصاغر ، فهو لا يعرف الفلاحين بطريقة مباشرة ، على أنهم هم لو أرادوا الوصول إليه لما استطاعوا . إنهم يسمعون التحدث عنه ، ويؤدون الحق الواجب له ، ويلمحونه حين يحدث أن يزور قريتهم . هم يحكمون أنه من مولد سام ويجلونه كإله ، وهو في نظرهم يمثل الرئيس المطلق .

وفي خارج عاصمة المديرية يباشر المدير سلطته العليا بوساطة المأمورين ، وكل مديرية تنقسم إلى عدة مراكز من ثلاثة إلى سبعة ما عدا الغربية الأشد ازدحاماً فإن فيها اثني عشر مركزاً .

يتصرف المأمور في قوة من البوليس موزعة في الثلاث أو الأربع قرى الأساسية من مركزه ، وهو العامل التنفيذي وسلطاته واسعة جداً ، ولكن الفلاح يعتقد انها غير محدودة ، وبسبب ذلك هو يرهب كثيراً من هو قابض عليها .

إن ملك الفلاح هو المأمور ، ولم لا ؟ أفلا يروى حادث ذلك الفلاح الذي تمنى بحسن نية للخديوى عباس قائلاً : « الله يحفظك ويجعلك مأموراً عندنا » ؟
غير أن المأمور نفسه لا يعرف الفلاحين وشواغلهم وأسرهم إلا عن طريق العمدة ، وما يعرفه الفلاح - وهو المواطن الناخب - من السياسة والإدارة لا يعرفه إلا عن طريق العمدة الذى يتلخص فيه القانون .

يحكم العمدة في كل واحدة من الـ ٤٠٠٠ قرية المصرية ، وهو يعين من بين أعيان القرية التى يحكمها ويملك غالباً جزءاً منها . على أنه لا يستطيع تقديم ترشيحه إذا لم يكن مالك عشرة أفدنة على الأقل (قانون سنة ١٨٩٥) وتسبق تعيينه مباريات تتحول الى منازعات تتبعها أحتقاد تتماهى إلى القتل .

على أن العمدة في وظيفته يعرف جيداً كيف يدافع عن نفسه ، بل كيف ينتقم لنفسه ، لأنه هو الوحيد الذى يقدم المعلومات الى المأمور ، وهو السيد الفرد لعشرين أو خمسة وعشرين خفيراً (حراس القرى ليلاً) . في الواقع إن وظيفته الجوهرية تنحصر في تحقيق الأمن في القرية وفي الحقول التابعة لها أكثر منها في السهر على الجمال والصحة اللذين ليس ما لديه من الانشغال بهما أعظم مما لدى مرءوسيه .

إنه يمثل (ناحيته) لدى المأمور ويسأل عن الجنايات - المبلغ عنها - التى ترتكب ويساعد الصراف في تسلم الضرائب ويحقق الاستيلاء على الرجال للمهمات ، ولديه مكتب بريد وتليفون ، وهو يراقب حمل السلاح والحالة الصحية للأناس والحيوانات ويقيّد المواليد والوفيات .

لاتدفع الحكومة اليه أجراً ولكنه - فوق الأثر الفخم المكافئ المرتبط بوظائفه - يستمتع بامتيازات عديدة مثل المعافاة من ضريبة خمسة أفدنة ، ومن السخرة والخدمة العسكرية هو وأولاده . وعملياً إن لم يكن ذلك حقاً من الحقوق تعد هذه الوظيفة ميزة الأسرة .

إذا كانت القرية هامة ، فإن العمدة يعاونه مشائخ وهكذا يناقش ويحكم . ولقد وصف لنا أحد تلاميذنا ، وهو ابن عمدة في مصر العليا ، سير هذه الوظيفة فقال : « يوجد ٢٥ خفيراً تحت أمر والدي ، هم يقومون بحراسة الحقول (١) من الخامسة مساء الى الخامسة صباحاً ماعدا اثنين يحرسان بيت العمدة . وطريقة الحكم بين الناس هي أن العمدة يجلس في المتنزه مع بعض المشائخ ويتقدم الخصمان فيشرح كل منهما حالته ، وهو يحكم ويجهد في أن يصلح بينهما ، فإذا لم يرضيا حكمه يجسهما في حجرة إلى الغد ليرسلهما الى المركز مع خفيرين » . يستطيع العمدة أن يجبس أربعاً وعشرين ساعة وأن يفرض غرامة قدرها خمسة عشر قرشاً .

لا يوجد في القرية مركز للعمدية ، وإنما منزل العمدة هو محلها ، فهو يستقبل فيه طول النهار زبائنه حينما لا يرافق أحد الموظفين أو لا يراقب حقوله . وفي أغلب الأحيان هو يذهب الى المركز أو الى المدينة لأعماله أو ... للهواه .

إن هذا النظام الذي لا رقابة فيه إذا كان يقدم كثيراً من الفوائد المالية للحكومة فإنه مليء بالأضرار على الفلاح الذي يسلم بدون دفاع الى سيد قليل التعود على حياة المجالس البلدية بقدر ما هو قليل التعود على العدالة الوطنية فيما عدا استثناءات نحن أول

(١) لعل ابن العمدة الراوى قد التبس عليه خفراء الملكيات الخاصة الذين يحرسون الحقول بخفراء الحكومة النظاميين الذين هم معينون لحراسة المساكن ، وهم يقضون الليل ساهرين داخل القرية لا يتعدونها إلا لضرورة . « المترجم »

من يقدرها ، وكذلك هو ملء بالأضرار على الأمن العام . اذ كثير من الجنايات يمكن أن يخفى في سهولة أو يعزى زيفاً الى أبرياء . بوساطة هذه السلطة المطلقة وذلك فضلاً عن أن الأحقاد القروية تتولد في أغلب الأحيان وتخلد حول هذه الوظيفة .

في ناحية البارود التابعة لمركز أبي تيج كان تعيين عمدة جديد سيحدث وكان بين المرشحين ذوى التأثير اثنان على الأخص ممتازان ، وهما الشيخ أحمد أبو زيد ، والشيخ أحمد فرغلي ، وكان أحدهما قد فصل من وظيفته عن طريق الإدارة ، وكان الآخر عمدة منذ سنة ١٩٣١ ثم فصل في وزارة نسيم باشا ، وكان المرشحان مهيبين في البلد ، وكل واحد منهما له أنصار متأهبون لمساعدته ، وكانت اللجنة التي يجب أن تحصى عدد الأصوات ثم تتم عملية الانتخاب مؤلفة من المأمور ومن ممثلي القرى المجاورة ومأذون القرية ، ولكن المأذون كان قريباً لأحد المرشحين ، وبالتالي غدوا للثاني ، فاستبعده هذا الأخير ، وإذ ذلك أعلنت سلطة المركز أن مأذون ناحية أولاد إلياس سيخلف في اللجنة المأذون المستبعد ، غير أنه لما حل موعد الانتخاب - وكان شفهيًا - لوحظ أن المأذون المستبعد قد بقي في اللجنة فتظلم أنصار خصمه وأيده أنصاره ، واشتبك الحزبان بالأيدي ، وبأشرف من ذلك أيضاً ، إذ قد لجئوا الى استعمال كل ما يقع تحت أيديهم وتبادلوا ضربات وحشية . حينما تدخل البوليس كان ثلاثة رجال قد قتلوا وآخرون قد جرحوا جروحاً خطيرة فقبضت السلطات على المرشحين وأمر مدير أسبوط بتأجيل انتخاب ناحية البارود والقرى المجاورة لها الى أن يعود استقرار الهدوء (١١ يولية سنة ١٩٣٧)

يتخذ الفلاح بائزاً رؤسائه - ملاً كما كانوا أم موظفين - هيئة رهبة ممزوجة باحترام وخضوع وحذر ويقبل منهم أسوأ الممارسات قسوة ، وهؤلاء الذين يحتقرونه سواء أكانوا مصريين أم أحانب يعتقدون أن هذه الطرق ضرورية .

ولقد قال لنا أحد أثرياء الملاك من أصدقائنا - وهو رجل لطيف في غير ذلك -

« ان الفلاحين يجب سوقهم بالسوط » . ولقد كان أحد معاوفى البوليس يوسع أحد المتهمين ضرباً أثناء دخولنا مكتبه ، فاجاب على دهشنا بقوله : « تنبغي معاملة الفلاحين على هذا النحو لأنهم بهائم » . هُوَّةٌ بين المدينة والحقول ، فبين الفلاح الذى ظل بربرياً ، والمدنى الذى يختلف تأغربه كثرة وقلة يوجد حاجز سميك مانع ضارب فى القدم . وقد جاء فى رسالة خاصة كتبت فى القرن الثالث قبل المسيح ما يلى : « لا تنظر إلى كفلاح مصرى » . وفى ذلك الحين كما هو اليوم لم يكن ممثلو الطبقة الثرية يظهرون فى القرية إلا ليطالبوا بدخل ضياعهم أو يتقاضوا الحقوق الواجبة للحكومة (١)

نحن لن نحكم فى الوقت الحاضر على نفسية الفلاح ولكننا نستطيع أن نلاحظ كخاتمة لهذا الفصل أنه إذا كان متبوعاً ومتعقباً كدافع للضريبة ومكتسج ، فانه ظل مجهولاً كرجل ، ومهجوراً كمواطن .

إن الهرم الأكبر لمصر الاقتصادية والسياسية ينوء فوقه بكل ثقله ، والطبقة الحاكمة التى تتكىء فوق القمة يمكن أن تكون وجوها قد تغيرت ، ولكن الضغط على الأساس أى على عمل الفلاح لم يقل .

إن جهل هذا الرجل وعزله والتحامه بالأرض تمنعه من أن يقوم برد فعل ضد هذا السحق ، وهذا السحق يطبع كل حياته .

(١) ب . جوجيه ، مصر فى القرن الثالث . فى تاريخ مصر . المجلد الاول

الفصل الرابع

عمل الفلاح

كانت الفصول السابقة تحاول أن تقيس المحيطين : الطبيعي والاجتماعي للقرية المصرية ، فكان ذلك وضعاً للمشكلة واقترباً منها . ومن الآن فصاعداً نستطيع أن نواجهها مباشرة بدراسة الفلاح نفسه . وقبل كل شيء ، في عمله ، لأن من يتحدث عن الفلاح يتحدث عن العمل . إذ أن هذه الكلمة العربية التي صارت دولية والتي نجدها في قواميس جميع اللغات هي النعت بصيغة المبالغة من فعل فلح الذي معناه بالضبط : حرث في معناها الأصلي اللاتيني « Laborare » أى تعب واشتغل . . . لأن الناس عملياً ، كما لا بد أن يكون ذلك قد لوحظ ، يرون في الفلاح على الأخص - إن لم نقل إطلاقاً - اليد العاملة : الآلة الزراعية . وفي قضية الحياة الاقتصادية لرجال الاقتصاد العصريين هو يمثل العمل ، لأن من الممكن أن يكون عمل الفلاح قد تحدد في الإطار الذي عرضناه أكثر من جسمه ونفسه ومسكنه . وفي الواقع يبدو لنا أن هذا العمل ليس إلا النتيجة البسيطة للسهولة والتحديد اللذين تضعهما له الأرض والجماعة .

وعلى هذا النحو يقودنا ذلك العمل إلى معرفة الفلاح كإنسان ، لأنه هو الذي يجتذب على التبادل فعل الأرض ويؤنسه . ونحن نلاحظ هنا بطريقة جد واضحة مجموعة سير عمل القوتين ورد فعلهما .

١- أنواع العمل

الأرض السوداء تستمر في الإنتاج وفي الحاجة من يناير إلى ديسمبر ، والفلاحون الذين لا يرغبهم القرآن على الراحة الأسبوعية يظلون يعملون طول السنة ولا يتعطلون

إلا في الأعياد الكبرى أى نحو عشرة أيام في العام ، والشمس تسطع على الأقل إحدى عشرة ساعة ، وفي مايو ويونيو ويوليه خمس عشرة ساعة في اليوم . والفلاح يمضي في الحقول أكثر أجزاء وقته ، ولبعض المشاغل يمضي فيها الليل ومختلطاً بالعناصر في الصيف (ومتوسطه ٦ ، ٢٦ درجة) كما في الشتاء (ومتوسطه ٥ ، ١١ درجة) . هو يعمل عارى الرأس حافى القدمين ، ولشغله - وكله عمل عضلات ومجهود بدني - يستعمل يديه ، ولكي يطيلهما يستخدم بعض الأدوات البدائية التي هي مع اعتبار تربة مصر وكثرة الأيدي العاملة فيها كافية .

(١) كيف يعمل الأرض - بالفأس التي يستخدمها بمهارة ويستعملها استعمالات

شتى هو يقلب ويسحق مدر الأرض ويحفر الخطوط ويعزق . . . والفأس هي معول طويلة متينة ثقيلة يمكن أن يستخدم جزؤها الأمامي العريض كمجرفة . وأفقر العمال يملك على الأقل هذه المتمة الضرورية لذراعيه .

يمكن أن يقال إن جميع حقول مصر هي على هذا النحو معدة بالأيدي حتى حين يشتغل الفلاح بالمحراث ، لأن المحراث المصرى هو أداة أكثر منه آلة ، أداة زنتها أربعون كيلو تحمل وتعاد على ظهر حمار ، وهو النوع الذى لا عجل فيه ولا مجرفة والذى نجده في فلسطين وسوريا وكل افريقيا الشمالية أى محراث البلاد العربية .

هو يتكون من قطعة من الخشب في أسفلها سكين مسطحة ، طولها خمسة وعشرون سم ، ومجر ، طوله ثلاثة أمتار ونصف تقريباً ، وبه تربط حيوانات الجر بوساطة نير مستقيم معتمد على غواربها لا على جياها كما في أوروبا ، وهذه الحيوانات هي جاموستان ، أو جاموسة المالك الصغير وحماره ، أو جملان مستأجران لهذا الغرض ، أو جمل وحمار . والمحراث يعتمد على يد المحراث الوحيدة ، ليغرس السكين ويتعقب سير الحيوانات مقتاداً إياها بصوته ويده ، لأنه لا يكاد يستعمل العنان ولا يستخدم

السوط إلا قليلا . وهكذا يحرق في كل يوم من ثلث فدان الى نصف . وإذا كان من الملاك ، وماشيته مطعمة جيدا ، فإنه يصل إلى أن يحرق في نفس الوقت حوالى ثلاثة أرباع فدان ، وزمن الحرق يستمر لكل حقل مدة تتراوح بين عشرة أيام وخمسة وعشرين يوما في العام . وفيما عدا جهات الري بالحياض يستطيع أن يحرق في كل فصل من فصول السنة .

ولقد كتب المسيو ، أوديو ، والمسيو ، موسيرى ، فى خاتمة دراستهما « على الحرق فى مصر » (١) ما يلى : إن المحراث المصرى هو الأداة بالمعنى الكامل فى هذه الجهة التى يكفى فيها خدش الأرض بقصد دفن البذور ، والسماح لها بالنبت قبل جفاف الطبقة السطحية ، وهذا المحراث هو مطلوب عندما يكون من الضرورى - على أثر الري بماء محدود - منع تبخرات الماء السريعة من الأرض ولا يوجد بين المحارث الأجنبية التى جربت إلى الآن أى محراث ظهر أنه أفضل عمليا من المحراث القومى من جميع الوجاهات الميكانيكية والزراعية والاقتصادية فى الوقت نفسه .

ولما كان المحراث المصرى محدودا بطبيعة التربة وبمقدرة العامل المالية - إذ لا يكاد يساوى أكثر من مائة قرش - فإنه نتيجة لهذه الملائمة المزدوجة . وإذا كان فى منتهى البساطة فإنه لا يلغى مجهود الحراث ولا يبعده عن الخط المشقوق ، وهو يحتفظ بمتانة التماس بين الانسان والأرض .

ولكى يزيل الفلاح نواتج خطوط المحراث ويفتت المدر الذى تخلف عنه يستعمل الزحافة - وهى كتلة من الخشب أو جذع نخلة بسيط ، طوله من ثلاثة أمتار ونصف الى أربعة - فيقف فوقها ويجرها زوج من الماشية ، وهكذا تلعب هذه الأداة المفرقة فى البدائية دور الأدوات الأوروبية المستعملة لتسوية الأرض وتفتيت المدر ،

(١) نشرة المعهد المصرى . القاهرة ١٩١٦ ص ٨٣ - ١٢٧ .

وتستعمل أحيانا أيضاً لتغطية البذور الملقاة نثراً ، وتجري هذه العملية بعد الحرث ، ويمكن أن تعد في اليوم أربعة أفدنة . ولتوحيد مستوى الأرض التي لسقيها بواسطة الري ، يجب أن تكون مسطحة بقدر الإمكان ، يحضر الفلاح القصايبية ، وهي كصندوق زنته من خمسين إلى ستين كيلو (وثمنها خمسة وسبعون قرشاً) مقفلة من عرضها ، مفتوحة من طولها ، ولها يدان يقبض عليهما الفلاح ويرفعهما ليزيل نواتي الأرض ويزيد رفعهما ، ليضع في الحفر الأتربة المجموعة فيها (١) .

لقد ذكرنا وسندكر غالباً الجاموسة والحمار ، ذينك المساعدين المتينين للفلاح والمتئين مع حاجاته ومع مصر ، فينبغي أن نقدمهما هنا :

إن الجاموسة « بقرة الفقير » لونها كرواسب النيل ، وإذ كان جنسها أكثر قوة وصلابة من البقر ، فهي تقاوم الأمراض وهي تأكل أكثر من جميع حيوانات العمل . وبسبب خدماتها المتضاعفة يعني بها الفلاح أكثر من نفسه ، وإن كان ذلك ليس عظيم الشأن .

حينما تطعم الجاموسة على مقتضى الحكمة أى في الشتاء والربيع يرسيم ثمانية عشر قيراطاً ، وفي الصيف بعشر أقات الى اثنتى عشرة أقة من الكلاً (التبن المكون من قش القمح والفول وورق القطن . . .) وبدون انتقال مفاجىء من النظام الغذائى الرطب المحمل بـ ٨٧ ٪ من الماء إلى النظام الجاف الذى يستمر خمسة أشهر ، فإنها تعطي من اللبن أكثر من أية بقرة في مصر أى : ٤٠٨٠ رطلاً في السنة في مقابل ٢٣٤٠ رطلاً في السنة . ويلاحظ أن اللبن يباع بالوزن ، ونوع هذا اللبن هو أحسن

(١) في دائرة المعارف (الفرنسية ٧ ، ٣٤ - ٩) م شارل باران يتحدث عن اسطوانة مزودة بأسنان من الحديد يدعوها بالقنفذ . ونحن لم نرها مستعملة ولا مذكورة لدى المؤلفين الذين يعالجون الزراعة في مصر

من لبن البقر ، إذ هو يحتوي على ٧٪ من المادة الدهنية في مقابل ٥ ، ٣٪ وأخيراً لحم الجاموس أجود من لحم البقر .

كل هذه الفوائد تصير من الهام تربية الحيوانات ، وصناعة الألبان في مصر ، ولكن الفلاح لا يقوم بهذه التربية ، فليس له مصلحة في تسمين جاموسه ، فهي مع ما تعطيه له تكفي لشغل الأرض والماء ، وهذا هو ما ينتظره منها قبل كل شيء . ويتراوح ثمن الجاموسة بين اثني عشر وخمسة وعشرين جنيهاً .

أما حمار مصر فلكونه أكثر متانة من الجواد كما أن الجاموسة أكثر متانة من البقرة ، هو أيضاً حيوان اقتصادي لا يتطلب شيئاً غير عادي ، ففي الدلتا الحمار « البلدي » (وارتفاعه متر ، وهو على العموم اسود) له الغلبة ، ويمكن أن يحمل مائتي رطل ، وثمنه من جنيهين إلى ثلاثة جنيهاً ، والحمار الأبيض أو الرمادي الموجود في مصر العليا والمسمي بـ « السورى » والذي يركبه السياح حول الاهرام هو أكثر رشاقة وارتفاعاً (١ م و ٢٠ س م) ويمكن أن يساوى اثني عشر جنيهاً .

والجمل والبغل لكونهما لا يصلحان لعمل كل شيء ، هما قليلا الاستعمال عند الفلاح .

عمل الماء - بعد إعداد الأرض يجب على الفلاح أن يرويه وأن يغذيها ولا ينتظر ماء السماء عاطلاً قلقاً كما يفعل قرويو شرق الأردن ، فالماء هنا على مقربة منه في النهر ، أو في القناة ، ولكن ينبغي إحضاره وتسييره ، وما دام أن الفلاح لم يرو خطوطه فهو لا يهدأ .

هناك كأوردة جسم كبير وشرايينه توجد ١٩٠٠٠ كيلو متر من القنوات توزع النيل بطريقة صائبة على المزارع و ٧٧٠٠ كيلو من القنوات الأخرى تقود مياه (التصافي) بعد الفيضان وتصرفها في النيل وفي البحيرات .

وفي وقت الجفاف (١) في يناير يتعاون فريقان من العمال أحدهما على شاطئ القناة والآخر في مجراها فينتزع عمال الفريق الأدنى بأيديهم قطع الطين والأعشاب ثم يقدفون بها إلى عمال الفريق الأعلى فيتلقونها بأيديهم أيضاً ويلقون بها بعيداً.

ولكن لكي يؤتى هذا النظام ثماره ينبغي أن يستطيع الماء الوصول إلى الحقول. ولتحقيق هذا يجب على الفلاح أن ينشئ نظاماً من المجارى التي تقود الماء إلى النبات، وهو يعمل بدون فتور في تنظيف هذه المجارى والاحتفاظ بها.

وعندما يأتي دور ري حقل الفلاح - وهو خمسة أيام في كل خمسة عشر يوماً في وقت زيادة النيل، وستة أيام في كل ثمانية عشر يوماً في وقت نقصانه - يسهر ليلاً كاملة، لكي لا يفقد شيئاً من نصيبه.

وحيثما يكون الماء عالياً يراقب سيره في المجارى ويفرغ جهده في إزالة العقبات من طريقه، ولكن الماء يكون منخفضاً في مدة تتراوح بين خمسين ومائتي يوم في العام حسب الجهات، وفي تلك الأحيان هو يشتغل بقوة ذراعيه ليرفعه. ولما لم يكن هناك أيضاً آلات، فهو يستعمل أدوات جد بسيطة، وهي صنو التاربخ في القدم.

الماء مثلاً منخفض خمسين أو ستين سم، وينبغي رفعه إلى الحقل الظامى، فكيف ذلك؟ هناك طريقتان: أولاهما صارت نادرة وهما:

(١) الجفاف هو عهد ببوسة صناعية تكون في العموم في شهر يناير وهي أربعون يوماً تقريباً لا تترك الحكومة أثناءه ماء في القنوات لكي يستطيع تنظيفها بعناية عمال متخصصين على نفقاتها. وفي نفس الوقت يستفاد من أن الزراعة في هذه المدة من السنة تكون غير محتاجة إلى كثير من الماء، لماء خزانات (أسوان وجبل الأولياء) وعلى العكس وقت التحريق هو المدة التي ترى فيها مياه النيل بطبيعتها منخفضة المستوى بهيئة محسوسة ويلحق جريانها الحد الأدنى.

(١) يقف رجلان متواجهان في مكان منبسط منحوت من الشاطئ على مستوى الماء ، وكل واحد منهما يمسك بوساطة حبلين من القنب أو من ليف النخل إناء ذا فتحة واسعة بالقدر الكافي (قطره ٤٠ سم وعمقه ٢٥ سم تقريباً ، وهو سلة خفيفة تختلف صفاقتها كثرة وقلة) وينبغي لهذه العملية حركتان .

الحركة الأولى هي أن يتجه العامل نحو القناة منحنيًا قليلاً ويقذف بالسلة في الماء فيملاها ، والحركة الثانية هي أن ينتصب ويتحول قليلاً نحو الحقل ويرفع الإناء بمجهود ساعديه متعاونتين ويصبه في مجرى مدخل الحقل .

هذا العمل الذي يجري في جماعة ونظام ميكانيكيين يحرك الجذع والذراعين تحريكاً جوهرياً . إنه عمل شاق ، وأمتن الرجال لا يستطيعون أن يحتملوه أكثر من ثلاث ساعات متتالية ، وإذا ذاك يتبادلونه مع فريق آخر .

وبمقتضى الإحصاء الذي أجرى يكون مقدار ما يُصعد على هذا النحو في يوم قدره اثنتا عشرة ساعة ستين متراً مكعباً تقريباً ويروى أقل من ٥٠٠٠ متر مربع قليلاً .

وهذه النتيجة كما يشاهد لا تكاد تكون متناسبة مع المجهود المبذول فيها ، ولكن لا توجد أية (ما كينة) أقل منها نفقة ، وهي ستبقى ما بقي الفقر ، وتدعى بالنطالة ، وكان فلاحو مصر القديمة يستعملونها^(١) من قبل ، وقرويو اليابان في «سيكوكو» مثلاً يستخدمونها .

(٢) ينحني رجل أو رجلان على الشاطئ ، ويديران يد اسطوانة تبتدى على ارتفاع مجرى المدخل فيصعد الماء سالكا سبيله في اللولب الخشبي (وقطره ٤٠ سم تقريباً) ويدعى بـ (الطنبور) أو لولب أرشيميد ، وهو أنبوبة من الخشب تحيط بها دائرة

(١) هارتمان ، الزراعة في مصر القديمة ، صفحة ١١٩ .

من الحديد ، وطولها من متر وسبعين س م الى مترين ، أو من مترين وسبعين س م الى ثلاثة حسب ما تكون إدارتها بواسطة رجل أو رجلين ، وهذا اللولب مثبت بين الحاجز الداخلى والمحور الحديدى الذى ينتهى أحد طرفيه باليد بينما يستند الآخر على دعامة خشبية مثبتة فى الماء . ويروى (الطنبور) أكثر من النطالة مرتين أو ثلاثاً ولكنه أكثر نفقة وثقيل فى إدارته ، وفوق ذلك فإنه لما كان يشغل الساعد باستمرار ، فهو يتعب وينهك بسرعة ، ولكن استعماله لا يزال مطرداً كما لاحظنا ذلك

هاتان « الآلتان الرافعتان » تلامان حينما لا يكون الماء شديد الانخفاض ، ولكن فى الغالب ينبغى البحث عنه على عمق متر أو مترين إلى عشرة أمتار بالنسبة الى الحقل الذى يراد ريه .

وفى هذه الحالة لا يكون شىء أصح من تثبيت آلة ميكانيكية ، ويوجد ذلك فى الضياع الكبرى ، ولكنه لا يوجد فى المستغلات الصغيرة . ولما كان الفلاحون كثيرين وتقليديين ، ولما كانوا فقراء فى المال وأغنياء فى الزمن ، فإن هذه الصلاحية لا تفرض نفسها عليهم البتة . إنهم قد حلوا مشكلة الري منذ زمن بعيد بطريقة متناسبة مع مقدرتهم ، وهم لا يشعرون بأية ضرورة لقطع هذا التوازن الكافى من أجل توازن أعلى ، ولكنه مستقبل وغير محقق .

وهكذا الكى يرفع الفلاح الماء الذى هو أخفض من متر يستعمل طريقة بدائية بقدر ما هى بسيطة . هو يغرس فى الأرض على شاطئ النهر وتدين خشبيين ، ارتفاعهما متر وعشرون س م وتفصل بينهما مسافة مقدارها متر . وعندما يعوزه الخشب يبنى عمودين من حطب الذرة أو قصب السكر مغموساً فى الطين ، وقتاهما متصلتان بواسطة غصن أفقى على نحو ما يثبت للعبة « الفوت بول » . وفى وسط هذا الغصن المحترق تتحرك عتلة تختلف استقامتها كثرة وقلة ، وطولها ثلاثة أمتار تقريباً . وفى نهاية ذراعها

الصغرى حجر كبير ، أو قطعة من طين صلب ، وتنتهى ذراعها الكبرى بعود رأسى ،
طوله متران ونصف تقريباً ، وفى نهايته يعلق الإِناء وهو سلة من جلد ، أو (جردل)
أو (صفيحة) ، وهذه الأداة كلها يشبها الفلاح على محور المجرى المراد ملؤه .

فإذا انتهى التثبيت يقف العامل فوق المكان المنبسط المعد على منتصف ارتفاع
حافة الماء ثم يخفض العتلة بجذبه العود إلى أن ينغمس الإِناء فى الماء ويمتلئ ، ثم يدفعه
إلى أعلى دفعة خفيفة تُبرِزُ تيجنتها عودَ الثقل المضاد فترفع إذ ذاك الإِناء إلى
المجرى حيث يصبه العامل .

كل هذه الحركات تجرى فى بطاء مطبوعة بنغمة أغنية وحيدة ، ويبدو أن تنوعها
يقلل من المجهود ، ومع ذلك فهذا العمل يحمل الفلاح على الأثين أكثر من الأعمال
الأخرى . وقد يكون حزن أنشودته هو الذى ترك الناس يتكهنون بهذا ، ولكن الذين
كان لديهم الصبر على جمع كلمات هذه الأناشيد يؤكدون لنا ذلك ^(١)

وعند نهاية نهار ذى اثنى عشرة ساعة يكون الفلاحان اللذان يتناوبان كل ثلاث
ساعات قد اغترفوا خمسمائة متر مكعب من الماء . وآلة « ميكانيكية » من هذا النوع
تحقق رى فدان ، ومصدر الماء يمكن أن يكون بئراً كما يمكن أن يكون قناة ، وهذه
الطريقة هى التى يستعملها قرويو الشرق والشرق الأقصى وعلى الأخص العرب إذا
كانوا فقراء ، ولكن النهج هو مصرى محض ، ونحن نجد مصورا فى أقدم النقوش
ولا يستخدم فى أى مكان آخر بهذا المقدار .

ذلك هو الشادوف ، ويمكن الاشتراك فيه ، فى جهة قنا أو دندره فى مصر العليا

(١) ج . ليجران ، الأقصر تحت حكم الفراعنة ، الخرافات والأغاني الشعبية فى
مصر العليا ٢٢٤ صفحة و ١٠٠ صورة . فرومان ، بروكسيل سنة ١٩١٤ ص ١٧١ .

لا نزال نرى مجموعات مؤلفة من اثنتين أو ثلاث أو أربع من هذه الأدوات مزدوجة أو مدرجة لرفع الماء ، ولكن لا يصعده إلى مثل هذا الارتفاع - وقد يصل إلى اثني عشر مترا - تستعمل الساقية بكثرة .

والساقية هي آلة ميكانيكية حقيقية وإن كانت بدائية وسيئة التكوين ، ولما كانت مصنوعة من خشب السنط أو الجيز ، فهي لا تدار بواسطة الانسان ، وإنما بالقوة الحيوانية . وعجلتها الأفقية المتحركة من اليمين إلى اليسار بواسطة الثور أو الحمار الذي يدور في ميدان تحرك بواسطة اشتبا كها الفظ عجلة رأسية تحمل سلسلة من القواديس وهذه القواديس المنقلبة والممثلة تحت تصب ماءها فوق المجرى باطراد عند وصولها إلى مستوى الأرض (١) .

الساقية بسبب ثمتها (من عشرة جنيهات إلى عشرين جنيهاً حسب الارتفاع) تملكها غالباً عدة أسر ، وكل واحدة منها تأتي في دورها لتستقي بحيواناتها دون أن ينقطع العمل أبداً . وهكذا يروى فدان في كل أربع وعشرين ساعة ، وتكفي ساقية لرى خمسة أفدنة وينحصر عمل الفلاح هنا في إثارة الحيوان ومراقبة حركات العجلة والماء وتجنب إسرافه عند الوصول أو في الطريق ، لأن الساقية يمكن أن تدور لحقل على بعد خمسمائة متر ، وفي العادة يخصص لتلك الرقابة شيخ أو طفل ، وفي أثناء الصرير الدائم لهذه الماكينة التي لا تشحم هو يتغنى بسرور قلة المجهود .

تعد السواقي وأنواعها كالتابوت وما شاكله بالآلاف ، ونحن نجدتها تحت اسم « نوريا » مستعملة لدى زراع سوريا وأفريقيا الشمالية وإسبانيا وإيطاليا وإغريقيا . يشغل عمل الماء الفلاح كثيراً كما نلاحظ ذلك . إنه عمل صبر لا يكتفى فيه بالقدر الضروري ، بل هو يلام على أنه يستقى الأرض أكثر من اللازم .

(١) يرجع تاريخ استعمال الساقية ولولب أرشيميد إلى عصر البطالسة .

إنه لا يفهم أن الرى المتكرر الغزير يرفع الطبقة المائية التى هى تحت سطح الأرض وأن هذه الطبقة عند ما لا يكون بينها وبين ذلك السطح إلا متر وخمسة وعشرون سم تخنق الجذور وتصير النبات أصفر . هو لا يؤمن إلا بشر الجفاف ولذلك هو فى دوره يسمى الحقول بقدر ما يستطيع وبدون أن يفقد دقيقة ، لأن قلة الماء عنده هى الغلة الضائعة أو الناقصة . نحن لا نرتاب فى العذاب والإهانات الكثيرة التى يحتملها الفلاحون فى سبيل الحصول على الماء الضرورى لحقولهم الصغيرة ، فراقبو الرى فى الأقاليم والحراس المعينون عند فتحات السدود يسخرون غالباً من الأوامر والقواعد التى هى عادلة والحظوات المشتركة والأعساف والانتقامات الشخصية ليست فى هذا المجال استثنائية ولا معاقباً عليها .

السمدة - إن الرى لا يكفى فينبغى تقوية التربة المطعمة ، والفلاح يعرف جيداً أن سلطان أرضه المخصب فى حاجة إلى تجديد قواه ، فهو يتفنن مع زوجته وأولاده فى أن يعثر بدون إفاق على أكثر ما يمكن من سماد طبيعى أو صناعى

إن زبل الحمام - وليست الد من الانسانية ألبتة - وحما التطهير المستخرج من القنوات ، وعلى الاخص التراب المشرب بفضلات الحيوانات المأخوذة من الحظائر (السبخ البلدى) وهو السماد الأساسى ، وكذلك خرائب القرى و تراب القرون . كل هذا يقدم الأزوت الى حقل الفلاح . فى الواقع أن خرائب المدن الميتة (الكوم) قد صارت مقطع سماد يستمد منها الفلاحون ، وهو السبخ الكفرى ، ويوجد فى كل مكان منه الجيد والردى ، والآن يوجد الردى على الاخص .

وكذلك يوجد فى مصر العليا إلى جانب الصخور رمل (ماروج) وصلصال (طفل) يحتويان على سماد فقير ، وهو يحمل إلى الحقل بمشقة ، ولكن كل هذه الأسمدة غير كافية فى الكمية والكيفية ، فالأرض المتعبة فى حاجة إلى تنشيط صناعى

وعلى الرغم من جهود عقل الفلاح وبسبب صلاته بالتربة قد فهم حاجتها . ومنذ
مبدأ هذا القرن - لان السبخ الكفرى الجيد قد نفذ تقريباً - قد شرع فى استعمال
الاسمدة الكيماوية . وقبل الحرب كانت مصر تستورد اكثر من نصف مليون طن من
نترات شيلي الطبيعية وهى أقدم الاسمدة المعروفة ، ومن نترات المانيا وانجلترا الصناعية
وهذه النترات تستعمل لجميع الزراعة ما عدا البقول كالبرسيم والحلبة والفول التى هى
فى حاجة الى سوبير فوسفات .

يحقق توزيع الأسمدة بهيئة جد مرضية بنك التسليف الزراعى الذى يبيع بالكيس
وبالأجل ، والجمعية الزراعية الملكية ، والشركات الكبرى المستوردة ، وهكذا
يوجد ألفا مستودع موزعة فى جميع البلاد . والزبان هم بديا كبار الملاك ومديرو
أمالك الحكومة الذين يقدمون إلى مستأجريهم وشركائهم السمية الضرورية لمستغلاتهم
فى مقابل جزء من الغلة . ولقد كان الكيس قبل الحرب يباع بثمان يتراوح بين خمسة
ونستين قرشاً وسبعين قرشاً تسليم القرية .

يتطلب القمح أغلى الأسمدة ولكن أكثرها اقتصاداً يكفى للبرسيم .

الآن يتعلق الأمر بوضع «خميرة الأرض» : يحضر ابن الفلاح على الحمار وبطريق
طويل فى أغلب الأحيان عشرين مرة فى اليوم - وليس هناك (عربة) نقل ولا
(عربة) يد - فى قفة أو فى كيس الأسمدة الى الحقل ويعود به للتحميل بينما يضع
الزارع بسخاء السماد الطبيعى أو الكيماوى ويسويه بيده حول النبات الذى يجب أن ينمو .

(٤) كيف يجنى ثمار الأرض - كل تلك العنايةات الممنوحة للأرض هى

لثمار التى يجب أن تؤتيها . وإذا ، فعمل الفلاح يستمر من البذر الى الحصاد . وفى
الواقع لم يعد موجوداً ذلك الوقت الذى لم يكن عليه فيه إلا أن يبذر وينصرف ،
وبعد بضعة شهور يجنى . والجهد فى سبيل الحياة قد صار جهاد جميع اللحظات .

والفلاح بسبب دخول القطن - وهو نبات عسير - واستقرار الري الدائم أو الزراعة في جميع الفصول لم يعد متعطلا .

ابتداء من القطن تتابع الغلات على النحو الآتي منظمة في سنتين أو ثلاث .

قطن	فبراير - أكتوبر
قمح أو برسيم أو شعير	نوفمبر - مايو
باطر بعضه	مايو - يونيو
ذرة أو أرز	يونيو - نوفمبر
برسيم	ديسمبر - فبراير
قطن	فبراير - أكتوبر
حبوب الشتاء أو برسيم	نوفمبر - مايو
باطر أو ذرة	مايو - نوفمبر
برسيم أو حبوب الشتاء	نوفمبر - مارس
باطر بعضه	مارس - يونيو
ذرة أو أرز	يونيو - أكتوبر
برسيم	نوفمبر - مارس

هذا الحساب الزراعي الذي نحن نترجمه إلى حساب غربي - لأن الفلاحين لديهم حساب عريق في المصرية - يلاحظه كل حقل مع شيء من التباين يختلف كثرة وقلة حسب حاجة وتجربة من يطبقه .

لا يزال الزراع إلى اليوم يتمسكون بالحساب القبطي ، لأن هذا الحساب الذي يصعد إلى قدماء المصريين هو نبلي ، فهو يبتدىء في الواقع بشهر (توت) سبتمبر

الذى يلحق فيه النهر نموه الأ على ثم يستمر اثني عشر شهراً حسب نظام السنة الشمسية وهناك أمثلة شعبية معبر عنها بعبارات عربية ، ولكن أصلها يصعد إلى مصر القديمة ، تبين الاستعمال الزراعى لكل شهر . يتحدث في هذه الأمثال غالباً عن القمح الذى كان إذ ذاك الزراعة الأساسية ، ولكن لا يتحدث عن القطن الدخيل حديثاً (١)

ينظم هذا الحساب أيضاً الحياة الدينية للأقباط ، إذ لم تغير المسيحية في مصر ما كان يوجد قبلها ، ولكن نقطة البدء فيه هي سنة ٢٨٤ وهى أولى سن حكم الامبراطور « ديوكليسيان » التى لا تزال تدعى بمصر التعذيب . وفي الواقع أن الاضطهادات الشهيرة قد حدثت في سنة ٣٠٤

والمسلمون يبدءون من الهجرة ويحسبون بالسنة القمرية .

ومنذ سنة ١٨٧٥ أضافت اليهما مصر الرسمية الحساب الغربى الذى يتغلغل في الشعب ببطء ، ولم يحتفظ هذا الشعب بالأسماء القومية للشهور ولم يترجم كذلك أسماءها الرومانية ، وإنما لاومها مع نطقه . وقد اعتمدت الحكومة هذا الاستعمال فقيل : يناير فبراير مارس ابريل مايو يونيو يولية اغسطس الخ ولا تراعى وزارة الزراعة إلا هذا الحساب الذى إن لم يكن مستعملاً من جميع الفلاحين ، فهو مفهوم على الأقل من أكثرتهم العظمى .

من الملائم أن نصف هنا الزراعات الجهورية لمصر العصرية التى تشغل أغلبية الفلاحين ، وهو القطن الذى يؤلف ثروة البلاد الاقتصادية ، والذرة والقمح اللذان

(١) م . تيسو . دراسات على الحساب القبطى ونتائجه الزمنية ، موريس ، الاسكندرية ١٨٦٧ . ي . أرتين باشا ، الأمثلة التى ترافق أسماء الشهور القبطية في اللغة الشعبية العربية في مصر ، في نشرة معهد مصر ١٨٩١ ص ٢٥٠ - ٢٦٧ .

بحققان القوت اليومي ، والبرسيم الذي هو كلاً الماشية ، ولن نقول عن الزراعات الأخرى إلا كلمة للتسميم .

(١) زراعة القطن

لم يكن القطن مجهولاً لدى قدماء المصريين ، ويبدو أن بعض أقمشة العصر الفرعوني منسوجة من الخيوط القطنية ، و« بلين » يشير إلى استعماله في مصر ، ولكن هذا النبات الصناعي لم يتخذ في مصر أهمية كبرى إلا منذ أواسط القرن التاسع عشر أي منذ تجارب « جوميل » .

إن الرى الدائم الذى تحقق حوالى ذلك الوقت نفسه ، ونمو الشعب المتواصل ، والبيوع المفيدة في الأسواق الانجليزية لم تلبث أن صنعت من القطن الغرس الأساسى في البلاد . ولقد استطاع الناس ان يتحدثوا عنه كزراعة وحيدة ، ولكن أزمة ٩٣٠ العالمية التى جلبت سوء بيع القطن اضطرت الحكومة المصرية إلى إنقاص الأراضى المنزرعة قطناً الى الربع .

غير أنه رغم هذا الاقتصاد المدبر قد بقى القطن الزراعة الأساسية في مصر العصرية ، وهو يزرع في جميع المديرىات من البحيرة الى اسوان .

بدياً ، لكي تتجنب وزارة الزراعة اختلاط القطن المصرى وفقد سمعته ، وهو المبحوث عنه لطول تيلته ، فانها تحتفظ لنفسها بمراقبة البذور في وقت الحليج . والفلاح يشتريها مقدماً من وكلاء الجمعية الملكية الزراعية أو من متاجر الحبوب .

هو يحمل بذوره (التقاوى) إلى الأرض المعدة بحرثتين أو ثلاث متقاطعة والمقسمة الى خطوط ، وهناك في كل عشرين س م على الحافة الجنوبية للخط يدفن قبضة من البذور من ست وحدات الى عشر حسب الاختلاف في حفرة يملأها بالمغرس الذى هو يستخدمه أيضاً كمسطرة .

وبعد ذلك بنحو خمسة عشر يوماً يزور المزرعة ، وبالتقرب من الحفر التي لم تنبت يعيد غرس بذور أخرى يرويها باليد . وبعد ستة أسابيع حيث يكون الغراس قد نبت ، بل نبت أكثر من اللازم ، يشرع الفلاح في « تطليق الباقيات » كما يعبر الزراعيون أي أنه لا يدع في كل حفرة إلا نبتتين مقتلعتاً جميع الأخريات

وفي أثناء المدة يروى النبات في كل خمسة عشر يوماً إلى خمسة وعشرين إبان مايو ويونيو ، وفي كل اثني عشر يوماً إلى خمسة عشر في يولية . وإذا كان يسهر الفلاح على سبر الماء في جميع الخطوط ، وبعد مروره ينتزع الأعشاب الخبيثة ثم يقطع من كل نبتة البراعم الطرفية ، لتسهيل نمو القطن بوقف نمو الخشب .

تلك هي عناية البساتين في عدة آلاف من الكيلومترات

تتطلب زراعة القطن كزراعة البساتين يداً عاملة وافرة مستعدة . وإذا ، فهي تفرض أو تقضي زحام السكان على الأقل ما دامت الآلة الميكانيكية لم تحمل محل العدد كما في الولايات المتحدة ، وهذا العدد سهل المثال بقدر سهولة العمل في القطن والنساء والأطفال يعملون هنا كالرجال سواء بسواء ويضاعفون دخل الأسرة ، وليس هذا الاستعمال للجميع أجنياً عن نجاح القطن في مصر .

وبعد إزهار سريع يبدأ في يولية : يتفتح اللوز وينمو الثمر وينبغي جنيه . وفيما بين أواخر أغسطس وأوائل أكتوبر تهب القرية مرتين متتاليتين منقسمة إلى فرق تحت إدارة (الريس) المتعقبة وتنشط للجنى .

ومع الرد على أدوار المغنية المعينة (وتلك إشارة من إشارات العمل) ينبغي تجريد كل شجيرة بسرعة من باقاتها البيضاء بدون نسيان أية واحدة منها ، ولكن أيضاً بدون أخذ ورق . وحينما يمتلئ الجيب المصنوع من (الجلدية) مرفوعة إلى الحزام يذهب العامل ليفرغه في العراء المعد في وسط الحقل ويعود إلى صفه .

ومن هذا العراء تحمل سلسلة غير منقطعة من الفلاحين القطن إلى مستودع (شونة) المالك أو مستودع المصرف ، ومن هناك بعد قليل من الوقت يذهب به على ظهر حمار أو جمل إلى المخلج . فالمكبس^(١) حيث آلاف من الفلاحين - ولا سيما الاطفال^(٢) - من سبتمبر إلى ابريل ينظفونه ويزيلون بذوره ويفرزونه ويحملون الآلات الميكانيكية ويفرغونها في وسط غبار غير صالح للتنفس .

بعد الجنية الثالثة لا يبقى في الحقول إلا أدغال تنزع بالأيدي أو تقطع على مستوى الأرض وتجمع في حزم وتوضع فوق سقف المنازل لتستعمل وقوداً .

ب - قوت الفقراء

تشغل الدرة بعد القطن أكبر مساحة منزرعة فهي تبلغ تقريباً مليوناً ونصفاً من الأقدنة . ورغم أنها عمت قبل القطن فليست زراعتها ولا أهميتها ضاربتين في القدم . وفي عهد الممالك كانت تفرس كأنها في وطنها . ولقد كتب عنها « سيفيستردي ساسي » في سنة ١٨١٠ ما يلي : « ان زراعة الدرة هي إحدى الزراعات الأكثر

(١) هناك نحو مائة من هذه المصانع التي تحضر للتصدير تعمل في مصر ويشغل فيها الفلاحون في حالات أسيفة : « قد زار حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول إبان رحلته الحديثة الى الغربية تفتيش سخا التابع لإدارة أملاك الحكومة ... فلاحظ جلالته في كبس بالات القطن أن عملية الكبس بالأيدي والأرجل تتعب الفلاحين تعباً عظيماً وأنها ضارة بصحتهم ... » (صحيفة لا با ترى ، القاهرة ١٠ نوفمبر ١٩٣٦ .)
(٢) حسب تحقيق ابنة الشاطئ المنشور في الاهرام في ١٧ و ١٨ و ١٩ فبراير سنة ١٩٣٧ كان ٢٥٠٠٠ طفل تتراوح أعمارهم بين الثامنة والخامسة عشرة مستخدمين في هذا العمل الغير الصحي أياماً تبدأ في الخامسة صباحاً ولا تنتهي إلا في التاسعة مساء بدون راحة متفق عليها .

ترجمنا هذا الهامش ، لانه ورد في النص الفرنسي وإن كنا نحن شخصياً نرى أنه نوع من الديماغوجية الصحفية التي لا تمت الى الحقيقة الواقعية بصلة . « المترجم »

عادية في مصر السفلى كما في مصر العليا التي يعيش قسم كبير من الشعب فيها من خبز الذرة .

إن لفظة الذرة هي الاسم العربي لهذا النوع من الحبوب وتدعوه وزارة الزراعة بالذرة الشامية أى الآتية من سوريا لتمييزها عن الذرة الرفيعة أو العويجة التى هي الغراس القديم .

في افريقيا ، في البلاد التى تروى رياً كافياً والتي هى خصبة التربة تتراجع الانواع المختلفة من الذرة لتفسح مكاناً للذرة الشامية ، وهي حبوب أمر يكانية سهلة الزراعة ، سريعة في الإنتاج ، قابلة لزراعة ثانوية .

تنطبق هذه الملاحظة بنوع خاص على مصر : ففي الواقع أن الذرة الرفيعة التى تشغل ٣٠٠٠٠٠ فدان تقريباً والتي زراعتها قابعة في مصر العليا (حيث نظام الحياض) تقل بتقدم الري الدائم .

احتلت الذرة الشامية وادى النيل لأنها تلتئم مع الفلاح ومع التربة الى حد أن اشتهرت بأنها أفضل ذرة في العالم ، وذرة موزمبيق هي وحدها التى يمكن ان تشبه بها يذررها الفلاح في يولية نثراً ويخصص لها كثيراً من السماد ويسقيها سبع مرات وبعد ثلاثة عشر أو خمسة عشر أسبوعاً يقطع باليد الأحطاب الطويلة المحملة بالسنايل الضخمة والتي هي أعلى منه .

ذلك هو الاجتناء : ففي أكداس النبات المتراكمة يقوم العمال والنساء والأطفال بالفرز الأول فيضعون في جانب رؤوس الذرة التى لا تزال مدثرة ، وفي الآخر الأحطاب مجردة .

يصل دخل الذرة بالتعبير الزراعى الى عشرة أرادب أو اثني عشر اردباً للفدان ،
ولكن الدخل المتوسط في البلاد هو سبعة ونصف .

وعلى أثر ذلك يقيمون من هذه الأحطاب منصوبة ومجبوكة شبه سياج دائرى
حول تل الثمار . وداخل هذه الدائرة وفي وسط الحقل يقشرون السنابل ثم يضعون
الحبوب الصفراء التى هى أكبر من الفاصوليا فى قفف ، والأحطاب أيضاً يحملونها
على حميرهم القصيرة فيقوون بها سقف المنازل ويستعملونها كوقود ، ويجب ألا
يضيع شئ .

ج - القمح

إن القمح هو فى أقدم تقاليد مصر الزراعية ، وهو يستعيد اليوم قليلا قليلا
الأهمية التى أفقده القطن إياها ، وهو يستفيد من سياسة تعدد الزراعات . فى سنة
١٩٣٤ كانت المساحة المنزرعة قمحاً ١٣٨٨٦٧٣ فداناً . وفى سنة ١٩٣٩ كانت
١٤٦٦٠٠٠ فدان ، وكان ذلك يمثل إنتاجاً مجموعته ٨٦٠٠٠٠٠ إردب أى أن متوسط
الفدان ٩٦ ، ٥ وكل هذا القمح تقريباً مستهلك فى البلاد بواسطة ذوى اليسار من
الوطنيين وشعب المدن ^(١) إذ الأوروبيون وأثرياء المصريين يفضلون الدقيق الأجنبى
الذى هو على الأخص مستورد من استراليا وكندا .

يذر الفلاح القمح فى نوفمبر ويسرع فى التسميد والرى قبل وقت الجفاف ثم هو
لا يرويه الا مرة أو مرتين قبل الحصاد .

هو يحصد فى أبريل بمنجل بدائى أو باليد ثم تحزم الحصيدة حزمًا تنقل على ظهر

(١) القمح المصرى قليل الصلاحية للتصدير بسبب ضعف احتوائه على المادة اللزجة
وتفوق نسبة الحصى فيه ، ومع ذلك فقد كانت المانيا فى سنة ١٩٣٧ تفاوض لتستورده منه .

حمار أو جمل الى البيدر العام (الجرن) حيث تحل ، وكل أسرة تمد فيه غلتها عند ما يجيء دورها ، وتأتى الجاموسة لتدوس السنابل الراقدة على الأرض ، والأكثر فقراً يدقون قمحهم بمعصيهم (النبايت) ولكنهم فى أغلب الأحيان يملكون بالاشتراك (نورجاً) وهو عربة ثقيلة من الخشب تمسكها ٤ عجلات ٣ + ٤ متوازيات ، وهى اسطوانات لدرس القش مركبة فى أسفل العربة . يقطع (النورج) تجره الجاموسة سائرة فى حركة دائرية وتحت قيادة فلاح جالس فوق مقعد ، السنابل التى داسها الحيوان ينما يحدد عامل آخر الأعواد تحت الآلة .

تساوى هذه العربة الخاصة بمصر ثمانمائة قرش . وحينما تكون أكثر بساطة وبدون اسطوانات تساوى ثلثمائة تقريباً .

لكي يذرى الفلاحون - ككل زراع البحر الأبيض المتوسط - يذفون إلى أعلى بالسنابل المداسة المتقطعة فى مهب الريح ، وهم يستخدمون لهذه العملية مذراة من خشب ذات إصبعين أو أربع ، وهى الجاروف . وبنورج واحد وبضعة جواريف يصلون إلى إعداد حصيدة خمسة وعشرين فداناً .

وأخيراً تغربل النساء الجبوب فى غرايل واسعة ، وعند ذلك توضع فى أكياس وزلع وقفف معدة للبيع .

د - البرسيم

إن القش المداس مخلوطاً بالفول ، والشعير يكونان الغذاء الصيفي للعاشية ، ولكنها فى الشتاء تتغذى بالبرسيم . وقد ترجمت هذه الكلمة إلى الفرنسية بنفل الاسكندرية

يزرع البرسيم فى كل مكان بنسبة ٢٠ ٪ من مجموع المساحة ، لأنه يغذى الأرض كما يغذى الحيوانات ، ولما كان أحد البقول التى تحجز أزوت الهواء فى

التربة وكان كلاً جيداً ، فانه ينبت بسرعة وبحالة اقتصادية .

لا يتطلب البرسيم عملاً كبيراً : فالفلاحون يبذرونه فيما بين سبتمبر ونوفمبر ، وفي الغالب بعد الذرة أو القطن أو الأرز ، وقبل رفع الأخطاب التي هي على هذا النحو تحمي البذور ، وبعد نحو خمسين يوماً تجرى الجبّة الأولى ثم تليها أربع جبات أخرى في كل خمسة وثلاثين يوماً واحدة ، والحيوانات تطعمه في مكانه بقدر الحاجة ، وثلاثاً فدان يطعمان ثورين ، ونصف يطعم جاموسة طول الفصل ، وربيع يكفي لحمار .

هـ - المزروعات الغرائبية

لكن عمل الفلاح يجعل تربة مصر تنتج أطعمة أخرى ، فلندكر منها فقط للأهمية ما يأتي :

الأرز الذي أتى به من الهند في عهد الخلفاء والذي يزرع في الجهات الرطبة كدمياط وشمال الدلتا . هو يشغل تقريباً $\frac{6}{10}$ من المساحة المنزرعة ، ولكن مقدار مساحته يتعلق بغزارة الفيضان ، والحكومة تحدده ، وهكذا في سنة ١٩٣٥ كان ٤٧٠ ٣٧٥ فداناً . وفي سنة ١٩٣٧ كان ٢٤٠ ٤٦٩ فقط . وفي سنة ١٩٣٩ كان ٤٧٦ ٤٥٤ . إنه جيد النوع ، وهو لهذا يصدر إلى الخارج .

الغول هو طعام لماشية الحرث من يونيو إلى ديسمبر ، وحينما يكون جيداً هو - معداً بالزيت أو بالسمن - طعام لذيذ للشعب .

البصل وقصب السكر ، وهما من غراس مصر العليا ، والشعير والعدس والتمر ، وذلك فضلاً عن الخضر والفواكه التي تنمو حقول استغلالها في كل عام ولواتها محدودة .

يستبقى الفلاح لاستهلاكه الخاص قطعة من الحقل الذي يستغله ، فيغرس فيها

بدون سماد خضر الفصل كالإميا في الشتاء ، والفول في الربيع ، والملخية في الصيف ...
وستحدث عن ذلك بمناسبة طعامه .

ولكن هذه المنتجات فوق أنها تشغل مساحة أقل كثيراً من المنتجات الأخرى ،
هي لا تتطلب طرائق كثيرة الاختلاف عن الطرائق التي رسمناها .

صارت مصر بلداً متعدد الزراعة ، ولكن هذا الاختلاف لم يخلق من الفلاح
متخصصاً ، ولا من عمله تخصصاً ، بل ظل عاملاً عاماً « الرجل الذي يعمل في كل شيء »
وتحت ذلك الاختلاف الظاهري في الوسائل ظل عمله بسيطاً ومتشابهاً ، وبدون هذا
التباين الذي تخلقه المهن ، وكذلك بدون ذلك التخصص « التيلوري » الذي يحدد
النشاط بإشارة هي دائماً بعينها .

وهكذا يلتزم الفلاح مع كل زراعة جديدة . هو لا يبتكر ، ولكنه يسلم نفسه
إلى الزراعة التي أمر بها بامتثال يتضاعف بزيادة الثمار . ولقد لاحظنا ذلك لمناسبة
زراعة الكتان .

على أنه ليس كذلك بإزاء التجديدات الميكانيكية ، ولا بد أن يكون القارىء قد
لاحظ في كل ما ساف أن الأمر لا يتعلق بالسيارة الحراثة ، ولا بالحصاد الرباطة ،
ولا بالجباة ، ولا بالدراسة ، ولا بسيارة النقل ، ذلك لأن الفلاح لا يكاد يستعمل
اليوم هذه الآلات الميكانيكية أكثر مما كان يستعملها بالأمس لأنه فقير ، ولكن
على الأخص لأنه ليس في حاجة إلى هذه الوسائط بينه وبين الأرض .

نحن نعلم أن أجهزة جدعصرية تعمل في الممتلكات المستغلة في الزراعة المباشرة ،
وأن هذه الآلات يديرها فلاحون ... ولكننا لا نتحدث عن الاستثناءات ،
فالفلاحون لا يستخدمون الماكينات .

أجود؟ أجهل؟ لكي نشرح ذلك نقول : إنه بالأحرى غريزة حفظ الذات ، وإذا كانت الآلات الميكانيكية لم تجلب إلى حقول مصر أكثر مما حدث ، فذلك لأن المستغلين بعد أن حسبوا حسابهم ألفوا اليد العاملة أكثر اقتصاداً ، فوجهتا النظر في الوقت الحاضر تلتقيان .

غير أن الأمر لن يكون دائماً على هذا النحو ، فعداً ستزيد الصعوبة القروية في مطالبتها ، وإذا ذلك تلائم الآلة الميكانيكية المستغلين أكثر من غيرها .

يجب أن تكون الصدارة رغم هذا للعمل « اليدوى » لأن تصيير الزراعة في وادى النيل ميكانيكية سيكون ملاشاة للتعاقل الحيوى الذى استقر بين الزراع والزراعة ، وقطعاً للتوازن الذى تحتفظ به طريقة العمل ، وهى طريقة شعب كثير العدد .

٢- حالات العمل

هذه التربة التى يعجنها الفلاح بكل أعضائه يسلم إليها نفسه بدون احتياط وبهوى حينما تكون ملكه ، ولكنها لا تكاد تكون ملكه أبداً ، فهنا تملك الأرض الرجل وليس هو الذى يملكها ، وهذا فى الحق هو مفتاح سر كسله ، ففي الواقع أنه لا توجد من بين الحالات التى يعمل فيها أية حالة تحرره ، ولنلاحظه فى كل واحدة من حالاته وهى جميعها توجد اليوم .

الفلاح فابز التسخير

إن السخرة قد ألغيت فى سنة ١٨٩٣ ولكنها بقيت قانونياً وعملياً فى بعض حالات « المنفعة العامة » وحينئذ يُستولى على الفلاح إلزاماً فينتزع من حقله وقرية ويرسل إلى الموضع الذى تطلب فيه ذراعه من البلاد ، وذلك كالأحوال الآتية :

(١) عندما يكون فيضان النيل سيصير كارثة يعمل عدة مئات من آلاف الفلاحين نهاراً وليلاً تحت عصي الموظفين والمراقبين لرفع الضفاف أو الجسور أو إعداد المصارف أو السهر على الخزانات .

إذا كان هناك مثلاً جسر سيغمره الماء يقدفون بأنفسهم جماعات كثيفة إلى نقطة الخطر مسلحين بالفؤوس والمقاطف فيرفعونه ويقوونه مستعينين بالتراب والقصب وجدوع النخل ، وعند الحاجة بحطب الذرة وقصب السكر .

وفي سنة ١٩٣٤ كانوا يشتغلون على هذا النحو في الماء لا تقاذ البلاد . وقد اعتمدت الحكومة مائة وخمسين ألف جنيه لمكافحة البلاء أى لشراء المواد اللازمة ودفع انتقالات الرؤساء ومنحهم مكافئات . أما الفلاحون فلم يتسلموا أى أجر على مشقتهم ولا أى تعويض لاغترابهم الجبرى .

كل مصرى بمقتضى القانون يمكن أن يؤخذ ليساعد على دفع الخطر ، ولكن الواقع هو أن الفلاحين هم وحدهم الذين يساهمون في هذا العمل ، ومع ذلك « فمنذ الآن لم يُستخدَم أحد في ضفاف النيل أو جسور الحياض أثناء الفيضان دون تسلم أجر (١) ملائم » .

(٢) ثروة البلاد قد هوجمت : القطن مريض ، فمن الساعة السادسة إلى الظهر ، ومن الثانية إلى السادسة ينحنى على شجيرات القطن جمفل من الرجال والنساء والأطفال ينقبون ويفتشون صفاً صفاً وشجيرة وشجيرة وورقة ورقة ، ليزيلوا الشر ، فالورقة المصابة تنتزع برقة وتوضع في الثوب ، ولكن إذا أفلتت ورقة معدية ، فإن المراقب الذى يتبع الفرقة يلاحظها ولا تلبث عصاه أن تهوى على ظهر العامل الجانى .

« لقد اقتربت من أحد هؤلاء التعساء الذين يشتغلون تحت حرارة الشمس والضربات وسألته : كم يتقاضى على تعبته في كل يوم ؟ فأجاب : - قرشين » . (١)

وهكذا في يونيو سنة ١٩٣٦ بمقتضى قانون سنة ١٩١٠ (٢) قد سخر مليون من شباب الفلاحين لإيقاد ٤٣٥٧٨٥ فداناً قد هاجمها الدود الأحمر (٣) الذي يأكل لوزة القطن ويتجدد خمس مرات في العام . ومع ذلك فالجمعية الملكية الزراعية قد وعدت من يكتشف الدواء ويبقى مصر من هذه الكارثة بعشرين ألف جنيه ، وفي ذلك اليوم ستلغي إحدى السخر .

(٣) في كل خمس سنين تقريباً ، والمرة الأخيرة كانت في سنة ١٩٣١ (إذ قد أمكن أن يوقف في الصحراء غزو سنة ١٩٣٧) تغزو أرض مصر سحب هائلة من الجراد ، وكان من الممكن أن تتلف المزروعات لولا أن كثرة أخرى تعترضها ، إذ هناك قرى تنقل بأكلها إلى الجهات الأخرى إصابة (أمر ١٦ يونيو سنة ١٩١١) لا جلاء الجراد نحو الصحراء أو نحو البحر .

في هذه الحالة ينحصر العمل في حفر خنادق ، وفي الاحتفاظ بخطوط للدخان ، وفي الصباح ، وفي الهياج وتحريك النبات لإقلاق راحة الجراد وتعجيل هجرته .

(١) المصور ٢٨ يونيو سنة ١٩٣٥

(٢) المادة الثانية - يجوز للسلطة الادارية أن تكلف كل ذكر يزيد عمره عن تسع سنوات ولا يتجاوز خمساً وعشرين سنة كاملة ويكون معتاداً على أشغال الزراعة بأن يساعد في الأعمال المذكورة بأجرة يقدرها المدير لكل مركز من مراكز المديرية حسب السعر الجارى في الجهة المصابة . (الوقائع المصرية في ٢٠ أبريل سنة ١٩١٠) .

(٣) *Gelechia Gossypiella* - نديرس . دودة اللوز بالمعنى الدقيق هي : *L'éarias Insulana* ودودة الورق . وهي كذلك ضارة جداً ، هي : *La Prodenia Litura F.*

(٤) وأخيراً ، لنشر إلى السخر العادية والغير المشروعة والتي هي لصالح العمدة ، فلنكي يحتفظ الفلاح بخطواته أو يتجنب إعناته يخصص له عدة أيام بدون مقابل .

الفروع مباوما - إن فلاح هذه الحالة إذ يستأجره (ريس) لحفر إحدى القنوات أو تحسين أحد الطرق أو للجنى ، وإذا يجند مع كثيرين آخرين ، يحمل فأسه وينفذ العمل الذى يؤمر به فى زمرة وتحت رقابة ضيقة على طريقة المساجين ، وفى الغالب يكون جد بعيد عن قريته (الترحيلة) (١) . ومن أجل يوم ذى اثنى عشرة ساعة تقطعه فترة قصيرة فى الظهر يدفع إليه قرشان أو ثلاثة . ولقد قال لنا أحد كبار الملاك ما يلى : « عندنا يدفع الى الفلاح فى العموم ثلاثة قروش فى اليوم سواء أكان ذلك للحرث أم للقطن » .

توجد هذه الحالة على الأخص فى مصر العليا حيث زراعة القطن أقل انتشاراً ، واليد العاملة أكثر تهيؤاً ، والملكية الكبرى سائدة وكذلك فى ممتلكات الحكومة المستغلة فى الزراعة المباشرة .

وحينما لا يكون هؤلاء العمال مرتبطين بملكية ما . وفيما عدا الأشغال الكبرى التى تستأثر بهم يكونون معرضين للتعطل والبأساء . وهناك آخرون أكثر سعادة مرتبطون مساهمة وهم يشبهون « الأوبليجاتى » فى إيطاليا . وفى هذه الحالة يدفع غالباً جزء من أجر عملهم أعياناً طبيعية ، وجزء عملة . فمثلاً يؤجر المالك للعامل فداناً بالأجل ويسقط أجر الايام الممضاة فى خدمته من قيمة الإيجار ، وفى آخر العام يكون الفلاح مديناً أو دائناً حسب أجر الايام المقدمة منه ، أو أن الفلاح لا يتقاضى إلا قرشاً فى اليوم ، ولكن له فوق ذلك غلة فدان ذرة .

(١) الترحيلة هى استيراد رجال يستأجرهم (ريس) لحقل محتاج الى أذرة .

إن الفتنة الكبرى هنا هي أن يقوم الفلاح بأقل مجهود، ولكن ينبغي الاعتراف بأنه بسبب وفرة اليد العاملة قد ظل أجر المياومين منخفضاً إلى أدنى حد، وأن جميع التغيرات التي جلبتها الحرب لم تزد، وأن (الخمس قروش) تمثل حداً أعلى لا يلحق إلا نادراً^(١)، ولقد عرفنا مالكا كان الناس ينظرون إليه كمجنون لأنه كان يدفع إلى عماله على هذا الأساس.

لم يكن هذا الأجر ليكفي لمعيشة الفلاح وأسرته ولكن التكميلات التقليدية من الأعيان الطبيعية كجنيات اللاقطات، وكهبات الذرة وأحواض الحضر تعوضه في رخاء.

الفروع شريطة - إن حالة المياوم مرتبطة بالاستغلال الكبير، وحالة الشريك مرتبطة بالاستغلال الصغير. يشترك المالك مع الفلاح ليستغل بوساطته قطعة ذات خمسة أفدنة أو عشرة على الأكثر، وهو يدفع الضرائب وتكاليف الري ويقدم المواد الزراعية والماشية والبذور والأسمدة، والفلاح - وهو رب الأسرة - يقدم شغله أي اليد العاملة الضرورية لكل زراعات السنة من الحرث إلى الحصاد، والغاية خارجة، وهو لهذا يتسلم الخمس أو الربع من مجموعة إنتاج القطعة، أو هو يحتمل نصف جميع التكاليف، وإذا ذاك يأخذ نصف الغلة، والعقد - وهو دائماً شفهي - يحمل عدة تغيرات.

لا يشمل هذا النظام على مخاطرة، وهو يحقق للمالك أكبر قدر من العمل، وللـفلاح قوت يومه، ولكنه ضئيل الربح بالنسبة إلى هذا الأخير، لأنه مع مساعدة أسرته إياه، ومع عناية جميع اللحظات ومعونة كل الأذرع المستعدة لا يستطيع أن يزرع إلا خمسة أفدنة على الأكثر. وفي نهاية العام لا يربح إلا إنتاج فدان أو فدان وربع أي حوالي اثني عشر جنيهاً مقابل شغل الجميع طيلة اثني عشر شهراً... وهذا

(١) هذا هو الحد الأعلى أيضاً للعمال المستخدمين في النقل وفي الحرف الصغيرة.

إذا كان كل شيء على ما يرام ، لانه ليس من النادر أن ينقص هذا المبلغ ، فعند ما لا يكون لدى الفلاح مال قبل موسم الغلة يطلب مقدماً من المالك ، ليشتري لنفسه (جلية) أو ليقوم بدفع تكاليف ختان أو جنازة الخ ، وهذه الاقتراضات التي تزيد الفوائد تفوق أحيانا حصته في الشركة ، واذ ذاك لا يتقاضى في وقت إجراء الحساب شيئاً من المال ، وليس هذا فحسب ، بل هو يصير أيضاً رهيناً الى السنة التالية (١).

الفلاح مستأجراً

ان الفلاح هنا مقاول أكثر منه في الحالات الأخرى ، فهو يستأجر حقلاً بشرط كمال التصرف من ستة جنيهات إلى اثنين وعشرين حسب الجهات ، وهو يلتزم بكل النفقات ، ولكنه يحتفظ بكل الغلة ، والمالك ليس عليه إلا دفع الضرائب ، وعقد الأيجار في هذه الحالة واسع المدى ، فهو في العادة يشمل عصر الترتيب الضروري للزراعة أي سنتين أو ثلاثاً .

ها هو ذا فلاح من ميت غمر ، وهي جهة غنية ، يستأجر فدانين بعشرين جنيهاً للسنة الزراعية ، ويزرع أحدهما قطناً فينتج أربعة قناطير (٢) وكل قنطار يساوي ثلاثة جنيهات ونصف تقريباً فيذهب القطن الى المالك أي ان أربعة عشر جنيهاً تسقط من قيمة الأيجار ، والفدان الآخر يزرع الفلاح نصفه برسياً ، ونصفه قمحاً في زراعة الشتاء .

(١) في نشرة اتحاد الزراع المصريين بالقاهرة يثنى الميسو كازيفليس على نظام الأيجارات الصغيرة كشيء أكثر فائدة للمالك والفلاح (مارس ١٩٣١ ص ١٧٩ - ١٨٥) ويثنى الميسو ابراهيم رطل على زراعة الشركة (مايو سنة ١٩٣٢ ص ٢٧٠ - ٢٧٤) . وكل شيء يتعلق بشروط المؤجر والمستأجر . هذان المقالان ذويا النعمة المضبوطة يبينان ضرورة منح بعض الفوائد للفلاح لكي تغل الارض أحسن إغلال . (٢) ينتج الفدان من أربعة قناطير الى خمسة حسب درجة البذور . وفي سنة ١٩٣٦ كان المتوسط ١٦ ، ٥ وهو إنتاج استثنائي .

فأما البرسيم فتستهلكه الماشية ، وأما القمح فينتج إردبين ونصفا ، ثمنها ستة جنيهاً تقريباً ، ولكن المؤجر يحتفظ منها بأربعة للدفعة الثانية . وأخيراً يزرع المستأجر ذرة في الفدانين ، ولكنه قبل الغلة يجب أن ينتهي مفاعله للمالك وهو جنيهان ، وإذا ذلك يستطيع أن يتصرف في الذرة . وقصارى القول إن إنتاج هذه الغلة الأخيرة هو الذى يعود إلى الفلاح رب الأسرة وبذلك يحقق قوت داره ثم يبيع ما زاد . فإذا سار كل شيء حسناً استطاع أن يربح عند نهاية الحساب ستة جنيهاً .

إذا سار كل شيء حسناً . . . لأنه إذا كانت الغلة رديئة أو تلفت أو بيعت سيئاً فإن المستأجر يجب أن يدفع رغم ذلك القيمة المحددة كما تنص على هذا المادة ٣٩٢ من القانون المدنى المصرى . وإذا ذلك يحدث الخراب . وأحياناً يكون عاماً إلى حد أنه لا يكون للحكومة بد من أن تصدر مراسيم بقوانين تعين تخفيض الإيجارات بنسبة ٢٥٪ أو ٤٠٪ حسب تاريخ العقد (السنين الزراعية ١٩٢٩ - ١٩٣٠ و ١٩٣٠ - ١٩٣١ و ١٩٣١ - ١٩٣٢) ولكن الحكومة لا تستطيع التدخل دائماً ، والأرض بسبب الطلب تؤجر بأثمان مرتفعة ، ونتيجة ذلك بالنسبة إلى الفلاح هي فى الغالب الدمار .

شرح مستأجر تعس كان قد حجز على جاموسه حالته لأحد المحققين على النحو الآتى : « استأجرت فدانين كل منهما باثنى عشر جنيهاً وأنفقت على كل واحد خمسة جنيهاً فى بذور وسماد وما شاكل ذلك ، ولا أقول شيئاً عن شغلى وشغل أولادى ولا عن مساعدة حيواناتى طيلة السنة ، وهذه هي النتيجة :

أنتج فدان أربعة قناطير من القطن بيعت باثنى عشر جنيهاً ، والآخر خمسة أراذب من القمح وسبعة من الذرة بيعت بثلاثة عشر جنيهاً . وقد أنفقت من هذا الإنتاج الذى مجموعته خمسة وعشرون جنيهاً عشرة جنيهاً فكيف أدفع الإيجار وهو (١٢ × ٢) ؟ لم يكن بد من بيع الجاموسة .

- ولكن ما دمت خاسراً ، فلماذا تستمر على أخذ أراض بالايجار ؟

- لأن الزراعة هي المهنة التي ورثتها عن آبائي ، ولاني لا أعرف أن أعمل شيئاً آخر .

- ولكن لماذا تستأجر الأرض بهذه القيمة المرتفعة ؟

لأن ملاك الجهة قد اتفقوا معا على تثبيتها في هذا المستوى ، ولأن الفلاحين لا يعرفون كيف يخفضونها ^(١) .

ولقد أضاف الى ذلك قوله : « مادام أنه قد أخذ منا كل شيء فسندسرق ^(٢) »

الفهرج مالح

لقد رأينا أكثر من مليونين من الفلاحين يملك كل واحد منهم قطعة من الارض وهي بالنسبة الى أربعة أخماسهم صغيرة جداً (من قيراطين الى فدان) الى حد أنها لا تكفي لشغل الأسرة ولا لقوتها ، ومع ذلك فالمالك الصغير بين الصعلكة القروية يمثل الطبقة الممتازة ، والمثل الاعلى لكل فلاح هو أن يصل الى هذا المستوى كما هو أن يتزوج وتكون له أولاد ويملك جاموسة .

ان مالك الحقل الصغير عليه نفس النفقات التي هي على المستأجرين من بذور وسماد وماشية ومواد زراعية (وغالباً هو في شركة) وليس عليه ايجار يدفعه ، ولكن عليه الضريبة ، وهي في أغلب الأحيان دين ، لان الفلاح - وهو مالى ردىء وليس لديه في العادة ادخار - يستدين ليشتري بذوراً أو أسمدة ، أو ليستأجر الحقل المجاور الذي

(١) ينبغي أن نشير الى أن تراحم العمران يؤثر في قانون العرض والطلب .

(٢) الأهرام في ٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦ . نحن نترجم

يكبر حصته الغير الكافية (١) بل - بدلا من أن يدفع ديونه القديمة - هو يشتريه .

ولما كانت المصارف لا تقرض مبالغ صغيرة ، فهو يقترض من الافراد الذين هم - رغم قانون سنة ١٩١٢ الذى حدد النهاية العليا للفوائد بنسبة ٩ ٪ - يقرضونه بنسبة ٣٠ ٪ بل ٥٠ ٪ .

غير أنه يجب عليه أن يسدد فوائد هذا الدين إن لم يسدد الدين نفسه ، ولكنه عبثا يشتغل شغلا قاسيا مع أسرته الكثيرة العدد ويبدل وسعه بلباقة في أن ينتج الحقل أكبر قدر ممكن بأقل نفقات ممكنة - وتلك هى ميزة الملكية الصغيرة - فإنه فى أغلب الأحيان يوجد فى موقف سيئ وقت الدفع . واذ ذاك يجب أن يسلم ثمار عرقه أو يبيع جزءا من أرضه .

هناك قانون (٣ ديسمبر سنة ١٩١٢) يعلن أن ثروة الأسرة (Homestead) أى خمسة أفدنة فأدى غير قابلة لتوقيع الحجز عليها ، ولكن هذا الاحتياط بانتزاعه من المصارف ضمان قروضها ، قد وقف القرض المشروع عن صغار الملاك وقذف بهم الى المرايين .

الفلاح فى حاجة الى القرض ، نعم انه بخطئه غالبا لا يعرف كيف يستثمر مالا ليس ملكا له ، ولكن الطريقة التى يقرضونه بها تغوص به ، وكل قرض جديد يعمل له لمحاولة الخروج يزد من الغوص به : فالدين العقارى هو السرطان الذى يلتهم الممتلكات الصغيرة (٢) .

-
- (١) أو لياأخذه بالشركة . ولقد هيا لنا سكرتير الجمعية الزراعية الملكية أن نلاحظ أن الفلاحين فى هذه الحالة يحولون الاسمدة والماء والمجهود الى صالح ارضهم
- (٢) أن تدفع الحكومة دينه الى المرايين حالة محله ومستوفية تدريجيا مجموعة ديونها من دخله السنوى ، ذلك هو الحل الذى تعرضه .

ومع ذلك فلما كان هو مالك الحقل كان بعنوان ذلك مالك منتجاته ،
مالك القطن الذى كان أفراد الطوائف الأخرى من العمال يرونه يؤخذ من أيديهم .
تلك البضعة المملوكة له من قناطر تلك الغلة النفيسة يستطيع أن يبيعها لصالحه .

إن الفدان الذى أنفق عليه ثلاثين قرشاً للبذور ، ومائة قرش للسماد الكيمايى
وسبعين قرشاً للضريبة والرى وشؤون مختلفة يمكن أن يأتى له بعشرة جنيهات ربحاً .
وإذا كان الفلاح أكثر ذكاءً ، فانه يستطيع منذ سنة ١٩١٢ أن يحمل غلته الى سوق
القطن (الحلقة) فى المدينة المجاورة ، وهناك الوزن والتمن تراقبهما الحكومة فلا يستطيع
التجار أن يخدعوا . وعند ما لا تكون الحاجة الى المال طاغية ، فان المالك الصغير لا
يبيع قطنه بعد الجنى مباشرة ، وإنما هو يودعه فى (شونة) أحد كبار الملاك ، أو أحد
المصارف ، أو أحد المحالج فى مقابل عربون به يستطيع أن يدفع ديونه الأكثر إلحاحاً
وعروض الشراء فى المستودع هى بالقرش والقنطار ، ولكن القطن يشتري أحياناً
مقدماً ، أى أنه منذ البذر يتعهد المالك الصغير بأن يسلم الى فلان كمية كذا بدرجة
كذا ، وفى هذا الوقت يحدد الثمن أو يحرر عقد أساسى لبيع جزء صغير ، والجزء
لآخر يتبع سير (الكونترات) فى (بورصة) الاسكندرية فى اليوم الذى يلائم
البائع ، على أن يكون ذلك فى المدة المعينة فى العقد .

غير أن جميع الاحتياطات التى تبغى حماية الزارع الصغير لا تمنعه من أن يظل
مخدوعاً فى أغلب الأحيان بسبب جهله وانفراده ببيع قطنه ومنتجاته الأخرى أيضاً

يقرض (بنك) التسليف الزراعى مثلاً على القمح ، ولكن ذلك لصغار الزراع
فقط الى أن يستطيعوا بيع غلتهم بثمن أعلى . هذا حسن جداً ، ولكن هناك تجاراً فى
القرى يحصلون على شهادات من العمدة - وهو أمر هين - تثبت أنهم أيضاً مزارعون
وإذ ذاك يشترون من الفلاحين الحقيقيين بسعر مائة وعشرين قرشاً للإردب . ولما

كان هؤلاء يجب عليهم دفع الضريبة والالتزامات ولا يدرون إلى من يتجهون ، فإنهم يبيعون لأولئك التجار « المحسنين » . وفي مبدأ موسم الغلة يمكن أن يبدو ذلك صفقة حسنة ، ولكن الإردب في القرية يوازي مائة وخمسة وسبعين كيلو ، على حين أن (بنك) التسليف الزراعي يأخذه على أساس مائة وخمسين كيلو كما في المدينة ويقرض عليه مائة وثلاثين قرشاً (١٩٣٧) . هاهم أولاً ، إذآ ، تجارنا المهرة يودعون في (شون البنك) قمحهم الذي يزعمون أنهم حصده . وعلى هذا النحو يربحون عشرة قروش مضافة إلى خمسة وعشرين كيلو في كل إردب . وهم ينتظرون بدون مخاطرة أنهم - عند البيع الموكول الى عناية (البنك) الزراعي - يتقاضون متما لربحهم

كما أنه لا يوجد بين حقول مصر حواجز ، وإنما توجد حواش وجداول ، كذلك لا توجد بين الصور المختلفة للعمل الذي حللناه آنفاً أسوار صفيقة ، فكل واحد من هذه الاصناف - لعدم كفايته - غير متنافر مع الآخر ، وقليلون من الفلاحين أولئك الذين لا يتجاوزون أحدها الى الآخر أو الذين لا ينتسبون في الوقت ذاته الى أحدها والى الآخر . وحالة الفلاحين نفسها تسبغ عليها جميعها شيئاً من التشابه

(١) بديا التشابه في الفقر : بسبب أن الفلاح لا يعرف التدبير ولا الادخار ، ولكن على الأخص بسبب أنه ضعيف ومنفرد وجاهل ، فإن الاكثر منه قوة وثروة يحني ثمار عمله ، إذ أن المصرف أو المرابي أو الحكومة أو العمدة أو المالك يحني أكبر جزء . إن لم يكن كل ما أوصله إلى النضوج بعرق جبهته ، أما هو فإنه يظل فقيراً كـ « الأبرة التي تكسو الناس بينما هي تبقى عارية » (عبارة فلاحية) .

(٢) التشابه في التبعية : لا يستطيع الفلاح أن يفرس ما يريد ولا متى يريد ، فهو اذا كان مياوما يعمل مع زمرة في مهمة جد محدودة تحت أمر المراقبين الضيق . واذا كان شريكاً أو مستأجراً ، فإن زراعاته ينظمها رسم المالك ، واذا كان هو نفسه

مالكا فإنه يتمتع في التواريخ وفي أنواع النبات أوامر وزارة الزراعة وليس لديه أية حرية ولا أى ابتكار لا في الطريقة ولا في الزمن ولا في الاختيار.

(٣) التشابه في تحقق أقل قدر ممكن : مهما كان استغلال الفلاح سيئاً ، فإنه على الأقل متأكد من قوته ، إذ لا يموت أحد في القرى جوعاً ، وفي أسوأ حالات العمل تظل وسائل الأرض باقية .

(٤) التشابه في التعاون الأسرى : ينبغي أن يعتبر المرء دائماً كهماً لعمل الفلاح عمل أسرته ، ففي الطبقة القروية المصرية تؤلف المرأة والأولاد والجاموسة والحمار رأس المال العادي للاستغلال ، والخلية الريفية المتوسطة الآتية :

الفلاح - وهو رب الأسرة - : يقدم أيام عمله .

زوجته - وهي اليد العاملة المساعدة للبذر والجنى - : تربي طيور المنزل وتصنع الزبد والجبن وتبيع هذه المنتجات .

أولاده : ينشغلون بالماشية ويقنطادونها إلى الحقول وإلى موضع الاستحمام ويلتقطون الأرواث ويراقبون الساقية ويبحثون عن الأسمدة . وفوق ذلك فإنهم إبان خمسة أسابيع أو ستة يستخدمون في مقابل أجر للجنى أو مكافأة دودة القطن أو للحليج في المصانع .

جاموسته : تجر المحراث وعجلة الساقية وما شابه ذلك ، وتدوس القمح وتنتج اللبن والسماد (وهو بول وتراب) والوقود (وهو روث وقش) .

حماره : ينقل الأسمدة والغلة والفلاح ...

هذه الخلية الريفية يمكن أن تحقق عملياً القوت اليومي - وهو الأجر الطبيعي بالمعنى

الضيق - فإن عمله في جميع السنة يظفر بنحو عشرة جنيهات على أكثر تقدير .
غير أن رأس مال الاستقلال يستهلك ، وهذا المال الذي كان يجب أن يكون
ربحه ينفق في الضرورات الآتية :

- زيت للطهي ، وخضر متممة ، ولحم أحياناً ، وسكر وشاي ٢٠٠ قرش
- زيت أو بترول للمصباح وتجديد للمواد المنزلية (كالقلم والصحفة)
- أو الزراعية (كالقطف) وكلاً الصيف للجاموسة والحمار ١٠٠ »
- كساء جديد (جلبية أو فستان) لكل عضو من الأسرة في فرصة العيد ١٥٠ »
- نفقات المرض والحرافات والمتع والفرامات ٥٠ »
- نفقات فوق العادة ٥٠٠ »

وتحت هذا العنوان الأخير الذي هو الإمكان الوحيد للاقتصاد توجد دائماً إما
نفقات الختان ، أو نفقات الجنازة ، أو نفقات الزواج أو المهر ، أو نفقات الفدية
العسكرية ، وأحياناً تطبع الميزانية بطابع العجز .

بينما حددنا فيما يتعلق بالدخل النقدي عشرة جنيهات كحد أعلى ، فإن إنفاق
عشرة جنيهات هنا يمثل الحد الأدنى . وهذا هو السبب في أن توازن ميزانية الفلاح
يتصدع بسرعة إلى هذا الحد ، وأن الديون والفوائد ترهقها في أغلب الأحيان .

وإذا لم يتحتم لحسن الحظ أي واحد من تلك الإنفاقات الغير العادية ، فإن
الفلاح بجمعه قرشاً قرشاً في قدر يدفنه في الأرض يستطيع في النهاية تحقيق حلمه وهو
شراء جاموسة أو بضعة قراريط من الأرض .

هذا الإمكان الأخاذ - لأنه دائماً قريب - يجعله يستأنف في كل عام بدون
كل نفس العمل . . . مثل الأرض ومعها .

الفصل الخامس جسم الفلاح

شغل مادي ، وعمل جسم ، بل عمل كل الجسم . هكذا رأينا عمل الفلاح فلنعتبر الآن الأداة في ذاتها ولنلاحظ جسم الفلاح في أرومته ، وفي نموذج ، وفي حياته ، وفي زينتته ، فانا سنجد فيها فعل الماء والأرض والشمس ، وهي عوامل مادية تشرح بنية الفلاح الجسمية وأحياناً تحددوها .

ومع ذلك ففي وسط هذه التبعية المادية تبدو حرية الانسان في عدم تطابقها مع البيئة ، ولكنها إذ ذاك تخضع لقيد آخر ، وهو قيد التقاليد ، فتظل النتيجة كما هي ، وهي الثبات .

١ - الأرومة والنموذج

ألى أية أرومة ينتسب الفلاح العصري ؟ ما هو سلفه ؟ وأين موضع أصله ؟ نحن نضع هنا أسئلة لم يستطع أحد إلى الآن أن يجيب عليها أية إجابة نهائية ، ومع ذلك فانا لم نعدم الباحثين ولا النظريات الفرضية ، ولا الأخيلة في هذا الموضوع ، ولكي لا نصعد إلى ما وراء القرن الثامن عشر ، فان « فولنيه » مثلاً يؤيد أن المصريين هم من أصل أسود ، و « فيغان دينون » يعزو اليهم أصلاً قوقازياً ، « وپوانسينيه دى سيفرى » ينظن - تبعاً لـ « بلين الأصغر » - أنهم ينحدرون من السيلت . ويرى « وينكيلمان » أن هجرة صينية هي التي توضح المشكلة ، ويلجأ « مورودى جون » إلى البولينية ، ليجد مهد الأرومة المصرية .

وفي نهاية القرن التاسع عشر أخذ علماء الأرومات - بوسيلة أكثر علماً ورجحاناً - يبحثون في جوار مصر : في افريقيا أو في آسيا عن مفتاح المعضلة .

ولقد أيدت « هارتمان » ثم « ف. بيتري » و « ماسبيرو » الأصل الإفريقي ،

وهذان الأخيران يربطان المصريين بالآيتيوبيين .

أما « شانتير » فبعد إجراء مقاييس علمية على أجسام بشرية تبلغ عدة آلاف من العصرية والقديمة قد استنتج أن المصريين - دون أن يكونوا من أرضهم نفسها بهيئة إطلاقية - هم أفريقيون جوهرا (أى من أرومة ليبية) وأنه إذا كان هناك تسرب آسيوى ، فإنه لم يؤثر فى الأصل . (١)

ويظن « شوينفورت » معتمداً على علم النبات أن شبه جزيرة العرب الجنوبية هى نقطة ارتحال الأرومة المصرية . على حين يُعْتَقَدُ أن « أميلينو » و « دى روجيه » و « ج . دى مورجان » - وسلطانة العلمي أقوى من سالفيه - معتمدين على الدراسة الموازنة للغات والفنون والأخلاق والخصائص البدنية يرون فى كلدان أرومة الأسرة المصرية . (٢)

والنظرية السائدة فى الوقت الحاضر - لأنها أقل بساطة - هى التى قد تكون أكثر قرباً من الحقيقة ، ونحن نوجزها فيما يلى : قبل التاريخ لابد أن يكون آسيويون (سواء أكانوا عرباً أم بابليين) قد احتلوا وادى النيل فالتامعوا رغم سيادتهم فى السكان الذين كانوا مستقرين من قبل ، وهم خليط من بني البلاد ومن الآيتيوبيين .

هذا رأى الجامع الذى أتى بعد القضية وضدها فيه ميزة الإلمام بالأسانيد المتناقضة التى عليها تتأسس الآراء المتعارضة ، وهو يسمح بإدخال المصريين فى مفهوم « إنسان البحر الأبيض المتوسط » السامى الحامى الذى يشغل إفريقيا الشمالية

(١) « إرنست شانتير » . « بحوث علمية حول مقاييس الجنس البشرى فى مصر »

وهو ٣١٨ صفحة ويشتمل على ١٥٩ رسماً ، ليون ، « ريه » سنة ١٩٠٤ .

(٢) « ج . دى مورجان » ، « بحوث حول أصل المصريين » باريس ، « ليرو »

سنة ١٩٠٩

وجزءاً عظيماً من آسيا الدنيا وشواطئ البحر الأبيض والذي ينم أحياناً عن بعض مشابهاً إيتيوية عند حدوده مع الأصول السوداء .

إن دراسة جوانب الأوجه المرسومة في الصور الخائطية والهياكل المكتشفة في الحفائر المختلفة تضطر المرء إلى الاعتراف حقاً بثلاث أرومات مبدئية : الساميون "dolichocéphales" دوليكوسيفال (أى الذين تفوق أطوال رؤوسهم أعراضها بنحو الربع) وهم ذوو قامات متوسطة ، وأبناء شواطئ البحر الأبيض المتوسط "brachycéphales" برا كيسيفال ، (أى الذين تكاد أعراض رؤوسهم توازي أطوالها) وهم ذوو أنوف مستقيمة قصيرة ، واللويون وهم برا كيسيفال وأنوفهم مقوسة ، ولكن الحياة الزراعية والمناخ قد مزجا هذه العناصر الوطنية بالأجنبية ليُكوّنوا الجنس المصرى بالمعنى الكامل أى الفلاح ، وهو جنس واحد في جوهره كوادى النيل .

ومهما يكن من الأمر ، وإذا كنا لانعرف بالضبط من أين أتى المصريون القدماء فإننا نعرف بهيئة يقينية أن سكان البلاد الحاليين ، أو الفلاحين على الأقل ، وهم الذين يعنوننا قد انحدروا من الشعب القديم الفرعونى ، وهم يخلفون - دون انقطاع إبان خمسين قرناً ودون اختلاط تقريباً خلال الفتوحات - المصريين الأسريين الذين يعرفهم التاريخ

نحن نقول بدون اختلاط تقريباً ، فى الواقع أن العبودية والاحتقار اللذين كانا الشعب الأصلي يرسف فيهما منذ بدء زوال عصر الفراعنة قد حفظا جنسه : فالفرس والإغريق والرومان والعرب والترك والفرنسيون والانجليز قد تبعوا فى هذا الشأن سياسة واحدة وهى سلب ثروات مصر والسيادة عليها بسبب ذلك ، ولكن دون أن يشاركوا الشعب المنتج أو يختلسوا مكانه . ولما كانت مصر مأهولة بقاطنيها فلم تكن قط مستعمرة معدة للتعمير ، ولم يكن المستعمرون كثيرون العدد إلى حد يكفى لتغيير الجنس ، فبقى نوع حياتهم مختلفاً وظل الاتصال مقصوراً على المعارضة .

ومع ذلك فقد وجب التغلغل بواسطة الجوار من الرُّحْل والسود . وثبتت الغزو العربي الناشئ من الفتح الإسلامي (في القرن السابع) كثيراً من الرحل في المدن ، ولكن أيضاً في القرى المصرية . وقد فرض العرب بقوتهم كفاتحين على سكان البلاد لغتهم ودينهم وطائفة من عاداتهم بإزاء النساء وصلابتهن ، غير أن الأهليين الأكثر عدداً مائة مرة - ولا سيما في القرى - ونساءهم الأعظم خصوبة والأشد قوة ، ونوع حياتهم وثباتهم ، كل ذلك قد طبع العناصر العربية بطابع النموذج المصري . فعند ما استقر العرب على الأرض السوداء اعتنقوا تقاليد الخرائين القروية . ولا يزال المرء يلاحظ ذلك إلى اليوم في الدلتا العليا التي كانت الهجرة العربية فيها أكثر قوة (وهي أراض أكثر غنى) وفي الدساكر الطارئة التأسيس على هامش الصحراء . وبعد ثلاثة أو أربعة أجيال لم تعد الطعمة تمتاز عن الشجرة ، أو إذا كانت شديدة التباين معها ، فإنها لا تنال من مائها ، إذ الامتزاج بالنموذج في الواقع مرتبط بالامتزاج في نوع الحياة . فالعرب الذين ظلوا رُحلاً والذين يكلفون بنقل القطن على الجمال والذين يقودون القطعان والذين ينهبون ويقتلون ، وهم الذين يدعون في مصر بالبدو ، هم يختلفون بوضوح عن الفلاحين بتقاسيم وجوهرهم الأكثر دقة وأمزجتهم الأشد عصبية .

هناك اختلاط آخر ينتج في الجنوب بين السود والفلاحين . ولما كانت العناصر هنا أعظم تبايناً ، فإن الاختلاط يبدو بهيئة فاتكة ، ولكن النموذج المصري هو الذي يسود ، وكذلك ابتلاعه العناصر المجاورة والتي هي بالتالي تشبهه قليلاً . هذا الانمياح في شعب مستقراً أكثر صلابة وأكثر عدداً ، هو ظاهرة منطقية ولو كان الغزاة أو المهاجرون ملايين أو كانوا قد أتوا من بلاد الجيرمان أو البلقان ، لكان من الممكن أن يفرضوا نموذجهم رغم تأثير المناخ ونوع الحياة . وفوق ذلك ، فإن الصحراويين : الشرقية والغربية وعمق الجنوب وبعد وادي النيل عن المركز الأفريقي قد حفظت

البلاذ من كل هجرة شاملة بقدر ما حفظها ازدهام السكان الأصليين .

ساعدت هذه الأسباب الجيوغرافية والتاريخية على حفظ النموذج المصرى ،
فالأهلون القرويون على الأخص يحتفظون بسحنة تميزهم عن الاختلاطات التى
لا تحصى مع الشرق الأدنى .

قليل إن الأقباط يمثلون بهيئة أتم نقاء النموذج القديم ، وهذا حق فى المدن حيث
الأقباط هم الوطنيون على حين أن المسلمين فيها ينحدر أكثرهم من العرب أو الترك ،
وهم يرتبطون بنساء من جميع الأقطار . وفى هذه الحالة يكون الفرق العنصرى
والبدنى جلياً ، ولكنه فى القرى لا يتحقق ، فالفلاحون الذين ظلوا مسيحيين والذين
صاروا مسلمين (وهم ٨٨ ٪ من الأهلى) هم من أرومة واحدة . وإذا كان أولئك
لا يتزوجون إلا فيما بينهم لأسباب دينية ، وبهذا يحتفظون بالجنس ، فهو لا يساكون
الخطئة نفسها بدافع التقاليد ، إذ النفور بين الفلاحين والبدوي يجعل الزواج بينهم نادراً
إلى أقصى حد ، ومصاهرة الأجنبى الذى تلجئه حادثة ما إلى الثواء فى القرية هي
أشرف الفضائح . وهكذا كان النموذج العام متوحداً بهيئة تكفى لإمكان وصفنا إياه
دون هوى شخصى .

الفلاح ذو بنية سمكة ، ولكنها ليست بدنية ، وجمجمته ووجهه عريضان ،
وجبهته ضيقة ، وعيناه وشعره سود ، ووجنتاه بارزتان إلى حد ما ، وأنفه سميك ،
وشفتاه ضخمتان ، ولكنها ليستا مقlobتين ، وفكه ثقيل ، وتقاسيمه غليظة فى
مجموعتها ، ولكنها ليست فظة ، وهى ليست كثيرة التحرك ولا عظيمة الدلالة ،
ومواضع الربط من جسمه قوية ، وهى تميزه من البدوى ، فعنقه ورسغاه وكعباه ربعة ،
وظهره مقوس ، وكتفاه ليستا منخفضتين ولكنها منحنيتان على الصدر ، أما ردفاه
فمضغوطان ، وقدماه كبيرتان ومبسوطتان ، ومتوسط قامته متر وثمانية وستون سنتيمتراً

وعلى هذا النحو النساء مع الاحتفاظ بجميع النسب ، ومع ذلك فيبدو أنهن قد احتفظن بنقاء النموذج أكثر من الرجال (١)

هذه هي خصائص جنس ونموذج . نعم لم تنعدم المغايرات كما هو الشأن في كل كائن حي ، ولكنها لا تصل إلى حد التضاد ، بل تبقى في حدود الفوارق الدقيقة .

وهكذا يستطيع المرء أن يلاحظ :

أولاً أن الجمجمة (٧٥ تقريباً) وهي أقوى من ذلك بوحدة في مصر السفلى

ثانياً أن هناك انعطافاً طبيعياً إلى السواد بقدر ما يتقدم المرء نحو النوبة . ولقد سجل ذلك المقريري وعبد اللطيف في القرن الرابع عشر . وكل الرحالة الذين يصعدون إلى أسوان يستطيعون أن يلموا بذلك .

ثالثاً أن الصعيدي أكثر سمرة بسبب الحرارة ، وأكثر صلابة ، وأقوى عضلاً (لجفاف المناخ) وهو أطول من فلاح الدلتا .

٢ - معاملة الجسم ولباسه

إن الجهاز الشعري قليل النمو ، والفلاح يحمل شعراً قصيراً إلا متى صدم الموت ذكرًا من منزله ، ولكنه يحتفظ عن طيب خاطر بشاربيه كأحدى علامات الرجولة ، فإذا صار شيخاً موقراً أرسل لحيته . وعندما كان طفلاً كان أهله يحلقون رأسه تماماً ولا يدعون منه إلا الخصلة الطقوسية .

أما شعر النساء فلعدم العناية به يظل ضئيلاً ، وهن يطلن بجبال صهباء أو سوداء

(١) الدكتور أبات باشا ، « ثبات الجنس في المرأة المصرية » ، نشرة الجمعية الجيوغرافية ، القاهرة مجلد ٦ من صفحة ٤٦١ إلى ٤٧٠ .

غداثرهن الهزيلة التي هي دائماً مخبوءة تحت النقاب أو محتواة في منديل ، وإزالة الشعر هي - منذ أقصى العصور الأثرية - عامة لدى الجنسين ، وهي تؤدَّى بالموسى ، أو بوضع ونزع (كرملة) من سكر وشبة (وهي الحلوة) .

ككل الشعوب القديمة التي تحتفظ بنفسها يختص الفلاحون بشراتهم بتجميل وصحة وتقاليدهم يتلقونها ويتناقلونها منذ زمن لا تعيه الذاكرة : فالتشريحات والذرات والطلاءات كلها ترمى دفعة واحدة إلى التجميل والوقاية والعلاج .

تثقب شحمتا أذنى الفتاة الصغيرة ويثقب أحياناً أحد حواجز أنفها ، وإلى أن تنال هذه الثقوب أقرطها تحفظ بخيوط .

أما الغلمان جميعاً سواء أكانوا مسلمين أم أقباطاً ، فإنهم - فيما بين السادسة والعاشرة - خاضعون للعمية ، للتقليد الاحتفالى ، تقليد الختان ويجريه حلاق القرية

وفي بعض الأحيان - وكان ذلك فيما مضى أكثر وقوعاً - تجرى عملية البتر للفتيات ^(١) . وعلى الضد من ذلك في بعض الحالات وفي بعض الجهات تثقب اذن الغلام اليمنى .

لا يشرط الفلاحون وجوههم كالنوبيين (البرابرة) ولكنهم يلونونها . .

بديبالوشم الذى يؤلف العلامة المميزة للشعب : فالرجال والنساء موسومون بها منذ المراهقة . فى وسط الجبهة ، أو فى وسط الذقن ، أو على الصدغين ، أو على ظهر اليد ، وهى تقط أو صور هندسية ، وعلى الصدر ، وعلى الظهر أو على المعصم ، وهى

(١) يدهشنا أن يعلن المؤلف أن ختان الفتيات لايجرى إلا أحياناً ، وأنه كان فيما مضى أكثر وقوعاً ، لأن الذى نعرفه هو أنه يحدث دائماً وبدون استثناء . « المترجم »

رسوم ساذجة وغير ماهرة كسيف أو شجرة أو اسم أو تاريخ ، وعند الاقباط صليب يختلف تزيينه بالزهور كثيرة وقلة . لا يكاد وشم الفلاحين ينخفض عن الخاصة ، وهو ليس ماجنا ألبته . والذي يصنعه اختصاصي ، وهو في أغلب الاحيان بدوى : رجل للرجال ، وامرأة للنساء ، وهو يقوم به في الهواء الطلق في احدى زوايا الطريق وفي يوم السوق . وطريقة عمله بدائية ، وهى تحدث تورما مؤلما . فى المكان المعين وحسب النموذج المختار يرسم الفنان بقوة ، الخط فوق الجلد بألة مديبة مؤلفة من خمس أو سبع إبرجد محبوكة ، أو بنوع من الأختام معد لطبع الوشم ثم يلون الرسم الدامى بسواد الدخان ممزوجا بالزيت أو بالكحول فيحصل بهذا على لون أخضر ثابت .

أما صبغة الحناء للشعر والأيدى والأقدام أو للأظافر فقط ، فهى تجمل مصرى عريق ، إذ هى تصعد إلى الأسرة العشرين . وقد قوى العرب ^(١) استعمالها . استعمال الحناء شئ دقيق ، فمن مسحوق ورقها الناعم تصنع لزقة ويجب أن توضع حارة ويحتفظ بها حسب - درجات الجودة - من ثلاث ساعات إلى أربع وعشرين ساعة . واذ ذاك يحدث منها لون أحمر برتقالى أو أسمر يبقى نحو خمسة عشر يوما .

تصبغ الأيامى شعورهن بالحناء لاستعادة الشباب وللشباب وللشابات لتنظيف رؤوسهن وقتل القمل ومنع سقوط الشعر وللتجميل . وكذلك تصبغ بالحناء جماجم الأطفال المخلوقة للصحة ، ولكن أيدى النساء وأقدامهن وأظافرهن لا تلون على هذا النحو إلا فى الحفلات الكبرى مرة أو مرتين فى العام .

(١) « فوند يرهيدين » الحناء عند مسلمى افريقيا الشمالية « فى مجلة الإفريقيين ،

أما الكحل (١) فيبرز بالسواد الأهداب والحواجب ويوسع العيون التي هو يستعمل في تجميلها كما يستعمل في وقايتها . وليس هناك امرأة لا تستعمل هذه الزينة الاقتصادية لها ولبناتها . ففي يوم العيد أو التعب تضعه في مهارة بالمرود المغموس في المسحلة .

الختان هو فن من فنون العلاج ، والوشم هو طائفة من التشریطات الطبية ، والحناء لزقة صحية ، والكحل من أدوية العيون (قطرة) لأن هذه التجميلات الصناعية التي نصفها تمثل في الوقت ذاته بالنسبة إلى الفلاحين علاجاً للوقاية أو للشفاء ، وأيضاً هي كفعل سحري فالختان يكرس ، والوشم يرمز والحناء تعيد الذكرى ، والكحل يقضى العين الحاسدة ، وليس هناك ترف بدون مغزى أو منفعة .

لا يستحم الفلاحون للتلذذ أو للنظافة ، فحسبهم انغماسهم في الماء لعملهم أولادهم (التطهرات الإسلامية) .

في كل مساء الوضوء التعبدى الذى يشمل الأيدى والأرجل والوجوه والأعضاء التناسلية يحقق للرجال على الأقل الحد الأدنى للاستعمال الصحى للماء . أما الأطفال فهم يعيشون في الماء عندما يستطيعون ذلك أو حينما ينبغى إحمام الحيوانات ، وأما النساء فينغمسن فيه جماعات وهن في لبسات المتفضل ليغسلن الملابس ويغتسلن في الوقت ذاته . بالطمى أو بقطعة من الخشب أو الصابون وهناك قرى عديدة لا يغتسل فيها النساء حقاً إلا في فرصة زواجهن ثم مرة في كل عام يوم العيد الأكبر (٢) .

(١) تراكيه متعددة ولكن الغالبة فيها أساسها من الأثمد مع خليط من نباتات محترقة ومن سواد الدخان ورماد الكسندر وهكذا .

(٢) يدهشنا هذا التعميم حتى في بعض القرى لأنه لا بد للبرأة المسلمة من تطهرات شرعية ضرورية تتكرر كثيراً وترغمها على الاغتسال . (المترجم)

كيف يلبس الفلاحون؟ - هنا نعثر على غرابة مصر ، فإذا كان كثير من أفعال وعادات الحياة اليومية عاما لدى جميع قروى العالم أو على الأقل لدى جميع القرويين الفقراء أو القرويين المسلمين فإن الفلاح - في طريقة لبسه - يمتاز بوضوح ويعرف في الحال . فكما يوجد في الأرض والنموذج كثير من الوحدة كذلك لا يوجد هنا أيضا أى شيء من التنوع الذى يميز الحداثة ولا من التعقد والتوشية اللذين يجملان الملابس القروية في سوريا وفي فلسطين ولكن الأولى بثا أن نذكر شيئا من التفصيل :

غطاء الرأس عند الرجل يتحدد إلى أبسط مظاهره ، فهو يغطي قمة الرأس ، ولكنه لا يحميه من الشمس ، وهذا الغطاء المصنوع من الصوف الكستاني اللون (لبدة) يميز الفلاح المسكين إلى حد تعين نموذجه ، إذ هو في الواقع يدعى بـ « أبو لبدة » وهو البطل الشعبي لقصص عدة ، وهذا الغطاء يصنع أحيانا - وللأطفال دائما تقريبا - من البيكه البيضاء (طاقية) . وعندما يكون الفلاح أكثر سعة أو أكثر تدينا ففي الظروف الكبرى - وذلك في الجنوب على الأخص - هو يحيط غطاءه بقماس أبيض (أثر عربي) وهو يستعمله أيضا لتغطية العنق . واللبدة الجيدة هي العميقة التى يجب أن تصل إلى الأذنين تقريبا . وفي هذه الحالة تتكلف ثلاثة قروش ونصف قرش . أما (الجلبية) فهي الجزء الأساسي من ملابسه ، وهي ثوب أزرق قاتم أو مائل إلى البياض مصنوع من القطن . هو نوع من الاقمصة بدون رقبة وبدون حزام ، مقفل إلى أسفل الصدر ، وطويل إلى السكبين ، (وكما) طويلان وهو أميل إلى الاتساع . ولما كانت مفتوحة قبالة الصدر ، فهي تسمح برؤية أزرار الصديري وخطوطه . يلزم لثوب الشاب خمسة أمتار من النسيج المتوسط الذى يساوى من ثلاثة قروش إلى ستة ، والخياط يتقاضى ثلاثة قروش على خياطته .

وعند الشغل يقلب الفلاح جلبابه ويثنيه إلى ركبتيه ويرفعه إلى حزامه على صورة

قميص قصير ، أو ينزعه ويطويه ويضعه في مأمن إلى أن يستعمله كوسادة في ساعة الراحة . وإذا ذاك يبدو في لباس أبيض وسروال واسع يغطي ساقيه مربوط فوق الخاصرة بحبل صغير ، وصدره فوق القميص الذي يهفف طرفاه على منتصف الفخذين فوق السروال ، ولكن عندما يشتد الحر ينتزع الفلاح صدرته ، بل قميصه ويستغل عارى النصف الأعلى .

وقدماه أيضاً فيتان دائماً ، ومع ذلك فهو يملك بوجه عام نعلين سميكتين ضخمتين من جلد أصفر ، هما تحميان القدمين إلى الكعبين ولكنهما تدعان العقبين مكشوفتين . وهو يلبسهما في الأعياد أو بعد الوضوء ، وهذه الأحذية هي صناعة محلية وتدعى : بلغة (١)

أما الأطفال فهم عراة تحت جلايبهم التي هي أقصر وأميل إلى البياض من جلايب الرجال .

وملابس البنات أكثر تعقداً إذ تبقى فيها الخاصرة متميزة . هن يلبسن ألواناً صارخة وأنسجة قطنية ذات نقوش متعددة الألوان ، وشعورهن دائماً محجوزة في مندبل من شاش موصلي معقود من زواياه ، وأحياناً يضعن كأزر فوطاً جميلة يشترينها من السوق . أما النساء فحين يخرجن يغطين رؤوسهن ، وعندما يلتقيان برجل يحجبهن أسفل الوجه بنقاب طويل أسود (٢) لماع أو منطفيء يمتد إلى القدمين ويصير أشباحهن مرنة .

أما ثيابهن فهي في الغالب أقل قتوماً منذ أن بدأت الأسواق تعرض منسوجات

(١) ليس استعمال البلغة عاماً في قرى مصر كلها ، وإنما هو شائع في مصر السفلى ، أما مصر العليا فالشائع فيها استعمال (المركوب) وهو نعل فظ أحمر . (المترجم)
(٢) هذه (الملايا) هي ذات لون كستنائي قائم في جهة قنا .

أجنبية ، وهى مقفلة عند العنق والرسغ ولا تضيق عند الخاصرة ، وهى فى أغلب الأحيان تنتهى بوشى يلامس الأرض . وتتألف الملابس الداخلية من قميص طويل أحمر أو وردي أو منقوش بعدة ألوان ، وسروال واسع ملون كذلك ، والفلاحة هى الحائطة لكل هذا بلامهارة ، ولكنها ليست هى الناصجة

فى الواقع - ماعدا بعض المستثنيات التى ستقل ندرتها شيئا فشيئا بانتشار مصانع النسيج المصرية أن المنسوجات القطنية والأقمشة الأخرى التى تستعمل ملابس للفلاحين ترد على الأخص من اليابان وإيطاليا والهند. وصبغها الزرقاء أو السوداء تصنع فى البلاد وكذلك عمل الملابس : فأما (الجلبيية) والفرستان فيصنعان بالقياس ، وأما القميص والصدرة والسروال و (البدة) وماشا كلها فتصنع جملة وهناك وسطاء من اليهود يأخذون على عواتقهم تموين القرى الكبيرة بالألوان والكميات الضرورية ويجرى البيع قرب الأعياد الكبرى . وأما النساجون والشيوخ الذين يغزلون الصوف فهم يقدمون إنتاجا ضئيلا .

وعلى الملابس النسائية حلى صارخة تبدى عبوسها ، وعلى العنق عقد من أحجار صفراء أو زرقاء ، وحول المعصمين ، حسب الثروة ، عدة أساور من الزجاج أو الفضة أو من الذهب ، وحول الساقين الخلل وهو حلقة صفيقة من النحاس أو من الفضة ، وهو يحل محل خاتم الزواج ويجب على المرأة أن تحمله دائما ، وهى تستطيع أن تبيع كل شيء ماعدا خلخالها . وللحداد العائلى هى تنزع قرطها وعقودها وأساورها ولكنها لا تنزع الخلل إلا عند موت مولاها وسيدها . وقد ماها لآحمالان جورين طويلين أو قصيرين ولكنها فى بعض الأحيان تنملان نعلين كنعلى الرجال

هذه المجموعة من البساطة الظاهرية تشف عن شعب متمدين منذ زمن طويل كما تم أيضا عن مطابقة مرنة للمناخ والحاجات . ولما كانت ملابس الفلاح رخوة

وواسعة وبسيطة فهي تحقق لجسمه التنفس ، ولأعضائه الحرية وهي تحفظ للشبح ذلك الخط الانساني الذي ينسجم مع المنظر الطبيعي ، ولكنها على العكس لما كانت قائمة وجالبة للحرارة - وعلى الأقل بالنسبة إلى النساء واغطية رؤوس الرجال - فهي تجتذب حدة الشمس بدلا من ان تكسرها . ولا فراط طولها هي تثقل المشية وتجمع التراب ومع ذلك ففوائدها تفوق اضرارها والعادات التي تحتفظ بالملابس الريفية كما هي تُسَبِّتُ حكمة

- ٣ - الصحة والمرض

ليست ملابس الفلاح أكثر عزلاً له عن العناصر الطبيعية من عمله ، فهي لا تفصله عن الهواء ولا عن الشمس ولا عن الأرض ولا عن الماء ، وبالأندراج في هذا الوسط هو يتلقى قوة الحياة الطبيعية كاملة ، فحياته المتينة الصلبة المقاومة هي على وفاق مع الطبيعة ، ونومه ليس في حاجة إلى حشية ولا إلى رفنية أخرى ، والجروح الفظيعة في جسمه لا تجعله يصرخ ، وأنواع الزكام والصداع والروائح المقيئة لا تضايقه ، ورغبته في الأكل (شهيته) لا تعرف التقزز ، وعلى العكس من ذلك سمعه الدقيق يسمع أقل ضجيج .

غير أن هذه الطبيعة الصديقة ، في أغلب الأحيان مع الأسف ، تنقلب ضد جسمه الغير الحذر وتنقل إليه أمراضاً عفنة تشوّهه وتضنيه . نحن نقصد التحدث عن الأمراض المحلية المتوطنة في الطبقة الريفية . لن نقول شيئاً عن السل والجذام الوراثيين اللذين يعيشان في رفقة طيبة مع الفلاح ، فالبلهارسيا والانكلستوما والمالاريا تحدث أتلاقاً وتصيب في بعض المديرية أكثر من ٨٠٪ من الأهالي ، وهي كلها تأتي من عدم النظافة ومن الاتصال القوي بين الرجل والأرض ، ولكن أول ما يلفت أنظارنا هو أمراض العيون . فإذا كان لون الحقول الأخضر يريح العين ، فإن حدة

الشمس و سطوع الضوء ، وأكثر من ذلك أيضاً الغبار السميك الذى ليس هناك أى مطر يصرفه ، والرياح الرملية الهابة من الصحراء القريبة ، والوحل والذباب ، كل ذلك يتضافر على إلهاب الأعين منذ الطفولة و يقيحها إن لم يطفئها . لا يجتاز المرء أية قرية دون أن يسترعى انتباهه عدد العميان والعور الذين يسرون فيها ، وهم ٦ ٪ من الوطنيين ، ففي سنة ١٩٣٧ مثلاً أثبت الإحصاء الرسمي وجود ٢٦٦٥٥٠ شخصاً سلب كل منهم إحدى عينيه و ١٠٠٠١٠ مصابين بالعمى الكامل . وفي سنة ١٩٣٧ بلغ عدد العور والعمى فى مديرتى المنيا وأسيوط ٥٠٠٠٠٠ والعدد الواقعى هو أكثر من ذلك ، لأن الأعين الرمضاء والدامية والمحجبة بخضرة البياض وبالحبوب غير قابلة للحصر .

إن الضوء التعبدى الذى يؤدى بأى ماء كان (١) ، وفى الغالب فى جماعة ، وحفاة الأقدام فوق الأرض المبللة أو فى أحوال القنوات يدخلان بواسطة الجلد إلى أجسام ٩٠ ٪ من الفلاحين طفيلات البلهارسيا ، (٢) لأن ديدانها المحلية الأصلية تنمو فى الرطوبة وفى مياه القرى الراكدة . ومنذ مشروع الري هي تنمو فى مستنقعات المياه الناشئة من المصارف والقنوات السيئة التكوين والتجفيف .

ليس البول الدموى خطراً فى ذاته ، ولكنه فى الغالب يتعقد بسبب عدم العلاج ويجلب الحصى فى المثانة والقروح والنواسير فى القضيب ويمكن أن يصعد التقيح إلى السكلى والكبد ، بل إلى العين ، وعلى الأخص هو يبقى سنين طويلة : ثمانى عشرة أو عشرين سنة . . . ويتعود الفلاح على أن يتبول دمماً كرفاقه وأن يعانى حياة ضعيفة .

(١) يقصد المؤلف الماء الذى تتوفر فيه الشروط الصحية الكاملة وأن كان مشتملاً على شروط الطهارة الشرعية .

(٢) الدكتور « تيودور بيلهارس » المتوفى فى سنة ١٨٦٢ ألماني الجنس ، وكان أستاذاً فى مدرسة الطب بالقاهرة اكتشف فى سنة ١٨٥٨ الطفيلي الذى كان إلى ذلك الحين سراً والذى يسبب ذلك المرض المتوطن فسهل محاربته .

تنتقل البلهارسيا بواسطة البول ، والانكستوما بواسطة البراز والارض ، وهي كالبلهارسيا من امراض المجتمع ، وباء دائم ، وهي مثلها تدخل بواسطة دودة من مسام الجلد ، وهي اقل عموماً من البلهارسيا ، ولكنها اشد منها خطراً ، لأنها تستهلك الكرات الحمراء (١)

ولما كان الفلاحون لا يستعملون الدمن الانسانية للتسميد ، ولا يستخدمون الكنف لجلبهم هذا العمل ، أو لعدم استطاعتهم التعود عليه . فإنهم يضعون أبرزتهم في كل مكان . فاذا كانوا مصابين بالطفيليات . فستوجد بعدد تلك البرزة مراكز تهدد الرفاق الذين يسرون حفاة أو يتمددون بدون احتياط على الارض . لان الديدان تنقل عدة أمتار في الظلام وتقيم في بقعة مرطوبة . ومنها تسلك سبيلها تحت الجلد إلى الامعاء

٦

لقد رأينا من هؤلاء الفلاحين وتلك القلاحيات أفراداً ممتنعين منتفخين ضعفاء بسبب ذلك المرض الفظيع الذي لم تستطع جباةهم المتينة ولا سنهم - وهي من ٢٥ إلى ٤٠ سنة - ولا العلاج الذي منحوه أن يقاومه .

أما الملاريا المنتشرة بواسطة حقول الأرز (البرك) فهي تهاجم ٦٥٪ من الفلاحين وفي بعض قرى الشرق يصل هذا العدد إلى ٩٠٪ والذي يصير هذه الأمراض الثلاثة مرعبة أكثر من خطورتها هو انتشارها ونموها ، وذلك التآمر اللاشعوري ذو النتائج الذي يساهم فيه الفلاحون أنفسهم بعملهم وحياتهم لإدامة الأمراض .

(١) مصلحة الصحة العمومية ، تقارير وملاحظات . الانكستوما والبلهارسيا في مصر ، مطبعة الحكومة القاهرة في سنة ١٩٢٤ ، ١٩٢٦ صفحة مصورة ، وهذا السفر يحتوي على مراجع كاملة عن هذين المرضين ، وهو يبين أضرارهما في قرى مختلفة من مصر والمجهود الذي تحاوله الحكومة لتقليلهما .

وينبغي من ناحية أخرى أن ننوه بذلك القدر اليسير من نتائج الاحتياطات التي تتخذها الحكومة لمحاربتها .

لقد أسست في كل بندر (عواصم المدير يات والمراكز) ضد هذه الأمراض المتوطنة الثلاثة مستشفيات خاصة ولكنها لا تفيد إلا مرضى القرى المجاورة مباشرة ، فالآخرون لا يغادرون قراهم إلا بصعوبة ، وليس في القرى مؤسسات صحية أفيدهبون إلى المركز ؟ وإذا ذهبوا إليه ، فإن طبيب الحكومة وصيدليته الرسمية لن يكفيا . وفي المحادثة الآتية صورة صادقة لهذه الحالة : « قلت ما يردده رجال مصلحة الصحة : ما عذرك والبلاد يحتلها جيش من أطباء الرمد ؟ وفيهم السكوت والمستشفيات تملأ المدن وتقدم إليك العلاج مجاناً وترد إليك بمشيئة الله نور البصر ونور الحياة ؟ فاجاب وهو يتسهم ابتسامته الحزينة : لا طبيب في القرية ؛ وحتى لو وجد فلا طاقة لي بأجره وثمان ما يصف لي من دواء ، أما المستشفيات فلن أستطيع أن أترك أطفالي وزوجتي ، وأين أعيش في بنها ؟ وأنى لي ثمن طعامي واجر مسكني ؟ إنى أفوض أمري إلى الله (١) ولقد قال لنا عمدة من أصدقائنا : « إنه فيما مضى كان حتماً على الفلاح لذهابه إلى المستشفى أن يقطع ثلاث ساعات على الحمار رغم حالته . والآن نحن أنشأنا صيدلية مجانية في القرية نفسها ، والطبيب يأتي إليها أربع مرات في الأسبوع ، وفي أثناء غيابه يستطيع المريض أن يدعوه بالتليفون . وهكذا صار علاجه أسهل من ذي قبل »

إذا كان الفلاحون يستغيثون بالخلاق إلى أن يموتوا من معالجته ، فذلك لأنه هو الطبيب الوحيد الميسور الوصول إليه كما قلنا ذلك عن المرابي بالنسبة إلى المصارف ومن آيات هذا أنه حين تصل المؤسسات الطبية المتنقلة إلى قرية ما ، يسرع كل الفلاحين ليعجلوا ، وهم يدعون في ثقة وبدون تأفف لكل معالجة . وهاك مثلاً مستشفى طحطا المتنقل : استأجرت وزارة الصحة العمومية قطعة أرض لمدة ستة أشهر ثم أقامت

عليها خيام قسم الأوبئة، وهو في مجموعته نظيف، وقبل افتتاحه أعدت له دعاية واسعة في القرى المجاورة وكان الافتتاح رسمياً، وظل طبيب وكيميائي وستة معرضين في خدمة المرضى الذين يعالجون مجاناً، فجعل ثمانون شخصاً يردون إليه في كل يوم منهم خمسة وعشرون مصابون بالانكلستوما، وثلاثة فقط بالبهارسيا، ولكننا في مصر العليا.

ومع ذلك فهذا المجهود القيم من وزارة الصحة يتلاشى في ضخامة الحاجة، وذلك فضلاً عن أن عادة الفلاح تقف مفعولة في أغلب الأحيان. لهذا السبب لا تقلت الأمراض القرويين. ولو أنهم - إلى أن تحسن الحال - كانوا يلاحظون النصائح والوصفات التي تقدم إليهم بإسراف! ونحن نحيب بأنهم: لو أرادوا ذلك لما استطاعوه، لأن حالة حياتهم الوقتية تعارضه بكل الوسائل. وهنا توجد كل المشكلة

٤ - ما يشربون وما يأكلون

إن مشكلة الماء هي في المحل الأول، ولكن لا تحت مظهر رى الأرض، فقد درس ذلك بطرق عدة، وإنما تحت مظهر غذاء الإنسان الذي هو أكثر حيوية. مصر بلد حار، وعمل الفلاح يجعله يتصبب عرقاً، فيكون في حاجة أكثر من غيره إلى أن يروى غلته.

أي ماء يشربه الفلاحون؟ أماء البئر (الارتوازي)؟ حينما يثبت مالك العزبة مضخة (طلمبة) أم ماء النيل الحمى وان كان جارياً؟ وذلك في القرى التي يمر بها النهر. ولكنهم في أغلب الأحيان يشربون ماء قناة الري المتعطن الرائحة هناك حيث تستحم وتقبل الماشية والأناسى وحيث تغسل الخضرو الأواني والملابس، وهناك حيث تلقى جثث الحيوانات تذهب النساء ليغترفن الماء «الصالح» فيحضرنه في جرارهن وصباً تمجن في الساعة

المعينة ليملائن (الزير) وهو جرة كبيرة مسندة إلى حائط المنزل . في كل مساء تحضر الفلاحة جوالى ثلاثين لتراً لاستهلاك اليوم التالى وتضيف هذا الماء إلى ما يبقى دون أن ينفذ أو ينظف القاع ، ويسكن الماء طول الليل فيصفو قليلاً بوساطة الرسوب . ويبرد أيضاً بوساطة التهوية من خلال مسام الفخار ، أما القطرات التى تنفذ بوساطة الترشيح والتى يمكن أن تملأ (القلة) بماء جد نقى لشرب الصباح ، فهى تضيع على هيئة بركة أو تستعمل لشرب الدجاج .

ومع ذلك فالحكومة تدرس فى نشاط مسألة تعميم الماء الصالح فى القرى ، والمشروعات تتكدر ! .

قد أضاف الإنسان لذته فى كل زمان إلى الماء بعض المشروبات ولم يشذ الفلاح عن هذه القاعدة . هو لا يشرب النبيذ ، لأن دينه يحرمه عليه ، وثروته لا تسمح له به ، ورأسه لا يكاد يحتمله .

لا يستهلك الفلاح مقداراً كبيراً من البن الذى جلبه إلى مصر صوفية اليمن فى نهاية القرن الخامس عشر ، هو يستعمله أقل من سكان القاهرة كثيراً ، ومع ذلك فحين يذهب إلى السوق يتذوق ممتناً فنجلاً صغيراً أثناء لعبه النرد مع رفاقه (١)

إن الاستعمال المفرط للشاي منذ الحرب العظمى - وتلك بدعة مرت من طرابلس - قد حل محل استعمال القهوة ، وهوليس منتشرأ فى اجتماعات الرجال فحسب ، بل فى صميم الأسر القروية

إنها قد تعودت على أن تشربه عدة مرات فى اليوم وبكمية كبيرة : أطفال ومراهقون ، رجال ونساء ، كلهم يلزم له الشاي . وبعض الفلاحين يحملون معهم

(١) فى سنة ١٩٣٥ استوردت مصر ٧٨٨٨ طنّاً من البن الأخضر من جاوا ، وسانتوس واليمن ..

(بكارجهم) إلى الحقول . وأشد هم فقراً ينفق على الأقل ثلاثين قرشاً في الشهر ثمناً للشاي والسكر الضروري له . وحينما لا يكون لديهم نقود لشراؤه يتمددون على الأرض ولا يستطيعون عمل شيء . « لقد سألت في إحدى القرى : لماذا لا يرى المرء المواشي وهي ثروة القرويين ؟ فأجابني المسئولون بأنها لم تعد موجودة ، إذ أنها قد بيعت واشترى بتمهاشاي ، فالشاي قد صار ضروريا كالخبز » . هذا هو تصريح لمولاي خزام أسقف طيبا .

يغلى الشاي حتى يسود لونه فيحصل منه على مغلى قوى سميك غنى بـ (التانين) وبالقلويات يحدث مع طول الزمن اضطراباً في المعدة وفي الجهاز العصبي ويضعف التكوين العام ، ويترك في الخلق أثراً سيئاً ، ولكن هذا قليل الأهمية مادام أنه يسلى وينسى . إن الشاي الأسود قد أضحى مذهل الفلاح ، وفي بضع سنين صارت الواردات منه ثلاثة أضعاف ما كانت عليه ^(١) وكذلك صيرت الحكومة رسوم الدخول ثلاثة أضعافها حيث رفعتها من قرشين ونصف القرش إلى سبعة قروش ثم إلى ثمانية قروش ونصف عن كل كيلو ، لكي تصير الشاي متعذراً من الناحية المالية ، ولكن الشر لم يقل ، لأن من تعود عليه يستغني عن الأكل ويلجئ أسرته إلى الجوع بدلا من أن يتخلى عنه . وعلى الضد من ذلك لم يزد رفع الجرك على أنه صير خطي خراب الفلاح وتدهور صحته أسرع من ذى قبل .

من نشارة الخشب وقشر الفول وأوراق (الملخية) وأشجار الحور اليابسة ، ومن الشاي المستعمل الذي يجمع من الفنادق والمقاهي والبواخر ، من كل ذلك ملونا ومحصا يصنع التجار شايًا مزيفاً يبيعونه للفلاح التعس حينما لا يستطيعون جلبه بواسطة التهريب

(١) ٧٨٨٣ طنا من الشاي قيمتها ٨٣١٢٣٤ جنيه استوردت من الهند وسيلان في

نحن نعتقد - مهما بيد ذلك ناييا عن المنطق - أنه يوجد اتصال بين نمو هذه الرغبة الحادة في التسمم وانتشار مشروع الري ، ففي الواقع أنه ثبت أن هذا الاختراع الذي ضاعف ثروة مصر قد هيا الجو للبهارسيا والإينكاستوما وغاهما . ولما أضعف هذان المرضان الفلاح وقللا من كفايته للعمل ، فقد لجأ إلى المنبه الذي تحت يده . وبما أن الرجال هم أكثر إصابة من النساء بسبب حياتهم في الحما والماء ، فهم كذلك أكثر استهلاكا للشاي « الأسود » (١)

أما التبغ الذي عود على الجو المصرى في مبدأ القرن السابع عشر فلم تعد زراعته مستطاعة منذ الأمر الصادر في ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٠ وهو يستورد من إغريقيا وتركيا واليابان ويحضر هنا (٢) . وهو يكلف الفلاح ثمنا باهظا ، وهو كالتبغوة استعماله أكثر إلفة بين شعب المدن .

بوجه عام يأكل الفلاحون ثلاث مرات في اليوم : عند شروق الشمس قبل الذهاب إلى العمل (فطور) . وعند الساعة العاشرة (٣) في الحقل (غداء) ، وعند الشفق في منازلهم (عشاء) . هم يأكلون جاثين (والفلاح دائما يجلس على الأرض) وبأيديهم . ويتناول العمال في العموم غذاءهم في الهواء الطلق ومع الجماعة ، فيجلس كل واحد منهم أمام صحيفة من الصباح أو من الفخار أحضرته له زوجته ، و (قلة) الماء تمر من فم إلى فم .

(١) أنظر التقرير السنوى عن سنة ١٩٣٨ للمكتب المركزى للبخدرات ومع ذلك ففي دراسة فنية ظهرت في مجلة المسائل الاجتماعية (يولية سنة ١٩٤٠ من صفحة ٩٤ إلى صفحة ١٠٦) تحت عنوان « هل الشاي الأسود مضر بالصحة والاقتصاد الريفيين ؟ » يعتقد الكاتب المجهول أنه يستطيع الإجابة بالسلب .

(٢) لأن اللغافات المصرية الشهيرة مصنوعة من تبغ مستورد إذ قد أريد تجنب خطر الحشيش مع ارضاء تركيا .

(٣) إن الذى نعرفه هو أن الفلاحين يتناولون طعام الغداء بعد الساعة الثانية عشرة لا في الساعة العاشرة . « المترجم »

والوجبة الأساسية هي وجبة المساء حيث تطبخ الاطعمة وتؤكل حارة مع لاسرة، والطعام يطهى بالزيت ^(١) على (وابور) أو في فرن المنزل بوقود من أرواث البقر المختلطة بالقش (الجلة).

ولما كان الفلاحون لا يربون الحيوانات، وكان اللحم غالياً نوعاً، فإنهم قليلو أكل اللحوم بحكم الضرورة. هم يأكلون الضأن والبقر على الأكثر مرة في الأسبوع وعلى الأقل في العيدين: الأصغر والأكبر أو حين يذبح حيوان بحادثة. وإذا ذك تكون وليمة يزدرد فيها كل واحد قطعاً ضخمة. وأشدّهم فقراً - لكي يشبعوا على هذا النحو مجاناً - يترقبون أن يذبح ثرى بسبب نذر أو حداد ثوراً أو جاموسة ويوزع لحمها.

وإذا كانوا من أهل شواطئ النيل أو القنوات الكبرى أو البحيرات، فإنهم يصطادون الباجية أسماكاً صغيرة يعدونها بالزيت، ولكن مجموعة طعامهم عادة خالية من اللحوم، وهي: بصل ولفت وفلفل وخيار، ويؤكل نيئاً. والخضر المطبوخة هي الباميا والملخية ^(٢) والفلاحون فيهما جدش رهين، والفاول وهو طعام وطني، والدباء، وأخيراً العدس والأرز اللذان يخلطان بنسبة الثلث والثلثين (كشري) وهو أكثر تحضيرهم تعقداً.

(١) الطهى بالزيت مألوف لدى الاسر القبطية، أما المسلمون فلا يستعملون الزيت إلا لقليل السمك وماشما كله «الترجم».

(٢) هما مادتان لزجتان، فالباميا التي تدعى في فرنسية مصر بـ «القرن الاغريقى»، تحمّل الاسم العلمى: «hibis cus esculentus» والاسم الاسباني «gombo» والاسم الانجليزى «Okra». وقد وصف ابو العباس النبائى الذى زار مصر فى سنة ١٢١٦ بوضوح الباميا التى تؤكل مطبوخة فى الماء المالح (راجع و. بوا)، والنبات الغذائى لدى جميع الشعوب ومن خلال العصور، وهو ٥٩٣ صفحة اوشفالييه، باريس سنة ١٩٢٧). كان المصريون القدماء يأكلون من هذا الخضار وكذلك الملخية: «torchorus olitorius». راجع «هارتمان»، الزراعة فى مصر القديمة، ص ٦٣.

وفي موضع الحلوى ، أى حينما تتاح لهم الفرصة يأكلون تمرًا أو يقضمون بكل أسنانهم قطعة من البطيخ ، أو يمضون عوداً من القصب ، أو يقرضون (كوزاً) من الذرة الشامية .

تحدث الأمكنة والفصول بعض التغيرات . . . متتابعة لاجتماعها . فالطعام العادى هولون واحد يضاف اليه غالباً قطعة من المش ، وهو جنين حامض مصنوع من لبن الجاموس أو المعز ، ومحفوظ فى الماء المالح ، ويستهلك فى مصر من أقصاها إلى أدناها .

وأدم الفلاحين هو ملح دمياط الخام ، والعسل الأسود المصنوع من طبخ عصير القصب ، لأن الفلاح يستعمل فى الطعام العادى قليلاً من الملح والسكر المكررين وفى يوم العرس أو الختان أو المولد يشترى أنواعاً من الحلوى الخشنة وتلك الملابس الصغيرة (الأرواح) الحمراء والخضراء التى يحبونها هم وأطفالهم إلى الجنون ، ولكن أساس طعام الفلاح ينحصر فى خبز الذرة (البتاو) الذى هو فيما يتعلق بالحرارة يمثل ٨٠٪ مما تقدمه مجموعة أغذيته ، ونصف « البروتين » الموجود فى طعامه ، والشاب يأكل منه كيلو ونصف فى اليوم . ألفى الاختصاصيون بالإحصاء أن هذا « الخبز الكامل » يحتوى من (المغيزيا) على ستة أضعاف ما يحتوى عليه خبز حوانيتنا

(MgO 1,988 , Ca O 0,284 , K2 O 2,886.)

لاتدق حبوب الذرة فى الهاون كما يدق الدخن فى أفريقيا السوداء ، ولكنها تطحن على نحو ما يحدث فى كل الشرق الأدنى بين حجرين (١) ، وتلك هى الرحا البدائية التى توجد أيضاً فى المغرب ، وهى مكونة من أسطوانتين فى عرض ٥٠ سم ، وسمك ٥ سم والتى تلامس الأرض منهما ثابتة فى حين أن العليا تدور حول محور ، وفى وسطها ثقب يوضع منه الحب المراد طحنه . وهناك يد من الخشب مثبتة رأسياً عند

(١) كان الطحن على الرحا شائعاً فيما مضى . أما الآن فقد حلت محلها المطاحن البخارية المنتشرة حتى فى أقاصى القرى ولا توجد الرحا القديمة الا عند الرحل من البدو « المترجم »

حافة الطاحون المتحركة ، وهي تستخدم لإدارتها . وهذه العملية كجميع عمليات الخبز تقوم بها النساء . يعجن الدقيق المضاف إليه قليل من الحلبة والدخن والقمح ، أو الفول ، ويوضع فوق قطعة من الخشب على صورة قرص مستدير رقيق ، قطره ٣٠ سم تقريباً وهذا العجين المنضج في فرن المنزل ينتج منه خبز أسمر ذو طبقتين بدون لباب ، وله طعم شهى . لا يوجد خبازون عموميون ، ولكن كل أسرة تعد خبزها مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع . وفي مصر العليا خبز الفلاح أصغر (١٢ سم تقريباً) وهو أسمك . وقد قال لنا أحد العمال من جهة أرمنت : انه يأكل منه حوالى عشرة أرغفة في اليوم .

إن الخبز الذى يصنعه الفلاح من الذرة التى زرعها ، والخضر التى استبتها في أطراف حقله أو التى اشترتها زوجته من السوق ، وهى أقل جودة ، والجبن أحياناً عندما يكون لبن الجاموسة قد بيع كله ، وبالأجمال إن المنتجات الأكثر اقتصاداً في الجهة التى يوجد فيها هى التى تؤلف الغذاء العادى له ، وهذا كله يجعل طعامه غير متغير وغير مستفيض ، ولكن هل هو من أجل هذا يأكل أقل مما ينبغي . يقال ذلك ويعاد . ويرى المسيو « شرومف - بيرون » على العكس أن في المنتجات التى تؤلف غذاء الفلاح ، بل في الماء الذى يشربه الرقمة العادى للمعدنيات .^(١) ويبدو أن عمل الفلاح وصحته ومقاومته البدنية تؤكد هذا الرأى . على حين أن انتشار « البلاجر » والنسبة العالية جداً في رفض الشباب لعدم صلاحيتهم للجندية (وقد قيل : إنها ٨٠ ٪) يبدو أنهما يثبتان عدم كفاية التغذية . وهكذا اذا كانت الأرض السوداء التى تحتضن الفلاح مثل لسان « ايزوب » - أى أحسن الأشياء وأسوأها - تعطيه القوة والمرضى : فما تحتويه الأرض من المعادن والنباتات الغذائية التى تنبت

(١) الأستاذ « شرومف - بيرون » محتويات غذاء الفلاح من المعادن ، مجلة معهد

فيها تقوى الأناس الذين يستهلكونها ، والعفونات الجرثومية الموجودة في الأرض
المبتلة وفي الطفيليات التي تتناسل بكثرة تضعف الأناس الذين يعيشون فوق هذه
الأرض ويستعملون ذلك الماء .

وهكذا يتكون في الجسم بهذه الحركة الطبيعية المزدوجة توازن عملي يخلق من
الارومة القروية جنساً متيناً كما يلاحظ ذلك رغم كل شيء . ولهذا نحن نرى أن عدم
التدبير الصحي والمرض ونسبة الوفاة ، وبالاختصار هذه البأساء الجسمية التي وصفناها
والتي سنراها أكثر من ذلك أيضاً في سكنى الفلاح ليست هي أكبر تعاساته .

الفصل السادس

القرية والجماعة الريفية

من المستحسن أن يذكر المرء دائماً الفلاح بصيغة الجمع ، لأنه يعيش عادة في جماعة بل في جمهور ، ففي الحقل إذا كان شريكاً أو مستأجراً أو مالكا هو يعمل مع زوجته وأولاده ، وإذا كان أجيراً فإنه يشتغل في شراكة من رفاقه غارزين بغزوهم أو بأذنين بإشارات متصاحبة .

وفي داخل هذا العالم المغلق الصفيق الذي تمثله له قريته هو يعمل في الهواء الطلق وأمام العموم أكثر مما يعمل سرّاً في منزله . فالنساء يذهبن جماعات لاغتراف الماء والأطفال يتلهون متزاحمين . والوجود اليومي هو جماعي واشترائي ، ولكن لفهم الجماعة القروية جيداً ينبغي أن تعرف القرية .

إذا رأى المرء القرية من الخارج في وسط الحقول أو إلى جانب الصخور الصحراوية البيضاء الفاها كومة طينية جاثية على الأرض ، كثيفة مشوشة متوجة بحزم . وهناك بضعة مبان أكثر أهمية مبيضة بالجبص (أبراج الحمام ومنازل الأعيان) تفصل من هذه الكثرة من الخطوط المنكسرة . وهناك أيضاً نخل أو سنط أو جيز أو لبخ يشرف على تلك المجموعة ويربطها ويخفي دمامتها . وهذه الباقات من الأشجار المجتمعة أو المنتثرة والتي هي في أطراف القرى أو في أوساطها تحدث تحت نور مصر تأثيرات فخمة . وقد خصص المسيو « برون » صفحة من « جيوغرافيته الإنسانية » (ص ١٥٠) لرسم هذه اللوحة . ونحن لا تتبعه . إذ نريد - خلال هذه الشاشة السحرية التي يتوقف عندها المرء غالباً - أن نلم بالحياة الواقعية .

ولما كانت القرية سابقة على تنظيم النهر، فهي لا تسير شاطئه بالضبط، وإنما هي تحتوى منه على بعد يتراوح بين مائة مترو كيلومتر، وهي تمتد على حافة الوادى عند حدود الصحراء (وذلك فى مصر العليا) أو تنكمش فوق كوم^(١)، أو تل وهو خرائب قرية قديمة، أو تل صناعى أو مرتفع من الجسر، وفى الجهات التى لم يعد الفيضان يخشى فيها تؤنس القرية فى الزراعة وعلى مستواها. ولهذا تكون قليلة الظهور، ولكنها دائماً مضغوطة.

القرية قائمة فى أى موضع كان، وقد سلب قرب الماء ووحدة مستوى الأرض وتشابه طبيعتها الجيوغرافى كل إيضاح من شأنه تحديدها. وقد يكون لدى التاريخ فى هذا كلمته الحاسمة، ولكن منذ الذى سيعرف يوماً ماضى هذه الأربعة آلاف قرية المنتثرة طولاً وعرضاً فى وادى النيل.

ومع ذلك فمن الممكن شرح انضغاطها بأنه قد اريد الا يضحى إيهام من الأرض وبالأولى إذا كانت أكثر خصوبة وأسهل رياً. وإذا، فلكى ينزع أقل قدر ممكن من سطوح الأراضى المنتجة فإنه يضيق إلى أقصى حد موضع السكنى الذى لا ينتج شيئاً.

كانت الأرض والقرويون إلى القرن التاسع عشر كما رأينا ملكاً للحكومة ولبعض كبار الملاك ولم يكن للفلاحين أية فائدة فى أن يعيشوا فى دساكر منعزلة، وفوق هذا وفى ذلك العصر المضطرب كان العرب الناهبون وقطاع الطرق الكبرى يسلبونهم فى سرعة مألدهم.

ومن ناحية أخرى، فلما كانت القرية - فيما يتعلق بالضرائب والتجنيد

(١) فى مصر مائة وعشرون قرية تحمل كل منها اسماً مسبقاً بكلمة (كوم)

والتحقيقات وسجل الأملاك - هي ممثلة الوحدة المسؤولة في نظر السلطة ، فقد كان يجب على القرويين أن يقيموا فيها . ولهذه الأسباب لم تكن الحكومة تسمح لهم بالثواء خارج البلد ولا يزال ذلك معمولاً به إلى اليوم .

إلى تلك الأسباب القديمة المدعمة بالعادات ينبغي أن يضاف نمو عدد الأهلين وارتفاع ثمن الأرض ، وتقص الأمكنة إذ أن سجل سنة ١٩٠٧ قد حدد نهائياً موضع كل قرية .

تلك القرى ذوات البضع المئات أو البضعة الآلاف - وذوات الخمسة عشر ألفاً ليست نادرة - تلوح عليها جميعها ملامح أسرة واحدة ، أسرة كبيرة العدد ، ففي الواقع لا شيء يشبه القرية المصرية أكثر من قرية مصرية أخرى . وهنا أيضاً نجد الوحدة وتماثل الأنساق التي لوحظت عدة مرات .

يستطيع المرء أن يميز قرى مصر العليا عن قرى مصر السفلى كما يميز فلاح هذه الجهة أو تلك ، ولكن التشابه هنا أكثر لفتاً للنظر . خذ صوراً لقرى مختلفة واسأل شيخاً مصرية : هل هي من الصعيد أو من الدلتا . فإنه سينخدع في أغلب الأحيان ذلك لأن نفس النوع من السكان ونفس اللون من الحياة هما اللذان يؤلفان عين القرى ، وهما اللذان يمنحان ذات المظهر للمواقع التي يشغلانها من أطراف عاصمة المديرية كالمينيا مثلاً .

يمكن تمييز البلاد بدرجات الأهمية ، فعوامم المراكز ومقار الأسواق ، ومحطات الأولياء هي بلاد ضخمة ، بل مدن صغيرة بها أكثر من غيرها تجارة وحركة ومؤسسات ، (مصارف ومحكمة وقسم بوليس ومحطة) ولكن أحياء الفلاح منها لا تتم عن حضارة ولا عن رفنية أكثر من القرى الصغيرة ، والدساكر وهي أجزاء منفصلة ، ولكنها تابعة كعزب كبار الملاك ، وكالنجوع القائمة على هوامش الزراعة

والتي هي تعين ثواء البدو ، تشف عن نموذج أكثر تواضعاً .

وهنا أو هناك لا يكاد مستوى الحياة يتغير ، ودراسة قرية متوسطة تقتاد الى معرفة جميع القرى الأخرى .

لنأخذ بلدًا ما ، وليكن س مثلاً ، وهي قرية كاملة ولننظر قبل أن نتغلغل فيها ما يوضح من الخارج حياتها العامة ، ولنقترب من « ضواحيها »

لقد قيل إن الكنيسة هي التي تخلع على القرية الفرنسية منظرها . وكذلك في مصر يعتبر المسجد أو الكنيسة القبطية هما المؤسسات الأحسن بناءً والأعظم رحوبةً ، ولكن هندستهما لا تدلان على شيء جدير بالملاحظة وهما حتى مع المئذنة والناقوس لا يميزان القرية لأنهما لا يخرججان من الفاقة ولا من العامية المحدقتين بهما .

يسيطر دين الاسلام على خمسة وتسعين في المائة من الفلاحين ، والأقباط حوالي مليون تقريباً ، منهم أربعون ألفاً كاثوليك وهم يعيشون مختلطين بالمسلمين في نفس القرى ، كل يعمل بعقيدته :

يلاحظ الفلاحون المسلمون بقدر المستطاع - وهنا لا تعتبر النساء ولا الأطفال -
أركان الاسلام الخمسة التي هي : -

(١) الاعتقاد بالله وحده .

(٢) الصلاة .

(٣) الصوم .

(٤) الزكاة .

(٥) الحج .

هم مع جهلهم يعرفون ذلك على الأقل

وستحدث فيما بعد عن اعتقادهم بالله .

أما الصلاة فهم يقومون بطقوسها بعد الوضوء مساء^(١) ، و يوم الجمعة مرات عديدة وإذ ذاك يدعون الحقول للنساء والأطفال ويلبون دعوة المؤذن فيتجهون إلى المسجد أو إلى الموضع الذى يحل محله ، وهو مربع من أرض مستوية محوطة بحائط ارتفاعه حوالى ثلاثين سنتيمترا على شاطئ الماء . وهناك يصلون جماعة أو على الأقل يصورون هيكل حركات الصلاة . هم يستمعون جاثين على الأرض أو على الحصير إلى المأذون^(٢) الذى يقرأ لهم سورة من القرآن .

وأما الأقباط ، فهم يحضرون يوم الأحد القداس القبطى الطويل ، ولكن الجماعة هنا أكثر أسرية فالنساء والأطفال يشهدون الصلاة والناشيد .

لا يفهم المسلمون^(٣) عربية القرآن الأدبية ، ولم يعد الأقباط يفهمون اللغة القبطية ، ولغة الجميع فى مصر من أقصاها إلى أدناها هى العربية المدعوة بالعامية ، وهى لهجة مختلفة عن لهجتى سوريا والمغرب بقسط عظيم من مفرداتها . ليس فى مصر نفسها لهجات محلية خاصة لهذا الاقليم أو لذلك ، ولكن هناك عدداً ضخماً من التعبيرات والكلمات المختلفة ، وفى الجنوب نطق حلقى يبنى بالصعيدية ، والثقافات تنطق جيمات .

(١) ليست صلاة المسلمين فى المساء فقط وانما هى خمس صلوات فى اليوم فى أوقات معينة ولا يمتاز يوم الجمعة عن غيره من الايام الا بصلاة ظهره الخاصة مع الجماعة .
« المترجم »

(٢) المأذون هو الذى يقوم باجراء عقود الزواج بين المسلمين ولما كنهه فى كثير من القرى يؤدى وظيفة الامام فى الصلوات .
« المترجم »

(٣) لا ريب فى ان المؤلف يقصد عوام المسلمين « المترجم »

الصوم : يؤدي الفلاحون المسلمون صيام رمضان بلا هوادة كما يؤدي الأقباط الصيام الكبير . فعند أولئك هو شهر حرمان كامل منذ الفجر إلى غروب الشمس ، وعند هؤلاء أكثر من مائتي يوم في السنة حرمان من كل طعام من منتصف الليل إلى الظهر .

والزكاة : أيضاً لا ينفلت منها الفلاحون ، فهم يقومون بها في حدود ثرواتهم بدون شح . هم لا يتصدقون بمال ، ولكن بأعيان طبيعية : هبات للعيان وخدمة العبادات ، ومن هم أشد منهم فقراً ، وهذا فضلاً عن الهدايا الفريضة أو الاضطرارية . أما الذهاب إلى مكة ، فلا يزاوله إلا النادر من الفلاحين ، وذلك في حفلات بطولية ^(١) . وعند عودة الحاج السعيد بعد غياب ستة أشهر أو ثمانية ^(٢) يحتفل به كأنه بعث بعد موت ، وهو يحمل إلى قريته بركة الأئمة كن المقدسة . ومفخرته التقيمة تميزه من بين الجميع ، وأبنائه يستفيدون من مجده ، ولا يعود الناس يدعونه من الآن فصاعداً إلا بالحاج فلان ويسجل حجه على منزله ، إذ هو يبيض واجهته بالخص ويرسم عليها صوراً ساذجة لرجال أو عربات أو بواخر مصحوبة باسمه وبتاريخ حجه . وعلى هذا النحو نفسه يصنع الفلاح القبطي عند عودته من أو شليم ، وإذ ذاك يدعى بالمقدس .

والموضع الآخر أكثر زيارة شعبية من المسجد ، لأنه لا تميز فيه السن ولا الجنس هو : ضريح « القديس » حامى القرية الذى يدعونه بالولى أو الشيخ أوسيدى فلان .

(١) يريد الإشارة إلى حفلات الابتهاج التى تسبق رحيل الحاج إلى الاراضى المقدسة « المترجم »

(٢) كانت مدة الحج تستغرق عدة شهور قبل إعداد المواصلات الحديثة أما الآن فهى لا تكاد تستغرق شهراً بل أياماً إذا اراد الحاج ذلك « المترجم »

يقام الضريح خارج القرية في ظل أشجار هي مبجلة ، وأحياناً بالقرب من بئر أو قناة ، وهو على صورة مكعب ذي خمسة أمتار في خمسة مسقوف بقبة ، والكل مبيض بالجنس .

ليس جسم الولي دائماً في داخل الضريح ، وإنما يوجد فيه فقط قبر خال للذكرى ، وخصوص ، وشموع ، وقطع من قماش ، وخصل شعر ، وكمية من طلائع الثمار كندور . والرجل الذي يعنى بالضريح تكفله الجماعة أو يعيش من دخل مؤسسة (وقف) وأحياناً تكون وظيفته وراثية .

إن يوم المولد السنوى للولي هو عيد كبير للقرية يذهب فيه جميع السكان الى المكان المقدس ويقومون فيه بالطقوس التقليدية من : رقص ودوران حول الضريح وتعاوينه وهلم جرا .

هناك وعلى بعد كاف من مدينة الاحياء توجد مدينة الاموات . تقوم المقبرة في أرض قاحلة أى على خرائب (تل أو كوم) لقرى مهجورة أو فوق حافة الصحراء الى جانب الصخور في وسط الرمال .

للوصول الى المقبرة ينبغي أحياناً اجتياز النيل كما في المنيا ، وتتألف قرية الموتى من قبور فردية مضغوطة بعضها الى جانب بعض ، وهي مستطيلات مبنية ومخفوجة بـ (الاسمنت) ، وفوقها عمودان ، أحدهما عند الرأس وثانيهما عند القدم أو أكمة بسيطة مميزة بحجرين أو بغصنين من سعف النخل يفرسان مستقيمين ويجددان في كل عام أو طبقة من الاحجار البيضاء منشورة فوق التراب الذي ردمت به الحفرة ، وليست هناك نقوش ولا زهور ، ولكن كل أسرة تعرف مكان موتاهم وتأتى اليه في اليوم الاول من العيد الاكبر ^(١) حيث ينتقل كل القرويين الى المقبرة ، لكي يعظموا فيها

(١) ليست زيارة القبور قاصرة على العيد الاكبر بل هي مألوقة كذلك في العيد الاصغر . « المترجم »

موتاهم ويأكلوا ويستمتعون فوق قبورهم . وفي ذلك اليوم تبدو القرية كأنها مهجورة على نحو ما يحدث في أكتوبر عندما يرتحل الجميع لجنى القطن ، ولكن لتتوقف أيضاً عن الدخول .

في اللوحات الفنية المرسومة للقرى المصرية تشاهد باقة الاشجار وحلة المنازل الرمادية وهي تترأى في مرآة أحد الغدران ، ولكن هذا الغدير في الواقع هو مستنقع أخضر اللون خارج عن المألوف بقدر ما هو ضار . وكل القرى تقريباً مبهورة بمشله ، ويمكن أن يقال : ان الضرورة هي التي دعت اليه . فلبناء المنازل ، ولصنع الطوب ، ولتحويل أحد تيارات المياه ، أو لتقوية أحد جسور السكة الحديدية ، أو احد حواجز الماء تؤخذ المواد من مواضعها أى من أقرب أرض ، وهكذا تخلق وتنفجر وتنمو ثم تمتلئ ماء تلك المستنقعات الواسعة (البرك) التي تستخدم مساقى للحيوانات وحمامات للاطفال ، وأحياناً آباراً للمنازل يغترف منها النساء

ردمت الحكومة نحو خمسين من هذه المساوى للأمراض ، ولكن لا بدون أن تلقي أية مقاومة من جانب الفلاحين^(١) الذين تلغى بهذا العمل عاداتهم . ولقد تطلب ردم ثمانية عشر من هذه المستنقعات اكثر من عشرة آلاف متر مكعب من الارض

على مقربة من المستنقع وخارج القرية دائماً يمتد البيدر الذى تجفف فيه الحبوب وتدرس (الجرن) وهو موضع مغطى بأرواث البقر والتراب على مستوى واحد ومقسم الى مربعات متراصة ، ومساحته تلتئم مع عدد الأسر التي تستعمله ، و (الجرن) هو من المنافع العامة فلا يستطيع أحد أن يدعى ملكيته ، على أنه متسع بالقدر الكافى لأن يذرى كل فريق مؤلف من عشر شراديم حيوبه فى دوره وهو يستعمل أيضاً

(١) يسرنا أن نشاهد ان مقاومة مثل هذه الاصلاحات قد بدأت تقل بفضل

كيدان عام وموضع للاجتماع ، ولكن في أغلب الأحيان تضم إليه هذه الغاية أرض خالية ، وعلى مد البصر بعد ذلك يلمح المرء كومة مكونة من القمامة وجثث الحيوانات . ولقد كان من الممكن أن تفوق تلك الكومة المنازل في الارتفاع لولا أن الكلاب والحدأ تأتي بنظام لا تقاصها ، وأن الفلاح يأتي إليها لينقب فيها عن السماد ، وكانت تصبر أكثر خطراً على الصحة العامة من المستنقعات لولا أن الشمس تطهرها .

في خارج القرية أيضاً - ولا سيما في الفيوم وفي مصر الوسطى - تنتصب الى ارتفاع عشرة أمتار أبراج مربعة وبها خطوط بيضاء وسوداء ، وأسسها القوية (٧ م x ٧ م) تحلج عليها مظاهر الحصون ، ولكنها ليست سوى أبراج للحمام (١) ويلمح المرء ذلك عند غروب الشمس حينما يكون كل واحد منها محاطاً بسحابة مكونة من خمسة عشر أو عشرين ألف حمامة آوية إلى مسكنها بعد أن طعمت ناقة في الزراعة .

ولما كان بناء هذه « المنازل » يتطلب ثروة كبيرة إلى حد ما (من مائتين إلى ثلثمائة جنيه) ويدأ عاملة متخصصة ، فإنه يتجاوز وسائل فلاحينا ، ولا يمكن أن يقوم به إلا العمدة أو بعض كبار الملاك . وفي الجنوب يبنى البرج على زاوية من المنزل ، وهذا يجعل شبح القرية أكثر ارتفاعاً ، ولكن تلك المنازل ذوات الأبراج المتصلة أو المستقلة في العموم لا تختلط بالقرية ، وإنما هي تقوم على مسافة منها وتتماز بطوابقها العليا وبواجهاتها الشاحخة وحدائقها ، وهي في الضيعة (العزبة) منزل المالك ، وفي البلد المأهول منزل أحد الأعيان أو أحد التجار الأثرياء .

(١) الميسو جان برون في جيوغرافيته الانسانية ، وهو أول من أشار إلى خصائص المساكن القروية في مصر (مجلد (١) ص ١٢٧ - ١٣٤ و ص ١٤٥ - ١٥١) قد اهتم بهذه الأبراج وقدم لها عدة صور . وبعده درس الميسو هوج المباني المبتكرة في (الأبراج كأحد متمات القرية) . (ص ١٥١ - ١٥٥ المساكن القروية) .

وعلى مقربة من ذلك ، وفي موضع سهل الوصول في واجهة الحقل توجد (الشونة) وهي المستودع أو مخزن الحبوب ، والمكتب ومساكن العمال والمدرسة الالزامية .

لندخل القرية ، في زاوية نظيفة ميسورة الوصول معنى بها أكثر من جميع المنازل تقوم أحياناً المضيضة ، وهي حجرتان أو ثلاث حجر يعنى بها العمدة ، وتستعمل فندقاً للمسافرين والموظفين والعابرين . وتلك هذه البناية مصلحة الرى أو وزارة الداخلية . وتوجد مضيضة رسمية في كل أربع مائة قرية تقريباً .

لم يعد باقياً أمامنا إلا أن نتغلغل في قلب البلد نفسه ، فما رأيناه إلى هنا لا يحمل على التكهن به . إنه مقر سيادة الهمجية والتراب . لا يوجد فيه أى منهج ولا أى خط مستقيم ولا أية مدنية ، والصلة الوحيدة العامة بينه وبين المدن المزدهجة هي الانضغاط الناشئ من الاقتصاد في الأرض ، فالدروب المنتشرة فيها الأبرزة والارواث وقطع القش ضيقة إلى حد أن ثلاثة رجال لا يمرون فيها مجتمعين ، إذ لا يبلغ اتساعها مترين ولا يمكن السير فيها بسيارة ، بل ولا بحمار ، ومع ذلك ففي بعض الأماكن التي فيها الحركة أكثر نشاطاً ، والاختناق أقل ، أى على مقربة من بيت العمدة مثلاً أو من المدرسة أو من الحى التجارى تتكدس بالضرورة حوانيت : الخياط والبقال وصانع الفخار والنساج والمقهى . . . حينما تكون القرية مهمة . نحن نعرف قرى لا يوجد فيها حوانيت ، وبالتالي يكون من غير الممكن فيها شراء أى شئ ، إلى أن يمر التاجر المتقل ، وقرى لا يزال نظام التبادل مستعملاً فيها : حبوب في مقابل ملح مثلاً .

لا يشق القرية طريق كبير كما في فرانسا ، وإنما هي تنكمش في نفسها مبتعدة عن الطريق أو عن القناة أو عن النيل ، ولا يتغلغل المرء فيها بركبة ، وهذا هو السبب في أن الأجانب ، فيما عدا المرسلين ، والأثرياء الوطنيين ، فيما خلا العمدة والصراف لا يعرفون حياتها الداخلية . ولكي نفهمها ينبغي أن تقدم بدياً أولئك الذين يقومون فيها بدور أساسى .

نحن نعرف من قبل العمدة والصراف اللذين يربطان الفلاح بالحكومة ، والناظر الذى يربطه بالمالك . وهناك شخص آخر يصله قليلا بالعالم المتمدين ، وهو البقال الذى هو غالباً إغريقى والذى يشغل الوظائف النافعة ، إذ يقوم بمهمات : البقال والصيدلى والقهاء والطاعم والمقرض وأمين الودائع . إنه أكثر الأوروبيين تمصراً ، إذ هو لا يجد غضاضة فى أن يعيش فى وسط القرية وبين الفلاحين إن لم يعيش مثلهم ، وبفضلهم إن لم يكن لأجلهم . انه قد جلب إلى هذا العالم المقفل : الفونوغراف وألعاب الغرب . هو يسرق الفلاحين ويعلمهم استعمال المخدرات ، ولكن بكرم خلق وحسن صنيع ، بمعنى أنه - ولو يقرض بربا فاحش - يفعل ذلك حالا وبدون أن يطلب كثيراً من الشكليات . هو يبيع مؤجلاً ، وعندما يشتري يدفع الثمن فوراً ، فيقدر الفلاح هذا الرجل الذى يعرف كيف يتخلص من الورطات .

هناك أشخاص آخرون أقل أهمية وأكثر شعبية يتميزون فوق لوحة الحياة القروية وهم يتقلدون منذ القدم وظائف اجتماعية ثابتة.

بدياً (المزين) وهو حلاق وصيدلى ، هو رجل كثير المشاغل ، فهو يخلق رؤوس ولحي الفلاحين العديدين الذين فى دائرته جاثياً أمام زبونه الذى هو جاث كذلك ، وبين ساقيه اناء مملوء بالماء ، وبين أصابعه آلة قديمة كأبيه وجده . هو يبل بمهارة وسرعة الرأس والوجه .

أسن تؤلم ؟ هو يخلعها . أحد محتاج الى كؤوس هواء أو الى فصد أو الى مسهل ؟ كل هذا هو عمله ، وهو يمثل الصحة العامة . وبهذا العنوان هو مكلف بالحقن وبإنباء العمدة بالوفيات . وفوق انه موظف الاحوال المدنية ، هو أيضاً مدير الحتتان . فى عشية ذلك اليوم أو عشية الزواج يتم حلق الشعر عن مظهر احتفال رسمى . هو يحوطه بأبهة ويجعل له قيمة باعلائه من شأن فنه . ولهذه الخدمات الكثيرة تدفع له اعيان طبيعية أو مليات .

وسواء أكان الساحر الرقاء عابر سبيل أم مقبلاً بالقرية ، فإنه كان يطلق اسمه وتعاويذه وخرائطه وأدويته سينافس (المزين) لو لم يكن زبائنه على الاخص من النساء . اليه تتجه الفلاحات لنيل معاونة الجن ، أو لإلقاء السحر ، أو لإبطال نتيجة تأثير العين الشريرة ، أو لتحويل القلب ، أو لتصيير الجسم مخصباً . ولا يمكن حملهن على التصديق بأن هذا « القديس » ليس الا منافقاً أو محتالاً ، وبقدر ما تكون طقوسه أكثر غرابة تكون تقتهن في الازعان لها أشد ، ولكن هناك حالات عدة لا تزال باقية بحيث لا يستطيع الغش ان يشرح النتائج الناجمة عنها . وينبغي كتابة مؤلف كامل عن السحر في القرية وعن قرابته - من خلال الاسلام والمسيحية - مع سحر مصر القديمة (١)

يؤكد الفلاحون هذه القرابة بتصديقهم لكل ما يقدم اليهم كعتيق ، فهم لا يجدون لكثير من خرافاتهم أسباباً أخرى . لماذا كان الراهب القبطي مفضلاً كساحر ؟ ولماذا يصير تماس التمثال الأثرى المرأة مخصبة ؟ ولماذا كان هذا الحجر أو ذلك المخطوط الغامض الذي يعطيها إياه الساحر يجعل رغبته منتجة . ذلك لانه قديم ، لان فيه قوة العصر الغابر .

وظيفة الباكيات هي كذلك تقليد قديم .

لا يكاد أحد الفلاحين يتوفي حتى يعلن صباح النساء ذلك النبأ الى كل أهل الحي ، ثم يبحث عن النعش العام الذي يوجد على مقربة من (الحرن) خارج القرية وفي داخل المنزل يغسل النساء (٢) الجسم بالماء الحار ، بينما ترتفع في الخارج أناشيد

(١) في الآثار المصرية الحية (ص ٢٧٩ - ٢٨٧ مجلة الجمعية الجيوغرافية ، القاهرة

في ابريل ١٩٣٧

(٢) لا تغسل النساء الا جثمان المرأة ، اما جثمان الرجل فيغسله رجل ، وهو عند المسلمين يجب ان يكون له دراية بشروط الطهارة ، وقد جرت العادة ان يتخصص في القرية رجل أو رجلان لتأدية هذه المهمة ، المترجم ،

البالكيات اللواتى في مراتبهن الجنائزية يطربن جمال المتوفى ومحامده ، ويؤنين الاله على دعوته إياه ويسائلن الميت وزوجته واولاده ، بل والموت نفسه .. ويبدو أن هذه الأناشيد مرتجلة ، ولكنها ليست أكثر ارتجالاً من دموع أولئك المحترقات المتدفقات يد (ملايات) طويلة مخصصة لمثل هذا الاحتفال ، ووجوههن مصبوغة بالسواد أو بالزرقة اشارة الى الحداد ، ورؤوسهن مغطاة بالوحل . هن يدرن الرقص الجنائزى ، فينهضن ويضربن بأيديهن ويمايلن ثم يهوين منهكات ، فيتمهلن ثم يستأنفن صياحن بين النساء ، اذ النساء يقمن بالدور الاول ، أما الرجال في الجنائز أو في العزاء فيأتون جماعات - لان الموت جزء من الحياة العامة - ولكن مساهمتهم تظهر في اجتماعهم فحسب لانهم لا يقولون شيئاً . هم يتبعون النعش في صمت ويصافحون أقرب الناس الى المتوفى ويظلون جالسين وقتاً طويلاً أمام دار الميت ثم ينصرفون (١)

هناك فرص أخرى أكثر مرحاً ان لم تكن أكثر وقوعاً تجمع الفلاحين وهى : الموسيقى والقصاص . والرجل الذى يجلب اليهم هذه الساعات اللذيذة هو الشاعر ، وهو تال وقصاص ومغن فى الوقت عينه ، وهو واحد منهم .

ذلك الرجل المحوط بالاعجاب والذى قدر له صوته أن يقوم بدور شاعر القرية الجائل مصطحباً الربابة ، وهى آلة ذات وتر واحد ونغمة حادة يمدح محمداً أو المسيح ويصف وجه النبى بطريقة ساذجة ، وان كانت ذات لون خاص ، ولكنه فى أغلب الاحايين يروى مفاخر أبى زيد الهلالي ورفاقه وجمال زوجته عالية ، أو شهامة غنتره ، أو الرغبات البدنية . يستند كثير من هذه القصص الغير المعقولة الى أشخاص جد قديم ، ويعيد ذكريات القصص التى كان القرويون الفرعونيون (٢) يستمعونها .

(١) أنظر الملحق فى آخر هذا الكتاب تحت عنوان ملاحظة على الحداد

(٢) محمد غلاب ، الآثار الحية لمصر الغابرة فى الشعبيات المصرية الحديثة ، بوسك

يستمتع الحاضرون الذين ينتقلون الى عالم عجيب وقد تملكهم السرور، وكلما وصلوا الى نهاية مرحلة من القصة توجهوا بقولهم : الله الله ، أوصحبوا الاغنى بتصفيق منتظم وعندما يبلغ التحمس أقصى حدوده ، ينتزعون لبدنهم ويقذفون بها في الهواء ، واذ ذاك ينبغي الاستئناف .

وفي بعض الظروف الفخمة كالزواج ، أو استقبال أحد الاشخاص ، أو ليلة المولد تزدان الحفلة بالموسيقى التي تقدم بنغمة بسيطة حادة لحنا متماثلا إن لم يكن خالياً من الانسجام ، فالغنائون الاميون يخترعون ألحانا مختلفة على موضوع ، أو يوقعون من ذاكرتهم نغمات معروفة ، أما آلاتهم ، فيمكن حصرها في يسرو وهي المزمار ، وهو آلة هوائية ذات قصبة وقربة ، والزمارة ، وهي قصبة بسيطة أو مزدوجة ، والارغول والسلمية اللذان يداعبان بالاصابع ، وتؤيد الموسيقى بدقات الطبل ، وهو آلة مستديرة ضئيلة العمق ، والنقرة (الدربكة) وهي جلد حمار مركب على قمع من فخار (٣٥ سم) وكل هذه الآلات هي صناعة محلية ، ولا توجد حفلة قروية خالية من ضجيجها .

يكون الجمهور اكثر ازدحاما حينما تضاف ملاءة اخرى غير عادية الى برنامج الحفلة كجيل المشعوذين وعارضي القردة ، والحواة ، وكلعب الخطب أى المبارزة بـ (البوت) بين فلاحين يديران عصويهما حول رأسيهما على شكل دائرة للدفاع أو للعلامسة ، وكرقصة البطن ، أو لعبة الاشارات الواقعية وما شا كل ذلك .

تقام هذه الاجتماعات في (الجرن) أو على الارض المجاورة له ، أو على مقربة من ضريح الشيخ يوم مولده ، وهي تصل من الاهمية الى درجة غير عادية في تلك الزيارات الاقليمية التي تجذب نحوها مرة في العام عشرات الآلاف من الفلاحين (١) يأتون ليحيوا ذكرى الولى المحسن ان لم يتوسلوا اليه في الموضع المعتقد انه موضع

(١) «إبلى سيداوى» ، المعارض أو موالد الاسلام، في مجلة العالم المصرى سنة ١٩٢١

حياته أو موته ، وذلك مثل السيد البدوي في طنطا ، والشيخ يوسف أبي الحجاج في
الاقصر ، والامام الشافعي في القاهرة ، والشيخ مبارك في اسيوط . وللأقباط (سنى)
دميانة ، ودير القديس با كوم ، وابو سيفين ، واقلاديوس الاعزب ، ومارى
جرجس وغيرهم .

وفيما عدا ذلك - كما في عيد شم النسيم ^(١) - يترج أشياع الديانتين غالباً في
نفس الزيارات أو في نفس المتع .

تدوم تلك الحفلات عدة أيام ، وتتعاقب فيها المواكب القوضوية ملوحة بأعلامها
في الهواء ، ويأتى البدو ، ليظهروا مفاخرهم فوق الجياد ، وتنصب للأطفال أراجيح
وخيل خشبية ، وعجلات رأسية ضخمة قد علقت فيها قواسق تصعد وتهبط كقواديس
الساقية . وتقام في الهواء الطلق عدة حوانيت يشتري منها حلويات تذكارية ،
والخلاوة السمسمية ، والحمص والفول السوداني وأشباهاها .

يضحك الجمهور ويغنى ويلهو ، وينفق في يوم واحد ما ادخره في العام ، إذ هو
قد ألقى بنفسه بين أحضان الحياة المحمومة في اللحظة الحاضرة .

يوجد الجمهور كذلك في السوق وهذا السوق هو قطعة أرض خالية يحيط بها
أحياناً حاجز ، وهو يوجد خارج البلاد ^(٢) المهمة ويظل كل أسبوع من الفجر الى
الظهر ، ويتجه إليه الباعة والبائعات في صفوف طويلة منذ تنفس الصبح يحملون

(١) هو عيد الربيع ، ويقع هذا العيد المصرى القديم يوم الاثنين الموافق عيد
الفصح القبطى .

(٢) أسست شركة الاسواق المصرية (١٢٣٣) سوقاً قروياً ، وهى تعرف بحواجزها
الحديدية ، وأهم ما فى مصر السفلى منها أسواق : الملاحة ، وشبين الكوم ، وعلى الاخص
سوق امبابه الذى يملكث ثلاثة أيام ، وفى الصعيد سوقا طما وطحطا اللذان يحدثان
انتقالات عديدة . وفى جميع هذه الاسواق يفرض قرش أو قرشان على كل بائع .

منتجاتهم التي يمدونها ويظنون جاثين في الزوايا التي اختاروها في انتظار الزبائن ، فلا يلبث أن يرد المشترون من كل القرى المحيطة ، وإذا ذلك يتكون خليط متباين العناصر ذو ضجيج مؤلف من أناس وحيوانات وأشياء . فأما القماش والسلع الحديدية ، فيقوم بعرضها تجار محترفون أتوا من عاصمة الإقليم أو من جولاتهم في القرى . وهؤلاء التجار يستوردون من تجار المدينة . وأما الخضار والطيور والزبد والبيض ، فيقوم بعرضها الفلاح المنتج ، أو بالأحرى زوجته التي تجيد المساومة أكثر منه . وعند ما يكون مضطراً يأتي لبيع جاموسه أو ماعزته ، ويقوم فلاحون آخرون بطلب كل ما لا يستطيعون إنتاجه من المصنوعات والمأكولات . فبقريشين يستبدل (البلاص) المكسور والقفة المخروقة ، وبثمانية قروش يشتري سروال كبير ، وبخمسة قروش قميص ، وبعشرين قرشاً يمكن الحصول على (جلبية) ، وبثلاثين على (ملاية) . وهناك أغلى من هذا للعمدة أو للقروي الثرى ، فجلبية أو (ملاية) بمائة قرش هي التي ترفع قدر الفلاح أو قدر زوجته.

كذلك ينبغي شراء القوت ، ويجرى هذا تبعاً للفرص والحاجات والاستطاعات ، وإليك بعض الأثمان مثلاً :

٨	الحم . الاقة من البقر :	٨
١٢	» من الضأن :	١٢
١٠ - ١١	البيترول لـ (الوابور) والمصباح ، الصفيحة ٨ الليتر	١٠ - ١١
٧	الليتر	٧
٦ - ٧	الزيت الحار للطهي الاقة	٦ - ٧
٢٥ أو أكثر	الشاي وهو غال بسبب الجمرك ، الاقة	٢٥ أو أكثر
٥	القهوة للضيوف ، الرطل :	٥

٣	٥	مليم	السكر المسكر ، الاقة :
٣ - ٢			لفائف التبغ ، العلبة ٢٠ لفافة :
			اما منتجات الدسكرة فتشترى من الطبقة الثرية المحلية
			او عملاء يصدرونها . هم يشترون من سوق القرية :
١٥ - ٨			زوج الدجاج :
٣ - ١	٥		(دسطة البيض) :
١٢ - ١٤			أقة المسلى :
٣ - ٢			أقة الارز :
٣ - ٢			أقة العدس

اما الخبثوب والقطن فيشترى من تجار أو مندوبون عن كبار تجار القاهرة أو الاسكندرية .

وهنا الأثمان جد مختلفة ، فالقنطار من القطن يمكن أن يباع بمبلغ يتراوح بين ٣٠٠ قرش و ٥٠٠ قرش حسب جودة التيلة أو سير البورسة أو حاجة الفلاح ، وصغار التجار يشترون من الجنائين الرطل ب ٧ مليم ويبيعون القنطار ب ٢٥٢ قرشاً . وإردب القمح (١٥٠ كيلو تقريباً) يباع بمبلغ يتراوح بين ١١٠ قروش و ١٤٠ قرشاً حسب تأثيرات الكيف والسقم .

اما البضائع الأخرى ، فنسبة التباعد بين أثمانها أقل ، والأثمان فيها تسير من أعلى إلى أدنى تبعاً لقرب السوق أو بعده من النيل وحسب ما يكون الوقت شتاءً أو صيفاً ، وحسب قوة الطلب أو قوة العرض وهلم جراً . وهناك بعض المنتجات لم تتغير أثمانها تقريباً منذ ثلاثين سنة .

ولا يزال التبادل في القرى يحدث مقايضة في ربح ما تجرى فيه العمليات على الأقل
ولكن استعمال النقود يسود باطراد .

وأخيراً ، وعلى أثر الانتهاء من الأعمال بعد مناقشات كثيرة يعود الواحد منهم
إلى منزله قبل غروب الشمس بالشئ أو بالمال الذي يجب أن يجلب تحسناً عملياً إلى المنزل أو
على الأقل هو يعود بسرور يوم مليء بالمناظر والصياح .

تحدث الأسواق وزيارات الأضرحة مروراً ضخماً على الطرق الزراعية ، وهنا
أيضاً نشاهد ميل الفلاحين إلى الاجتماع وإلى الانتقال جماعات وفي تكديس ، سواء
أكان الأمر يتعلق باجتياز النيل أم باجتياز القناة للذهاب إلى القرية المقابلة . يصعد
الفلاحون إلى القارب أو إلى السفينة (المعدية) متكاثرين إلى حد وقوع الحوادث .
وعند ما يرتحلون مشاة أو على حميرهم مغمورين بحزمهم كأنهم في حالة خروج لعودة
بعده . وعند ما يركبون - إلى مسافات أبعد - «الطرومبيل» أو «الحلزونة» وهي
سيارة فوردي من الطراز القديم تحولت إلى «أوتوبوس» يتكدس فيها أربعون على
حين أنها ليس فيها أمكنة إلا لعشرين ، وهم يجدون أن من السئ جداً أن يود
أحد حملهم على احترام قواعد الشرطة . أو لم يكن بعض الأسباب التي نفرت الشعب
من أحد الوزراء في الأرياف هو إلحاحه على تطبيق قواعد النظام ؟ وعندما يجب أن يسافروا
في القطار يصلون قبل مواعيدهم بعدة ساعات ويجمعون في إحدى زوايا الرصيف
ويتكدسون في عربة واحدة على حين أنه توجد أمكنة في غيرها .

وقصارى القول : ان الفلاحين يحبون أن يعيشوا معاً في الخارج وعلى صورة
جمهور . أنهم محبوبون للاجتماع ، فهل هم لهذا اجتماعيون ومتماسكون ؟ وهل توجد في
الجماعات الريفية صلات عضوية بين بعضهم والبعض الآخر ؟

لنعتبر بدياً القرية ككتلة واحدة : هي تكون بأراضيها كلاً معيئاً يظل

الباقون ، حتى الجيران ، خارجه أجنب وغير معروفين . وهي تحيا حياة مقفلة خاصة بها ، حياة تحكمها في داخلها التقاليد والعادات والحرمان الموروثة وهي القوانين التي لا تصعد الذاكرة إلى مبدئها والتي تحدد إشارات كل فرد ورغباته .

بقدر ما يلتقي الفلاح من مشقة في ان يمدفكره خلال الزمان ، وفي ان يتنبأ بالمستقبل يحس بنفس هذه المشقة في ان ينطلق في المكان ، فقريته هي كل شيء لانها قريبة وحاضرة ، وهي تمثل وطنه ووطنيته فحينما يسأل فلاح ما عن وطنه يجيب بقوله أنا من « منفلوط » أو « ابوقرقاص » وحينما يجيب بصورة أوسع : « أنا من مديرية المنوفية » أو « مديرية اسيوط » ولكنه لا يقول ألبتة : « أنا مصري » هو - ولو انه أشد مصرية من كثيرين من الساسة - لا يدرك انه ينتسب الى وطن وهذا يجعل المرء يفهم لماذا انه في الحركات الوطنية التي أثارت مصر منذ الحرب الى ان نالت الاستقلال لم يتحرك عالم الفلاحين ^(١) فالوطن والحرية والسياسة هي كلمات واشياء لا يفهمها .

وحينما جند الانجليز ابان الحرب العظمى جيشاً وطنياً ليدافع عن البلد المهدد عند قناة السويس فان « المتطوعين » قد أخذوا بالقوة وبصعوبة أشد منها في عهد السخرة وضعف الوطنية هذا نفسه هو الذي يوضح نفور الفلاحين من الخدمة العسكرية ، والاربعة والعشرون ألف جندي الذين يؤلفون الجيش المصري هم جميعاً تقريباً مجندون من بين الفلاحين لان قانون سنة ١٩٠٢ في الواقع لا ينطبق بكل شدته الا عليهم ، اذ ان الموظف وابناءه والابن الوحيد واكبر اولاد الوالد المتوفي ، أو المقعد ، أو الذي بلغ الستين ، والطالب وحافظ القرآن وذا العاهة لهم الحق في الإعفاء ، والذي يليق للخدمة

(١) لعل عالم الفلاحين قد اشترك في الحركات الوطنية وان كانت الاعتبارات التي

تدفعه ليست هي التي تدفع المتعلمين « المترجم »

يظل تحت مراقبة القرعة فيما بين التاسعة عشرة والسابعة والعشرين وإذا اختير فانه يلتزم الخدمة مدى خمسة أعوام ولكنه لكي يستحق الرضا وفقاً لأحدى عينيه أو او يقطع أصبعين من أصابعه^(١) وهو يستدين ليدفع البديل العسكري أو يقيد نفسه كطالب أو يختفي بقدر ما يستطيع أو يفر . وفضيحة العصيان تلحق خمسة وثلاثين في المائة من المجندين .

وعندما تكون الكارثة غير ممكنة التجنب ولا يكون له بد من السفر على أي حال فان أسرته تتقبل العزاء وتلقى بنفسها في ولولة تشبه الولولة على المائت .

مغادرة القرية هي التغرب ، والارتحال هو الموت ، والتقييد في الجيش هو كجواز للهجرة الى المدينة ، والمحراث والساقية والجاموس والثيران كل ذلك يثن ويحتج (جندي)

على أثر ذلك يعوز الأرض هذا المجند بشكل مرعب ، ومن هنا يفهم ان موقف الفلاحين الذين يفضلون دفع عشرين جنياً ، بل مائة لينقذوا انفسهم ولو اثقلهم هذا الدين وقطاطويلا .

ليس معنى هذا ان الفلاحين يؤلفون جنوداً اردباء فجيوش محمد علي وابراهيم باشا الظافرة كانت مؤلفة من الفلاحين ، وهؤلاء الرجال يعرفون استخدام البنادق باطمئنان . حقاً ان ذلك الوقت الجميل قد مضى ، ولكنه يدل على الكفاءة ، وهنا ايضاً تبسط مسألة من مسائل التربية

اليوم يجب ان يقل النفور من الجندية اذ الرجال يعاملون أفضل من ذي قبل . فهم يشذبون أثناء الخدمة ويتعلمون ابا ان التمرينات ويلبسون ملابس نظيفة ، وعند ما

(١) كان الفلاحون في الزمن السالف يفقنون أعينهم ويقطعون أصابعهم فرارا من الجندية لقسوة انظمتها اذ ذاك أما الآن فان أسرهم تكسفي بالعويل والولولة ابا ان رحيلهم الى العاصمة « المترجم »

يفادرون الجيش بعد خمسة أعوام يصيرون سادة (أفندية) وحينما يكون احد الفلاحين في الثكنة أو حين يرتبط بعمل في المدينة يربح منه بضعة دراهم فانه يحمل قرينه في قلبه . ويرتسم مرض الوطن على وجهه الخالى من الشواهد والتعبيرات ، وهو يحاول على الاقل ان يحتفظ بعاداتها وبالاتصال بها . الم تكتب عدة مرات خطابات باملاء هؤلاء الفلاحين الأميين الحساسين المنتزعين من بلادهم ؟ لقد كان ذلك متشابهاً دائماً : « نبثوني بأخبار الزراعة وسلموا على فلان وفلان وفلان » . وعندنا تكون ثروة القرية الحيوية في خطر مباشر يحس كل واحد منهم إحساساً غنياً بانتسابه إلى الجماعة ويجتمع الرجال والنساء والأطفال قوة واحدة . ونحن لا نزال نذكر فاجعة أبي شادى سنة ١٩٣٦ ، وذلك أن مصلحة الري - لكي تحقق توزيع السقي بهيئة أفضل - قد صممت على قطع قناة كان البلد كله يروى منها منذ ثلاثين سنة فثار الأهليون بالعمال وبرجال الشرطة وبالجيش ، ليمنعوا هذا التحويل ، وقد حالوا بين كل هذه القوى وبين النجاح مدى عدة أيام . كانت النساء في الصف الأول يثرن الرجال ، والصبية يجمعون الذخائر ويقدمونها ، فكان ذلك فناً عسكرياً حقيقياً مرتجلاً .

وعند ما يغالى مراب أو مالك أو ناظر في عسفه ويقتل للانتقام العام ، فإن أدق رجال المباحث لا يستطيع اكتشاف المنفذ ، إذ يكون الإجماع على الصمت تاماً . وحينما تهين قرية مجاورة أو بعض أفراد منها فقط قرية أخرى أو تسبب لها خسارة ، فإن جميع أهل هذه الأخيرة يؤلفون جبهة ويشترون في الانتقام من المهينين بضربة حجر أو (بنوت) أو ببندقية ، لأن كثيرين من الفلاحين يملكون ذلك السلاح المحظور ويعرفون استخدامه . ومع ذلك فقد أخذت تلك الحروب - بفضل تدخل

الشرطة - تقل باطراد ، فيما بقيت المنازعات الخاصة متعددة وعنيفة وغير متوقعة كما كانت سابقاً . (١)

وهنا نلمس أحد تناقضات بيئات الفلاحين : الجميع في القرية متعارفون ولا يترك ألبنة أحد يموت جوعاً ، والمعاونة التطوعية بين الرجال في أعمال الحقول و بين النساء في الحاجات المنزلية ، تلك المعاونة التي تحدث بدون روية بقدر ماتكون الفاقة أعظم هي تهذبنا . والتماسك الذي يبديه الفلاحون في تنفيذ مصلحة عامة حينما لا يكونون مأمورين يظهرنا على ما يستطيعون ، ولكن في مسائل الأرض والمرأة والعمدية تتألف أحزاب وتظل في حالة معارضة تنتقل من جيل إلى جيل وتسود جميع الأسر . وينبغي أن يكون المرء مشايحاً في القرية ، إذ أن المحايدين محقرين وهذه الخصومة المتعادلة عادة تستيقظ فجأة بسبب حادثة تافهة . كحد ثقل من موضعه أو سداد سرق ، أو جاموسة وجدت دخيلة ، وإذ ذاك تصبح الحياة البشرية ولا حساب لها : يحدث القتل ، وفي سهولة أكثر ، في القرى التي يمتزج فيها الدم العربي بالدم الفلاحي .

وهكذا يعيش المرء في حالة لا أمن فيها . ولفهم هذا الذعر السائد ينبغي إضاءة الليل في القرية فعلى أثر انقضاء النهار تسترعي ابتهاك الاحتياطات المتخذة ضد العدو الممكن فالحيوانات - وبينها الجمال إذا كانت موجودة - تحبس في المنزل ، وكذلك الأسر تتجمع في صمت خلف الباب الضخم المغلق . والرجل غالباً في الخارج ساهر على حقله

(١) حسب احصاء سنة ١٩٣١ ظل ستون في المائة من جنائيات القتل بدون عقاب لعدم استطاعة اكتشاف الجناة ، راجع الجنائيات في الارياف ، لمحمد مصطفى القلبي في مجلة المسائل الاجتماعية يوليه سنة ١٩٤٠ ص ٢٠ - ٢٩

أو على مائه ، لأن العدو يرود دائماً وبقدر تكاثف الظلام ، يتتابع نباح الكلاب وطلقات البنادق

ليست بندقية الخفير الساهر الذى يطمئن ويطمئن هي التى تسمع ، وإنما بندقية الفلاح المسلح رغم القانون . وفى موسم الاستغلال يصير أكثر حذراً أيضاً . ولقد رأينا بعض الفلاحين يتقلدون بنادقهم أثناء جنهم ، وهم يخوضون في الماء ، آخر لوزة من القطن .

بسبب انتخاب عمدة انقسمت قرية قلندول إلى معسكرين : أشياع محمود بكير في جانب ، وأنصار على عباس في جانب آخر ، وقد طعن الأول على الثانى بكلام جارح ، وبناء على ذلك وجد ابنه الشاب فى صباح أحد الأيام مقتولا فى الحقول ، وبعد بضعة أيام طغنت شقيقة على عباس بنحجر للانتقام ، ومنذ ذلك العهد أخذ كل من الحزبين يلاحظ الآخر ويتربصه مدة سنة ، وظل العمل والانتقال يجريان فى جماعة . وفى أحد أيام السوق بينما كان عدة فلاحين آتين من القرى ، شتم أحد خصوم محمود بكير شاباً من أشياعه فصفعه هذا الأخير ، وعلى أثر ذلك انقض أنصار على عباس على هذا الشاب وطعنوه بنحاجرهم عدة طعنات ، وفى الحال نفي نأ الجريمة إلى رجال بكير فوصلوا على الفور إلى مكانها مسلحين بالبنادق والنباييت مكررين : « الله . الله » وقد أجاب أتباع على عباس بتلك الصيحات نفسها ثم خرجت الطلقات ، وبعد ساعة أحصى ثلاثة قتلى وعدة جرحى . وعند نهاية النهار صمم كل من المعسكرين على إبادة الآخر فتحصنا فى الجبل ، وكانت مهمة الشرطة فى إعادة النظام شاقة (مايو سنة ١٩٣٦) .

ان نفور الجنسين : الفلاح والعربي ، والديانتين : القبطية والاسلامية ولو أن

الحياة العامة قد انامت لم ينطفئ قط انطفاء تاماً ، وهو الذى يوضح كثيراً من الفواجم هناك اذا ، ثقة وحذر فى الوقت ذاته ، والذى هو فوق كل شئ ، وهو خط الانقسام بين تينك العاطفتين ، هو الارض أو هوى الارض ، اذ هي التى تجمع حينما تكون مهددة وتفرق عندما تملك أو تشتهى فحسب ، وبسببها الجماعة الريفية المتينة بالنسبة الى الغير تتمزق فى الداخل . اما الافكار القومية والوطنية فلا توقظ فى نفسها أية عاطفة وليس حظ افكار الجمعيات او المصلحة العامة أو الحياة القروية المشتركة باكثر من حظ سالقاتها . ليست القرية المصرية وحدة عامة بالمعنى الوطني لهذه الكلمة ، وليست جسماً منظماً ولكنها كتلة .

وليس اتحاد نوع الحياة ولا الاجتماع بقادرين على ان يخلقوا بالضرورة بين الناس صلات عميقة اذ ينبغي فوق ذلك نوع من الحياة الروحية او وجود بعض الشخصيات التى تصير اربابها اكفاءاً للتبادل وللجمعية ، والفلاح يبدو لنا انه قليل الشخصية بقدر ما هو فردى . هو يحيا مملوكاً للارض ، مضطهداً من الناس حياة عامة ولكنها ليست اجتماعية ، وهو فى الجماعة يظل فى العمق منفرداً .

لقد احتفظ هذا العوز فى التنسيق بين العناصر المتماثلة بإبقاء القرية المصرية والجماعة الريفية التى تمثلها ، فى الحالة البدائية لمجتمع بدون هندسة مادية او عقلية ، وهو المجتمع الذى كان منذ خمسين قرناً . وقد تمسكت الحكومات بهذا الجمود الذى نفي سلطتها بهيئة غريبة .

وهكذا يتماثل الفلاحون والاربعة عشر ألف بلد التى يقطنونها^(١)

(١) قائمة البلاد الرسمية (مطبعة الحكومة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٣٢) تحتوى على ١٤ ألفاً و ١١٦ بلداً بالضبط ، منها ٧٨٠٠ تحمل كل واحدة منها اسم عزبة و ١٥٠٠ تصدر بـ (ميت) و ١٨٠٠ بـ (نزلة) و ٩٣٣ مسبوقة بكلمة : كفر ، و ١٤٣٦ بكلمة : نجع . وهذه الاسماء تذكر بالأصل ، ولكن لا يكاد يوجد أكثر من ٤٠٠٠ وحدة (ناحية) .

الفصل السابع

منزل الفلاح وأسرته

« لقد رأيت أشد قرى المانش الاسباني فاقة ، ومنازل أهل الرأس الاخضر الرديئة ، وأخصاص اللانداس الذين هم متوحشوا أعماق الانجولا ، ولكني لم أشعر بالبأساء قط كما شعرت بها في مصر » .

هكذا كتب « كريستيان دي كاتير » عند عودته من الشرق بمناسبة منزل الفلاح . (١)

وعلى العكس من ذلك يمجّد المسيو (لوزاك) أنه ليس متأخرا كثيرا عن المنازل الحقبية الحجرية أو الطينية المغطاة بالقش التي لا تزال توجد بكثرة في أوروبا المركزية أو الغربية . وعلى كل حال هو أرق كثيرا من تلك الأكواخ العسة التي يعيش فيها كثير من قروي تونس والجزائر . (٢)

من نصدق ؟ ان كل شيء يتعلق بوجهة النظر التي يضع المرء فيها نفسه وبمناخ مواطن الاعتماد ، ومع ذلك فيبدو لنا أن التشبيه - والأشياء ليست متساوية - يحتوي هنا على مبدأ الخطأ . ونحن بدل أن نسجل إحساسا شخصيا أو حكما ناشئا عن رأى سنصف مسكن القروي العصري كما هو ، والحياة التي يؤويها . ويشتمل هذا في الوقت نفسه على مشاهدة التثام المسكن مع الأرض والرجل .

لقد كنا قبل ذلك في المواضع العامة من القرية ، فلننظر الآن الى المساكن

(١) تحقيق عن مصر ، ايكودي باري ، ١٦ يونية سنة ١٩٣٢ .

(٢) دلتا النيل ، دراسة الجيوغرافيا الانسانية ، القاهرة سنة ١٩٢٥

الخاصة للفلاحين ، لتتخط مسكن المالك الفخم ومقر العمدة ، ولنشر فقط الى ما ياتي
لانه استثنائي .

المنازل الحجرية في القرى الملاصقة لحدود الصحراء في (مصر العليا) اذ يسمح
الاقتراب من الصخور للفلاح هنا بأن ينقل في قفته الاحجار لينبئ بها ، وبعض هذه
المنازل لها سقوف مقوسة ، وحيانا على صورة قبة .

والمنازل ذوات الآجر بدون تخصيص التي هي كثيرة في مصر السفلى والتي
تقتضى بعض الثراء .

والمنازل المنظمة في العزب النموذجية كمنازل الممتلكات الملكية ، وممتلكات
الجمعية الزراعية ، وبعض الملاك .

والمنازل الخفية التي لا صور لها (العشش) وهي للآتين حديثا وأنصاف الرّحل
ومصنوعة من الخرق والصفيح والسعف والطين .

وأكواخ الزراعة (الزراي) وهي مأو من القصب أو من حواجز فقط من
حطب الذرة قائمة في وسط الحقول وهي تبقى بقاء أعمال الشتاء الكبرى

لننظر الى المنزل العادي للفلاح المتوسط ، وهو الذي يوجد بنسبه ٩٢ ٪ أي
المنزل الطيني ، وهو منزل بدون طراز وبدون عصر ، وهو أيضا يمثل وحدة الريفية
المصرية وثباتها .

لنرجع الى احد تلك الدروب التي توجد في القرية ، فعلى جانبها تتراحم واجهات
ضيقة رمادية مقفلة يتراوح عرض كل منها بين خمسة أمتار وعشرة ، وارتفاعها
من مترين ونصف الى خمسة أمتار على الاكثر عندما يكون فيها طابق علوى .

الحى قديم ، والقرية أقدم ، ولكن المنزل لا يرجع تاريخه الى عشرين سنة ،
ذلك لان مواد البناء وطريقته تفرضان على البناء حياة قصيرة ، والفيضان والمطر في

مصر السفلى ، والحرائق قد جرّت اصلاحات متتالية سوف لا تدع عما قريب شيئا قديما .

يتعلق مسكن الفلاح كعمله بالأرض وبنوع الحياة والنظام الاجتماعى ، فالأرض التى تطعمه هي نفسها التى تؤويه ، هو أرضى بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، والمادة هنا هي التى تعطي الصورة .

من الصلصال ، وقش الشعير أو الفول أو الكتان وأرواث البقر وماء النيل يتكون الملاط المستعمل فى كل مكان والذى يبسط من الجانبين على حاجز من حطب الذرة أو من السعف أو من القصب ، أو يصب فى قالب من خشب لصنع اللبّين (الطوب النىء) الذى يجفف فى الشمس ، وعندئذ يبنى به الحائط ، و (اسمنت) اللّخمة هو مصنوع من نفس هذا المزيج الطبيعى ، ومنه أيضا الطلاء الذى يغطى داخل الحوائط ويحميها .

لكى يكون فى الحائط المبنى على هذا النحو مقاومة كافية يجب أن يكون سمكه من ٣٠ إلى ٤٠ س م .

وعندما يكون الفلاح أكثر سعة يبنيه على أساس من آجر يدعى بـ (الطوب الأحمر) أو على قواعد من حجر الجص ، وهكذا لاتأكل الرطوبة التى تصعد من الأرض بالترشح أساس المنزل .

لكى لاتتعرض متانة الحوائط للخطر ، ولكى تؤدى على أفضل وجه مهمتها كواقية ضد إفراط النور والحرارة أثناء النهار ، وضد برد الليل وخطره ، هي تحتوى على فتحات جد قليلة : باب ارتفاعه ١ م و ٧٥ س وعرضه متر تقريبا . وهو منفصل عن الدرب بعتبة ارتفاعها ١٠ س م وفوق مستوى الاعين كوى صغيرة (٣٠ X ٢٠ س م) وهي تسد فى الشتاء ، ومنها ومن الباب تتكون الاتصالات الوحيدة بالخارج

هذا التقدير في الانارة يبرر فوق ذلك بنقص الخشب وغلائه ، فمصر الواقعة في المنطقة الكبرى التي لاتصلح للخشب والتي تستطيل في الخط المنحني من السودان الى الهند أو المنطقة الدائرية الصحراوية ليست بلدا ذا غابات ، والنخل والجوز والسنت التي تظل القرى هي أنفس من أن تستخدم كأخشاب للمباني ، على أنها لاتكفي لجميع الابواب والنوافذ التي يتمناها الصعيون . هم يستعملون جذوع النخل و لكن في اقتصاد شديد ، لأن النخلة الواحدة تدر على مالها مائة قرش في العام (تمر و ليف وسعف) والخشب الوارد من فنلندا والسويد ورومانيا وروسيا ، والذي هو مألوف الاستعمال في المدن يتجاوز ثمنه ثروة الفلاح العادية ، وهكذا يظل الباب غالبا بدون خشب والنوافذ دائما تقريبا بدون زجاج ولا اطرار .

وما دام ان المرء يستطيع الاستغناء عن الخشب فهو يستغنى عنه ، ولكن الإنفاق على السقوف ضرورى . في مصر العليا التي لا مطر فيها ألبتة ، يظل بعض المنازل بدون سقف ، ولكن هذا ليس الا استثناء ، وفي العادة تغطي الحوائط الاربعة على الاقل بأوراق ، فعلى عروق رديئة التشذيب موضوعة على أبعاد ٦٠ سم م يمد حطب الذرة أو حطب القطن أو القصب أو الجريد ، ولكي لايتعطن هذا السقف يغطي بمحصر غليظة ، وفوقها تعد طبقة قوية من الملاط المختلط بالرماد ، وبهذا يصنع السطح صفيحة بيئية كافية لمقاومة المطر العابر ، ومتينا الى درجة تجعله يحتمل كوخ الصيف ونوم جميع أهل المنزل . ويتوصل الى هذا السطح بسلم من خشب أو من لبن ، والحاجة ماسة اليه في كل لحظة ، لأن فوقه توجد الآلات وصناديق الجيوب والوقود ، وأحيانا الطيور

ان الضرورة وعادة وضع الاخشاب اليابسة والقش فوق السطح تحدثان غالبا الحرائق التي هي بسبب اقتراب المنازل تمتد الى الحى ثم الى القرية . وشرارة تنبعث من التنور أو من (الوابور) مع حرارة الصيف القصوى تكفي لوقوع الكارثة . . ان اهمية حرائق القرى وكثرتها هما احدي بلايا مصر ، فبين سنتي ١٩٢٦ و ١٩٣٠

دمرت على هذا النحو ستة وستون بلداً ، وفي كل عام ، ولا سيما بين ابريل وسبتمبر تسجل ادارة الامن العام خسائر مرعبة . ولكي نعطي القارىء فكرة عنها نسردها أربع حوادث جديدة

١٤ يناير سنة ١٩٣٦ في قرية (ميت يعيش) التابعة لمركز ميت غمر « انتشر الحريق بسرعة صاعقة فدمر ٩٤ منزلاً وأصبح عدة مئات من القرويين بلا مأوى » .

٢٠ أبريل سنة ١٩٣٦ في العويسجة التابعة لمركز هيا « اتصل الحريق بـ ٤٣ منزلاً تحولت الى رماد بكل ما تحتويه من حيوانات وطيور وأقوات ، والخسائر قدرت الى الآن بـ (٣٠٠ جنيه) وقد أثبت التحقيق أن الحريق قد أحدثته قروية تدعى نفيسة حسن كانت تطهى في بيتها فاتصل بعض الشرر بالحزم الموضوعة فوق السطح وقد هبت الريح فلم تلبث النار ان اشتعلت .

٥ مايو سنة ١٩٣٧ « شب حريق فظيع في بكنوش مركز دسوق مديرية الغربية دمر فيه ٤٠٠ منزل تمام التدمير . وقد أتى اللهب على ١٤ شخصاً وأتخذ ١٣ آخرون حروقهم خطرة » .

١٤ يناير سنة ١٩٤١ شب حريق في قرية الدير مركز طوخ فدمر ٢١٧ منزلاً وسبب وفاة ٢٠ وأحرق غلات ومواشى وقذف بـ ٤٠٠ أسرة الى التعاسة . وقد سببته امرأة كانت تطهى فوق سطح منزلها .

نعم يوجد قانون يحظر « تكديس الأخشاب اليابسة فوق سطوح المنازل » وتوجد « لجنة لمقاومة الحرائق في الأرياف » ولكن لا القانون ولا اللجنة يمنعان الفلاح من وضع الوقود فوق الأسطح ، لأنهما لا يقدمان إليه وسائل أخرى .

ينصحون له أيضاً ألا ينام مع مواشيه ، ولكنه لو تركها في الخارج لسرقت منه ،

وفي الداخل ، المكان ضيق الى حد بعيد ، فكيف يتصرف فيها .

لندخل أحد المنازل : لا نكاد نفعل حتى يستولى علينا نصف الظلام ، والرائحة ان لم تكن البراغيث أيضاً .

ينحصر المسكن في حجرة وحيدة من ٥ الى ٦ أمتار في عرض ٣ م و ٥٠ س « في زيارتي لأهل خور يأتى ألحظ عدداً قليلاً جداً من الأبواب للمنازل التي هي أحجار مربعة ليس لكل منها الا فرجة واحدة ، وكل ما فيها من أثاث هو تنور للخبز ، وجرة وحلة و (قلة) وصحفة ، وفي بعض المنازل يوجد حبل مربوط في زاوية من حائط الى آخر ، وهو دولاب الملابس الذي يعلق عليه ثوب « التبديل » (هذا هو تصريح مولاي خزام أسقف طيبا) . أما السقف فهو منخفض الى حد يشعر بالضيق .

ولكن من حسن الحظ أن المنازل ذوات الحجرتين أو الثلاث هي أكثرية . وهي -- مع فروق ضعيفة في الرسم والمساحات والارتفاع -- تتكون من :

أولاً : قاعة (مندرية) والى جانب حائطها الأيمن قد بنى نوع من السرير يصلح للاستعمال ككنبة (مصطبة) وهذه القاعة هي أكثر أجزاء البيت نوراً بسبب الباب ، وهي تستعمل للاستقبال ولنوم الضيف .

ثانياً : حجرة النوم والطهي ، وهي تطل على القاعة ، وفي إحدى زواياها التنور المبنى بالآجر والملتصق بالحائط ، وسقفه المبسوط يكون شبه سرير ينام فوقه شخصان في الشتاء ، ولما لم يكن عندهم مداخن فان الدخان يمر من الكوة .

ثالثاً : وفي الداخل بعد هذا - وبدون أى مدخل آخر غير الباب العادى - توجد ردهة صغيرة (زربية) نصف مغطاة بحطب الذرة تحبس فيها الجاموسة والحمار ، ولكن التفريق ليس واضحاً الى حد أن القاعة لا تستعمل أيضاً حظيرة أو حجرة نوم ، وأن

الخطيرة لاتستعمل مرقدًا في الصيف وهكذا .

الدجاج يقطن في كل موضع ، والحمام يسكن في ثقب محفورة في الحوائط الخارجية أو في صفائح مصفوفة ، وفي القرى ذوات الاقليات القوية أو الاكثر ثريات من الاقباط ينبغي أن يعمل حساب الخنازير التي يربها الفلاحون المسيحيون لالأنفسهم وللسكن لقصابي الخنازير الاوروبيين ، وكذلك ينبغي أن يعد صديق الفلاح وحارس ثروته وهو الكلب المهوش الشعر الذي ينبج في الليل .

أما أرضية المنزل فهي من تراب مضغوط . وفي الزوايا وبدون نظام يمدأو يكدس الاثاث : أى فيما يتعلق بالمائدة يوجد (وابور البترول) وحلة أو حلتان من نحاس ، ومائدة مستديرة منخفضة من الخشب الابيض (قطرها متر وارتفاعها ٤٠ س . م) وللنوم حصر وأغطية من قطن أو كيس من خيش فقط ، وأحيانًا أسرة من جريد كآقفاص الدجاج ، بل حشية ، وللحاجة المنزلية وللنظافة وعاء مبسوط ، وهو الطست الذي يستخدم في غسل الملابس والاستحمام ، وقطعة من مرآة ، والصندوق الخشبي الذي يكدس فيه كل شئ .

هو هدية الزواج ، والالوان الصارخة التي هو مصبوغ بها تذكريوم مرح . . « رأيت في صندوق بالقرب من التنور تحمل ربة المنزل مفتاحه في عنقها ، خليطًا من : بيض وفلفل وجبن وخيط وابر وخرق وبضعة عقود وكيس وكحل » هكذا كتب الينا دهشا أحد المرسلين الفرنسيين .

كما نلاحظ في القطر وفي القرية نحن نلاحظ أيضا في منزل الفلاح ذلك الاقتراب الموجود بين الارض والحيوانات والناس والذي يعبر عن الحالة الاجتماعية وعن نوع الحياة : كما تكون السكنى يكون الساكنون .

على هذا النحو يظهر كيف أن الفلاح يتعلق بالارض وبالشمس وبالماء ، وهي

علاقة جيوغرافية بهذه الأشياء الثلاثة في منزله نفسه .

عن طريق مواد البناء والأرضية وقلة الارتفاع والسقف ، يتصل المنزل بالأرض كما ينغمس فيها الفلاح بعمله وطعامه وأمراضه وموته .

عوز في أسباب الراحة وكفايات الحياة في المنزل ، اذ لما كان الفلاح يعيش في الخارج ، فلم يكن المنزل بالنسبة اليه الا مرقدًا بدون أثاث ، أو مستودعًا أو (عنبرًا) من ذلك المعسكر المزدهم الذي هو القرية .

تشابه في المساكن ، اذ لما كان الفلاح تنقصه الشخصية ، فهو ليس الا فردًا أو رقما في المجموعة ، وأسرته خلية في السكواة الزراعية .

قلة أو عدم الحجر اللازمة للاستعمال الزراعي ، اذ لما كان الفلاح أجيرا يعمل لحساب غيره ، فانه لا يدخر ولا يحتزن خيرات الارض .

ولكن هذا المسكن المحروم من كثير من العناصر التي يخيّل لنا أنها أساسية يجده الساكن موافقًا له ولعاداته الى حد أنه يحول أو يشوه على صورته المسكن الذي هو أكمل وأكثر ملاءمة للعقل والذي يبنى له في العزب النموذجية .

في العزبة يملك المنزل المالك ، وفي القرية يملكه الفلاح ، وهو مع الأرض التي يشغلها يساوي ٢٥ جنيتها على الأكثر ، وليس فيه ايجار ولا عليه ضريبة ، ففي الأولى هو يدخل في شروط الشركة أو ايجار الأرض ، وفي الثانية يملكه رب الأسرة .

يقضى الفلاح في هذا المسكن المقيس عليه حياته الخاصة ، وفيه لا يكون كما هو في غيره أقل الناس .

يؤوى كل منزل أسرة عديدة تتألف غالباً - عدا الاب والام واربعة اولاد أو

خمس - من الجد أو الجدة اللذين لهما سلطة عظيمة ، ومن ابن متزوج وابن عم ذى ثواء طويل .

عندما يريد الفلاح ان يتزوج ، اذا كان كبيراً ، فهو يعالج المسألة مباشرة مع والد المختارة ويدفع له المهر . واذا كان صغيراً ، والرشد فى الثامنة عشرة ، فان والدته تشرع فى التنقيب - بين ذوى القربى والجيران ويندر أن يكون ذلك فى بلد آخر - لتعثر له على الزوجة المثالية ، وهي فتاة فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة لا تجهل شيئاً من الاشياء الجنسية . وقانون سنة ١٩٢٣ يحدد سن الزواج بالسادسة عشرة (١)

يحتفل بالخطبة عن طريق الوكالة ، وهي عقد الزواج . والمهر الذى يجب ان يقدمه طالب الزواج يتراوح بين ٥ و ١٠ جنيهات يدفع فى الحال ثلثيه ويتعهد بدفع الباقى فى العقد الذى يحرره المأذون أو العمدة .

يذهب أهل الخطبة بهذا المبلغ الى المدينة ليعدوا الجهاز ، وهو فستان الزفاف الاحمر وقيصان وسواران من ذهب (يتراوحان بين ١٠٠ و ٢٠٠ قرش) والاثاث وهو : ابريق وحلتان من النحاس وطست والمائدة المستديرة (الطبلية) والصندوق المكسو بالزنج والمشمعل على عدة ألوان ، وهذه العادة نفسها متبعة فى « القبيل » . وحينما يكون المهر كافياً يشترون حشية محشوة بالقطن أو بالقش ، ووسادة أو وسادتين ولحافا .

وفى يوم الزفاف أى حينما تترك العروس منزل والدها الى منزل زوجها ، فان

(١) كان من بين الـ ٣٠٧٨٤ مسألة اللواتى تزوجن فى سنة ١٩٣٤-١٥٢٤٨ عذراء و ١٣٨٣٧ مطلقة و ١٧٠٩ أيم ، وكان من بين الجميع ١٢٦٨٨ دون العشرين . وفى سنة ١٩٤١ كان لمديرية المنيا شرف الفوز بأشد نسب الطلاق انخفاضاً وهى ٩٠٣ فى الالف بينما كانت هذه النسبة فى القاهرة وفى السويس : ١٢٠٨ فى الالف

كل هذه الثروة تحمل على جمل مؤجر لهذه الفرصة وتمر خلال القرية ، والفتيات يتقدمن الجمل ويتبعنه مغنيات ومصفقات ، وأهل القرية البسطاء يعجبون بهذا الثراء الذي يمر أمامهم. وذلك يحدث بعد الظهر ثم يجيء دور رحيل العروس فتزدهم جماهير النساء والاطفال الى غرفتها لرؤية حلاها وحلها . وفي عشية الزواج يكون النساء قد أحمنها وخضبن يديها ورجليها بالحناء . ولكي تنال صديقاتها اللواتي بلغن سن الزواج مثل حظها يقرصنها في فخذهما .

يتألف الموكب فتركب العروس على ظهر جمل أو في سيارة قديمة مخبئة تحت قماش احمر أو أبيض ، ومعها اثنتان أو ثلاث من قريباتها تحت المظلة . والرجال يطلقون البنادق في الهواء (هو تأثير عربي) بينما تتعاقب زغاريد النساء وجوقاتهن ويكون الزوج هو الآخر من جانبه قد استعد فاستحم في منزل أفضل أصدقائه . وقد نقلت اليه ملابس الحفلة وأتى (المزين) ليجمله وليضع له الحناء ، واجتمع الناس في الخارج لينظروا خروجه ، وأخيراً وبعد أن يستعد يحيطه رفاقه بشموع ويتألف منهم صف يحمل النور ، وهو يمسك منديلاً أبيض يضعه على وجهه كما لو كان يتحجب ، وهم يترغون بأغاني الحب واللذة (المواويل) ثم تدوى أصوات الطلقات النارية وتلقى النساء على الرجال قبضات من الملح ، وأخيراً يصل الموكب الى منزل والد الزوج فينتزعه أصدقاؤه من الجمهور ويجذبونه الى الداخل حيث تكون العروس موجودة بالفعل بين النساء اللواتي تحققن من بكارتها .

واذ ذاك يتم الاتصال بدون كثير من التستر (١)

وفي الخارج وبين صياح الجماهير يدوم الغناء والرقص طول الليل ويستمر الى اليوم التالي وتوزع حلويات ملونة وفطائر بالزيت ، وفي هذا اليوم لا يوجد أثر للاقتصاد

(١) الهلباوى ، الريف المصرى ، ص ١٦٩

والشباب بعد زواجه يظل من اسبوع الى خمسة عشر يوما بدون عمل يدوى ، وفي هذا الوقت يدعونه بالامير .

يتأسس البيت الجديد ويظل متعلقا بالا بوبين عدة سنين ، ولكن هل سيبقى
بزوجة واحدة ؟ نعم اذا كانت الزوجة ماهرة ومطبعة لحماها ، واذا أنجبت عدة
غلمان ، ونعم ايضا اذا كان الفلاح فقيرا لا يستطيع أن يدفع نفقات زواج آخر . وعند
المسلمين الاستحواز على أربع زوجات والتطليق شرعيان تماما . فهل يستفيد
الفلاح من هذه الرحوبة القرآنية ؟ قليلا ، اذ أنه يلاحظ في الاعوام العشرة الاخيرة
انخفاض محسوس في تعدد الزوجات وفي الطلاق « والسبب في ذلك ناشئ من
ازدياد بأساء الفلاح أكثر من نشوئه من انتشار المدنية » . هكذا قال لنا أحد
موظفي الاقاليم ، ولهذا لما كانت مصر السفلى أكثر ثراء فانه يشاهد فيها التعدد
أكثر منه في الصعيد . وللتطليق يكفي أن يعيد الزوج ثلاث^(١) مرات عبارة التسريح :
الطلاق ، ولا شيء أسهل من هذا ، ولكن لما كان ينبغي أن يضمن الزوج نفقة
الزوجة المسرححة وأن يدفع مهر بديلها ، فان الفلاح يظل في أغلب الاحايين بزوجة واحدة
ينبغي الانتباه ايضا الى اعتبارات أخرى ، فلاحضاء ثبت بالنسبة الى الاهلين
للقرويين رجالا بمقدار النساء تقريبا . ففي سنة ١٩٣٧ كان في مصر كلها ٧٩٤٧١٩٣
رجلا مقابل ٧٩٥٧٣٣٢ امرأة . وبما أن الكل يتزوج ..

وفوق ذلك فنحن نعتقد أن القانون الطبيعي والتأثير المسيحي الذي تمثله الاسرة
القبطية يقاومان التقاليد الاسلامية .

(١) ليست اعادة لفظة الطلاق ثلاث مرات ضرورية لتحقيق التسريح ، وانما
يكفى النطق بها مرة واحدة ؛ أما هذا التثليث فهو يحول دون عودة المرأة الى عصمة
زوجها حتى تتزوج بغيره « المترجم ،

وأخيراً ان سني العمل والبأساء (١) الممضاة مشتركة ، والاطفال وإدارة الزوجة الجيدة تخلق ارتباطاً هو من الوجهة العملية غير قابل للانحلال .

هل يمكن التحدث عن الحب ؟ ان الجاذبية الجنسية والرغبة في الإنسال تبتدوان في المحل الاول .

ان مزاج الفلاح - وعند المرأة أشد منه عند الرجل - هو حاد وشهوانى بشكل خاص ، والفلاحة المستمتعة عادة بصحة أحسن من صحة الفلاح الذى تضعفه البلهارسيا هي أصغر منه سناً ، وهي - منذ العصور الاثرية ورغم الاسلام - (٢) حرة في تصرفاتها .

تتطلب منها تقاليد القرية تحت عقوبة الموت أن تحمل الى زوجها جسماً طاهراً ، ولكن روحها تكون على غير ذلك منذ وقت طويل ، فهي منذ الطفولة تعرف وترى الصلات الزوجية بين والديها ، إذ أن الاختلاط مألوف بسبب ضيق المكان وفقدان الحياء ، وأن محادثات الفلاحات حتى أمام صغيرات الفتيات تدور دائماً حول هذه المسائل ، وقد يكون ذلك دون رذيلة ، ولكنه أيضاً دون تحفظ ، وهن يتبادلن وصفات وطقوساً لكي يرقن أزواجهن ، أو يحتفظن بهن .

وكذلك الرجال من جانبهم - وإن كانوا أكثر تحفظاً ولكنهم ماديون جداً بسبب حياتهم نفسها - لا يفهمون إلا الحب البدنى ، وهم يلقون بأنفسهم إليه في بساطة ،

(١) قد نوه حضرة صاحب المعالي عبد الحميد عبد الحق وزير الشؤون الاجتماعية بهذا في جريدة (البروجريه اجيسيان بتاريخ ١٣ مارس ١٩٤٣) اذ قال : ان اختلاط المسلمين بالاقباط في مدن وقرى الصعيد قلل الطلاق اذ دهش المسلمون حين شاهدوا عدم الطلاق بين الاقباط المحيطين بهم ، وأعلن أن بلدته (ابوقرقاص) - وثلاثة ارباعها من الاقباط - لم يحدث فيها طلاق واحد من عشرين سنة وكذلك مديرتنا المنيا واسيوط عدد الطلاق فيهما قليل وقليل جداً

(٢) لم يضايق الاسلام المرأة في تصرفاتها وانما منحها الحرية ما دامت في حدود الأدب والاحتشام . المترجم ،

كل مع زوجته . يقهرهم على الأمانة قانون القرية أكثر مما يقهرهم عليها الفضيلة ، إذ أن الزنى يغسل في الحال بالدم ، وكذلك تضطرهم إليها الفاقة ، إذ أنهم لا يستطيعون اصطحاب فتيات اللذة .

لا تدوم نار الهوى طويلاً ، فالفلاحة تفقد فتنها في الثلاثين ، ولكن الأولاد الذين أنجبتهم لزوجها يربطونه بها ، إذ كل منهما يجعلهم فوق كل شيء . ، فأما هي ، فلكي تنال اعتباراً اجتماعياً ، لأن العقم وضاعة ، وهو أوفر الأسباب جلباً للطلاق (١) أولتعدد الزوجات . وأما هو فلكي يفوز بمعينين وخلفاء يسمحون له بالراحة وبإصدار الأمر .

وهكذا كان النسل كثيراً ، فالأسر ذوات خمسة أطفال أحياناً - وذلك يتطلب وضع ثمانية أو عشرة - هي أكثرية وبقدر ما يكبرون تنال والديهم من الأهمية . وأخيراً إن الذي يربط الرجل بالمرأة هو مهارتها وسلطانها اللتان تفوقانه غالباً « إن الرجل نهر والمرأة جسر » . (مثل فلاحى) .

بعد زواجها بخمسة عشر يوماً وإلى أن يبلغ ابنها الأكبر خمسة أعوام هي دائماً في موسم القطن تساعد زوجها في الحقول ، ولكنها - على العكس من القروية العلوية - لا تقوم بالعمل الضخم .

هي في أغلب الأحيان مشغولة في منزلها وذلك حسبها ، لأنها طحانة وخبازة ، وهي تطعم وتحلب الجاموسة والماعزة وتعنى بالطيور وتعد السماد والوقود ، وتخيظ وتغسل الملابس أو تتفلى في جماعة .

(١) في سنة ١٩٣٤ كان من بين ٣٢٧٨ طلاقاً ٢٣٩٦ قد فرقت بين أزواج بدون أولاد . وفي سنة ١٩٤٢ بلغ عدد الطلاق ٦٨٠٥٥

إنها تذهب وتجيء حرة في حدود التقاليد القروية ، فهي لا تختبئ من الرجال كالثرية أو كالحضرية ، ويجب عليها أن تحمل الطعام (الفطور) الى زوجها الذي يشتغل هناك ، وتعود بأرواث الجاموسة وأن تذهب لاجتماع الماء عدة مرات في اليوم ، والى السوق لتبيع بيضها وزبدتها وطيورها وتشتري الزيت وما شا كله ، وهنا تلين الشدة القرآنية (١) أمام الضرورة والتقاليد .

تحتفظ الفلاحة بملكية الأثاث الذي أحضرته يوم زواجها وبثمن ما تبيعه . هي تدخر وتعير زوجها ، وهذا يعطيها شيئاً من السلطة . وإذا اضطهدا زوجها فأنها تنسحب الى منزل والدها ثم تضع لعودتها شروطاً كقستان أو قرط . . . إن حاجتها الى زوجها أقل من حاجته إليها .

منذ سنتين في أثناء الاستيلاء على الرجال لمواجهة خطر الفيضان كانت امرأة تولول فقلنا لها : لا تحزنى فقد أخذ منك زوجك وسيرد إليك . — ليس زوجى هو الذى أبكيه ، وإنما هى جاموسى التى لا أجدها ابحتوا لى عن جاموسى .

تستمع الفلاحة بهذه الحرية وتلك السلطة ما دام لديها من الحكمة ما يجعلها لا تخرج على التقاليد ، إذ هنا يسترد الرجل سيادته فهي تموت ولا تدع نفسها للطبيب يفحصها أو يعالجها . هي تخرج وتتحدث مع رفيقاتها كما تريد ، ولكن الويل لها إذا فوجئت في رفقة رجل أو منفردة في مكان لم تعودده . وإذا هوت في الإثم فان زوجها يتهمها أمام والديها ، وإذا ذاك يتعهد أبوها أو أخوها أو ابن عمها بقتلها . وجرائم القتل بسبب العرض التى هى لا تزال مألوفة إلى حد كبير والتى هى محبذة من

(١) لا نرى ان هناك شدة قرآنية تلين أمام الضرورة في هذا الصدد ، اذ الاسلام الصحيح لا يقهر المرأة على القبول في بيتها ، بل هو يبيح لها المساهمة فيما تستطيعه من الاعمال ان لم يوجبها عليها ، المترجم ،

الإسلام^(١) ان لم تكن من أوضاعه ، تلقى رحمة العدالة الرسمية . وقسوة العقوبة هنا لا يعوزها التناسب مع الخطيئة فحسب ، ولكن مع تربية المرأة على الأخص . وهاك مثلاً من بين مائة (٣ مارس سنة ١٩٣٧) .

بينما كان محمود احمد عبد الله مغادراً قرينته القريبة من نجع حمادى متجهاً الى الحقول كعادته ، إذ علم في الطريق أن شقيقته الأيم البالغة من العمر ٣٥ سنة قد أغواها رجل ، فلما سمع هذا النبأ عاد فوراً الى القرية وتوجه الى منزل أخته ، وعلى أثر ذلك ودون أن يندس بينت شفة قبض على فأسه الذى كان معه وهوى به على جمجمة تلك التعسة فحطمها . ولما انتشر خبر الجريمة ، اتجه مأمور المركز ووكيل النيابة ومفتش الصحة الى موضع الحادثة ، وقد ترك المتهم نفسه لرجال الحفظ يقبضون عليه بدون مقاومة ، وقدم هو نفسه الآلة التى استعملها فى قتل شقيقته . وبعد أن اعترف بجريمتة أعلن أنه قد أراد الانتقام لشرف أسرته .

يمكن أن تدير المرأة المنزل إدارة واقعية ، فهذا يتجاوز عنه ، ولكن الويل لها عندما تقصر فى احترام زوجها كأن تمشى أمامه حين يذهب الى السوق ، أو أن تجيء لتكلمه أو تتحدث بصوت عال بينما هو يتحدث أو يلعب مع رفاقه ، هو لا يدعوها ألبتة باسمها ، ولكنه يقول لها : (يا مرة) ، أو يا بنت ، أو يا أم احمد مثلاً ، وهو يظهر أنه هنا الرئيس بتصنعه احتقارها ، وبعد ابداء أى حنان نحوها . وبقدر ما يتقدم فى السن يتطلب الاحترام ويكتفى به . ولقد قال لنا أحد الفلاحين :

« ان زوجتى أنجبت لى عشرة أولاد ، عشرة أولاد ليس بينهم واحد أحول

(١) لا يحيد الاسلام جرائم القتل الفردية بسبب الاعراض ، وانما هو يعذر مقترفيها فيخفف عقوباتهم ، أما رجم الآثمة المحصنة وجلد الغير المحصنة فامرهما موكل الى الوالى لا الى الافراد ، وهو فوق ذلك لا يبيح العقوبة الا بعد تحوطات صارمة ، المترجم ،

ولا أعمى . . هم يحيطون بي فأحس أنني عظيم ومحترم . وبفضل أمهم لم تقدم أقدامهم قط الى طرق العار . انها تمسح لهم المخاط وتنظفهم وهي توصيهم دائماً أن يقبلوا يدي عند عودتي من الحقل ، وان ينهضوا إذا كانوا جالسين عندما أدخل الحجرة وألا يدخلوا أمامي ، وأن يبدؤوا بتقديم الطعام إلي .

إن الفلاحة التي يمكن أن تكون أما من الرابعة عشرة إلى الخامسة والأربعين تضع حملها كأبسط ما يكون في العالم جالسة على طريقة المصريات الفرعونيات ، والطوارئ السيئة نادرة .

ولكن هذا الحادث يجب أن يسبق ويلحق بكثير من الأعمال المعدة لضمان أكبر قدر ممكن من الصحة والسعادة للطفل . وفيها الاحتياطات السحرية تفوق كثيراً العناية الصحية ، والآن مقتنعة بأن جميع ما ستنظر إليه بانتباه أو تشهيه بقوة أثناء حملها سيؤثر في الطفل الذي سيولد . ولهذا هي تتجنب أن تنظر الى متوفى ، وهي بالعكس تحديق الى صور حسان الرجال ، وهي صور « ايينال » أو المجلات المصورة التي تلتصقها على الحائط . وينبغي ان تستطيع أكل ما يعجبها . فاذا حرمتها ، فان الوليد سيتأثر بنتيجة ذلك تأثراً سيئاً

على أثر ولادة الطفل يوضع في (مقطف) يستعمل كمهد له . ولا يحجم قبل اليوم السابع . وهذا الإحمام الأول فيه معنى التطهير . وتقوم به القابلة بوساطة إبريق يستعمل خصيصاً لهذا العمل . وهو يختلف في حليته تبعاً لكون الطفل ذكراً أو أنثى . وكذلك حسب ما يكون غلاماً أو فتاة تلحق الأم بنجاسة شرعية إبان ٤٠ أو ٣٠ يوماً . وهي عادات إسلامية ^(١) تجدها في المغرب .

(١) يريد المؤلف ان يقول انها عادات شائعة في البلاد الإسلامية ، اذ الاسلام نفسه لا يفرق بين النفساء في انثى والنفساء في ذكر . المترجم .

إذا كان الوالد في وقت الوضع يعمل في الحقل وكان الوليد ذكرا ، فاتهم
يسرعون بنقل ذلك النبا السار اليه . وهنا يكون للرسول الحق في هدية ، وهذا
التقليد يذكرنا بأحد نصوص «جيريمي» وهو : «... لتسقط اللعنة على الرجل الذي حمل
النبأ الى والدي قائلا : إن ابنا قد ولد لك وغمره بالسرور ... ليكن ذلك الرجل ...
النخ » . (١٨ - ١٤ ، ٢٠) .

وعند ما يولد الطفل تعلق خرزة زرقاء في عنقه لتجنب الحسد ، ولنفس الغاية
يخفي الغلام الذي يتباهى بجماه تحت ملابس فتاة الى الفطام ، وأمه ترضعه إبان عامين
على الأقل مكثرة رضعته بدون تبصر ، وهذا يحدث التهابات في المعدة والامعاء .
نحن نشاهد نفس هذا التعيين في مدة الرضاع عند قدماء المصريين وفي أفريقيا السوداء
وفي أوامر القرآن ، « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » (سورة ٢ آية
٢٣٨) . تعتقد الفلاحات أنهن بتأخيرهن الرضاع على هذا النحو يطلن مدة عدم الحمل .

وعند ما يجب أن تخرج ، وهذا لا يتأخر كثيرا ، تحمل الطفل على كتفها كركوب
الحصان ، وذلك لا يمنعها من أن تحمل فوق رأسها (البلاص) مملوءا ماء ، وحينئذ تعمل
في الحقل تترك وليدها على الأرض بالقرب من الطريق المتغلغل في الزراعة تحت
ظلال حطب الذرة ، وهو ليس دائما فوق قطعة قماش ، هو يتدحرج في شق المحراث
ويحمل الطمي الى فمه ، ويصيح وينام ويتعود . وإذا بكى كثيرا فان كل أم تمر من
هناك تعطيه ثديها .

يظل الطفل في المنزل الى مناهزة العام الخامس ، فيتعود سريعا على إلفة
الحيوانات التي تعيش فيه ، ثم لا يلبث أن يصير في حالة تمكنه من الانشغال بها كأن
يعرف كيف يقود الحمار الى الحقل ، والجاموسة الى القنابة ويركب فوق ظهرها ،
و يثيرها في دوران الساقية ويعرف كيف يصيح لذود الطيور السارقة ، ويقذفها

بالحجارة ، ويجمع القطن ، بل يبذره ، وهو لا يفعل كل هذا دون أن يتلها كثيرا ولا تعوزه الرفاق ، فطول النهار بينما يكد الرجال في الحقول ، وتعمل النساء في المنازل أو في القناة تكون القرية للأطفال ، وهم الذين تقع عليهم عين الداخل قبل كل شيء : يعيشون عراة في المستنقع ، ويتعلمون السباحة ، وبطونهم كبيرة مستديرة ، لأنهم يأكلون من كل شيء . هم يلعبون في التراب لعبة النحلة بالبصل ، ويقفز كل منهم على رجل واحدة ممسكا بإبهام رجله الأخرى ، ويرمون بالنبله قاصدين نخلة أو طائرا . وفيما بعد يلعبون (السيجة) وهي أحجار صغيرة يضعونها في ٤٩ مربعا يرسمونها على الرمل .

وحوالي السنة السابعة يدخل الختان الفلاح الصغير في طبقة الرجال ، وبعد ذلك ينبغي أن يذهب الى المدرسة الإلزامية في الصباح على الأقل ، إذ أن والديه مضطران إلى إرساله إليها تحت تهديد عقوبة غرامة قدرها ٢٥ قرشا (و ٥٠ قرشا إذا تكررت المخالفة) . يوجد بين الفلاحين خمسة وتسعون في المائة أميون ، وتريد الحكومة أن تمحو هذا العار في الجيل المقبل . قضى دستور سنة ١٩٢٣ بالتعليم الإلزامي ، ولكن التطبيق لم يتعقب فيه إلا منذ سنة ١٩٣٥ . تعددت المدارس القروية وبنيت تدريجيا مؤسسات في كثير من القرى وأرسل إليها مدرسون . وفي كل عام تجذب بعض القرى - التي لم تر المربين فيما تعي ذاكرة الانسان - نفسها مزودة بطائفة من المعلمين ، وهكذا سيكون في سنة ١٩٤٦ - ٤٦٠٠ مدرسة أولية مجانية ، وسيتلقى جميع أبناء الاهالي التعليم ، ولكن الوالدين لا يفهمون هذه الخدائة . ولما كانوا معتادين على غير هذا الطغيان ، فانهم لا يذعنون له . وهناك صعيديون من عزبة بولكان التابعة لمركز طوخ عندما وجهت اليهم مخالفات ، لانهم لم يرسلوا أولادهم إلى الدروس الإلزامية في المدرسة الاميرية هاجموا المدرسين وجرحوهم ، ذلك لانهم لا يشتغلون إلا قليلا جداً بالتعليم ، وانما هم يريدون أن يعينهم أولادهم ، وأن يدرؤا عليهم ، وفوق ذلك فإن

منهج الكتاب لا يزال يحيا في كثير من القرى : مدرس أعشى جالس على الأرض يجمع حوله بضعة أولاد ، وهذه الطريقة لا تكلف كثيراً وهي تظل ساعتين أو ثلاثاً في اليوم أثناء ستة شهور من العام . وفي مدى ثلاثة أعوام يحفظ الفلاحون في ذاكراتهم وبضربات العصي قليلاً من القرآن . وفي مقابل عناء (الفقى) يتسلم رغيقين أو قرشاً من كل تلميذ في الأسبوع . ومنذ الآن حتى البنات الصغيرات يجب أن يتعلمن ، ولكن بعد الظهر . وفي الصباح يساعدن أمهاتهن ويقمن بإحضار ما يلزم من الماء ، وهن يحاولن أن يحتفظن باعتدال (البلاليص) الصغيرة التي توكل اليهن . وعندما يكبرن يستطعن أن يحملن على هذا النحو ٣٠ لتراً من الماء . وهن مكلفات على الأخص بجمع كل الأرواث والقمامة التي يمكن أن تستعمل في المنزل أو في الحقل ويصنعن (الجلة) : فبقليل من الحمأ والقش الناعم وكثير من الروث يؤلفن نوعاً من الملاط يعجنه بأيديهن وأرجلهن ثم يصنعن منه كرات يبسطنها على شكل أقراص ، قطر الواحد منها ٣٠ سم وهذه الأقراص تصف في الشمس على الأرض أو تلصق على الحائط ، فإذا جفت كدست على السطح وهي فحم الفلاحين^(١)

هن يتلهين بلعب قماشية كدمى ، ولكنهن غالباً إلى الثانية عشرة يختلطن بالعباب الغلمان ومشاكلهم . وأحياناً منذ السنة الثامنة إلى زواجهن يلحقن بخدمة السيدات الثريات (الهوانم) .

يمكن الاعتقاد بأن هؤلاء الأطفال الذين يعيشون في قطع ، والذين يبدو أنهم مهجورون ، والذين ليس لهم إلا أسماء شخصية هم ينتسبون إلى الجماعة ، وإن إهمال

(١) هذا النوع من الوقود هو زراعى بحالة جوهريه ، وهو مستعمل في أكثر الجهات اختلافاً أى في كل مكان يضطر فيه نقص الخشب وقلة السعة الأهلين الى اللجوء اليه . وهكذا يفعل الريفيون الصينيون وريفيو فرانس في أكثر من موضع .

والديهم اياهم وتركهم جم-لاء يشعر بأنهم لا يكتثرون بهم ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فوالدوهم يحبونهم إلى حد الجنون وأكثر كثيراً مما يحب بعضهم بعضاً . وليس بين هؤلاء - كما في الصين - يجد المرء أطفالاً يشتريهم ، والملاجىء وماوى الايتام هنا عبث تماماً ، وكثير من المنازعات بين النساء ، والمشاجرات بين الرجال تحدث من الإفراط في حساسية أحد الآباء أو إحدى الامهات : إذا أساء أحد معاملة ابنهما أو ضربه فان هذا يكفي لان يشمخا مقترسين ، وأن يخرجوا ابنهما من المدرسة وينتقما له في وحشية ، وان كان ذلك لا يمنعهما من استعمال الشتائم والضربات «للكوين» وارثيهما ، وكذلك الاطفال هم مرتبطون جداً بوالديهم ، وليس ارتباطهم بأمهاتهم أقل منه بأبائهم . وهو ارتباط يبدو أنه ناشئ من تقاليد اجتماعية ودينية ، ومن الخوف والسمعة أكثر من نشوئه من العاطفة .

ومع ذلك فحب الابن لأمه - ولو كان شاباً ومتزوجاً - هو العاطفة الأكثر جدارة بالملاحظة في الأسرة الفلاحية . وإذا نقص احترامه إياها كان منبوذاً من القرية كلها ، اذ : « الجنة تحت أقدام الأمهات » . وفي بيته الخاص هي التي تحكم مادامت حية ، وهي نفسها تميز به فتدعي : أم على مثلاً .

تؤلف هذه الصلة الرابطة الأسرية الأكثر متانة ، وهي متانة حالية كلها ، لان سلسلة الأسرة فيها غير معتبرة . فالأسرة القروية هي بدون أجداد ، وبدون اسم عائلي ، وبدون خصائص ، وبدون استقلال . وفي هذا أيضاً هي تفتقر عن الأسرة الصينية التي تشغل فيها عبادة الاجداد وشرف الاسم مكاناً عظيماً .

وهنا تتلاشى الخلقة الاسرية في جماعة الاقارب والاصهار الأقربين والأبعدين ، وهذه هي الأسرة بالمعنى الاجتماعى أى التي تحت سلطة عميدها تشترك في الجنائز والاعراس ، وتحتضن أحقاد كل عضو من أعضائها وتنتقم لشرفه ، وتلك صلة وفتية تماماً ، إذ أنها في مدى ثلاثة أجيال لا تعود تعرف .

وهكذا ليست الأسرة التي تقطن المنزل بأكثر منه في تأليفها كلاً متماسكاً . وكما
أنه لا توجد حياة أسرية لأنه لا يوجد منزل مريح ، كذلك لا توجد أسرة بالمعنى
الدقيق لهذه الكلمة ، لأنه لا يوجد رابط عميق .

الأسر هي جماعات تعمل في الأرض ، والأطفال يولدون للعمل في الأرض ،
والحياة الخاصة تتابع في إطار من التقاليد التي تربطها بالأرض .

الفصل الثامن

التقاليد الريفية

هناك تقاليد وأفعال وطقوس ينقلها الناس من جيل الى جيل دون أن يحكموا عليها ولا أن يتدبروها ، بل ولا أن يفهموها . (١)

تقاليد ريفية تبين لحة القروى بالارض وقرابة الجماعة الفلاحية مع الماء والحقل وثمارهما .

هذه الصلة العميقة قد بدت لنا واضحة بعد أن رأينا عمل الفلاح وجسمه ومسكنه وقبل أن ندخل في دراسته النفسية (في الفصل الآتي) ولكي نفهمها جيدا يجب أن نعرف بعض تصرفاته الريفية ، وهي توجد في كل لحظات الحياة الاجتماعية ، وهي ليست اعتقادات خرافية فقط ، ولو أنه كان يجب علينا أن نوضح أصل كل واحدة من هذه العادات المتبعة ومعناها لتحيرنا كما يتحير الفلاحون أنفسهم ، ومع ذلك فإنها تنتزع منها فكرة عامة ، وهي فكرة صلة غامضة بين الطبيعة والانسان . ففي اللاشعور عند ذلك الذي يكرر تلك العادات يلح المرء الإحساس الفطري بالانتساب الى الارض ، وهذا الإحساس قد ساهم كثيرا في ركود العالم الفلاحي .

يلاحظ المرء عند الفلاحين احتراما عظيما للماء ، والماء الآتي من النيل ، ولكي لا ينتزعوا منه حياته لا يرشحونه ، وهم يقدمونه الى المرسل الديني (٢) الذي يمر بهم

(١) سليم حسن ، « العادات المصرية الباقية الى الآن في مصر الحديثة » نشرة جمعية أصدقاء الفن القبطي ، المجلد الثاني سنة ١٩٣٦ ص ٤٧ - ٧١ .

(٢) هذا تقليد خاص بالمسيحيين « المترجم »

ليباركه ، و يقدمونه كمشروب مألوف ومحبوب . هم لا يحتاطون من الماء ، ولا يميزون منه ما هو للاستعمال الداخلى مما هو للاستعمال الخارجى ، فكل ماء حسن كالنيل الذى يأتى منه .

يمر عيد عروس النيل (عيد الخليج) عند تمام وفائه فى القاهرة ، ولا يساهم فيه الفلاح ، ولكنه يشعر أكثر من جميع الحضريين بأن النيل ذكر حى . يجرى النهر دائما فى أفقه سواء أكان ذلك بالقرب منه أم على بعد كأنه خيط ، وهو يلجأ اليه أكثر مما يلجأ الى بنى الانسان ، نعم هو لا يتوسل اليه كما كان أجداده يفعلون ، ولكنه يعيش فى صحبته ، بل يمكن أن يقال : إن حبه فى دمه .

توجد بين النيل والفلاحين نفس الصلة المتينة التى توجد بين المحيط وسكان شواطئ برتانيا الفرنسية . أ. يدعوونه بالبحر ؟ ألا يدعون حقولهم بالشواطئ (الارياض) ؟. انهم يربطون بزيادة النيل فكرة الخصوبة للنساء ، والصحة للرجال ، فيحتفل بالزواج على التفصيل فى ذلك الموسم . وعندما يكون الطفل نحيفا أو مريضا تحمله والدته الى النيل فى ذلك الحين أيضا وتجعله يلقى فطائر وتقرأ الى الموج الطامى بينما هو يكرر قوله : «يا نيل اجعل قوتى تزيد كقاعك» . والفلاح المحتضر قبل أن يلفظ نفسه الأخير يسقى جرعة أخيرة من الماء الحى .

« تكرم يارب وبارك مياه النهر فى هذه السنة ، واجعله بفضلك يصل الى الارتفاع الموافق ، ومتع وجه الارض بأن تكون حقولها مروية ، وغلاتها متضاعفة» (قطعة من القداس القبطى) .

إن طمى النيل يساهم أيضا فى عادات الحياة والموت ، فالفلاحة قبل وضعها تتحامل على نفسها الى شاطئ الماء وتأخذ قبضة من الحما وتبتلعها أثناء الولادة لتغور بوضع سعيد .

وعند ما يخلق المزين شعر الطفل للمرة الاولى ، فان شعر هذه الحلاقة الطقوسية لا يطير في الريح ، وانما هو يوضع في كرة من الطين ويلقى في الماء . . .

وللتدليل على الألم تطلّى الباقيات بالطين صدورهن ورؤوسهن وأذرعتهن .
وجثمان المتوفى يوضع في الأرض بدون تابوت ولا ملابس .

ينحني الفلاحون في الأرض القدور التي تحتوى عل مدخراتهم وعلى الطلاسم السحرية التي يجب أن تعمل عملها ، وكل ولادة تطيع الأرض بطابعها : فالمشيمة تدفن في المنزل ، وحبل السرة يوضع في كيس مع حبوب من الغلال ويغيب في حقل الأب .

تمنّج ثمار الأرض أكثر من هذا أيضا بذلك التنسك القروى ، فالتشابه بين الحياة النباتية وحياتهم الجسمانية الخالصة يحملهم على الاعتقاد بوجود تأثير بين هاتين الخصوبتين ، واحتفال اليوم السابع (الإحمام الاول ووضع الاسم) يحتوى غالبا على التقليد الآتى : تحمل الى الحجرة ثلاث قفف مملوءة بالحبوب المختلفة ، احداها مغطاة بغربال ، فوقه يرقد الطفل ، وفي ساعة الإحمام تهز القابلة الغربال كأنها تغربل الطفل والحبوب في آن واحد ، ثم تعيد الحبوب الى القفة وتلف الوليد وتنثر فوقه بضعة حبوب .

بنفس الكلمة التي يعين بها حجب الأطفال عن الرضاع وهى الفطام ، هم يعينون المرة العاشرة والاخيرة من سقيات الذرة ، وفي ذلك اليوم تقدم الفطائر الى العمال على نحو ما يقدم الى الام عند الرضعة الاخيرة .

توافق جمع الغلة دائما إشارات رمزية ، فقبل بدء الحصاد تصنع من أحسن السنابل دمية تدعى : (عروس القمح) وتظل معلقة في المنزل الى السنة التالية كمجلبة للسعادة .

وكذلك لوصل الحياة يخلط أحسن الحبوب ببدور الغد . وفي (الجرن) يدس شيء من الخبز في الكومة المراد تدريتها وغربلتها .

« كنت أدخل المنازل وأبارك الماء والخبز والقمح : فالأء كانوا يشربونه ويرشونه على أنفسهم وعلى مواشيهم وفي منازلهم ، والقمح كانوا يلقونه في حقولهم ، والخبز كان لا بد لي من أن أكسره وأذوقه . وعلى أثر ذلك كانوا يحفظونه في مدخرهم ليباركه الاله » . (تقرير مولاي خزام نوفمبر سنة ١٩٣٧ بعد زيارته الأسقفية) .

يشع سرور الغلة على الذين لم يزرعوا ، ولكنهم يشتغلون في القرية للجماعة . فمن التقاليد أن تقدم طليعة الإنتاج إلى قارئ القرآن ومؤذن المسجد والحلاق و (فقي) الكتاب والنجار . كل هؤلاء يأتون ليمسحوا عن حزمهم ثم يلتقط الفقراء سنا بلهم .

أما جنى القطن ، فهو لا محل فيه لأية مراسيم ^(١) ، وقد يكون ذلك لأنه نبات أكثر حداثة ، وقد يكون لأنه زراعة رأسمالية لا ترمز إلى القوت ولا إلى الحياة اليومية .

وعلى العكس من ذلك النخل الذي هو قديم بقدم مصر الزراعية يدخل في جميع أوقات الحياة القروية ، فالظلال والسقف والأسرة والأقفاص والحبال والمكانس ، كل هذا من تلك الشجرة . وقد رأينا السعف يزين هودج العروس والقبر .

وفي صبيحة الزواج يجرد الزوج سعة من خواصها ، ويشقها من طرفها ويذهب

(١) ومع ذلك ففي التينيسي بالولايات المتحدة مثلا يوجد عيد القطن فيه تنتظم مواكب وصفوف من المركبات مدى أربعة أيام من شهر مايو في مدينة ممفيس . وأول هذه الاعياد أقيم في سنة ١٩٣١ . ولقد صار (كرنفال) القطن سريعا احد متع امريكا الأكثر شعبية . راجع المجلة الجيوغرافية الاهلية مايو سنة ١٩٣٩ ج . بيلور . لوحات تينيسيه .

إلى أصدقائه فيمسهم بها ، ليحمل إليهم السعادة ، فضرب الرجل بجريدة خضراء بركة ،
والسعف هو زهور الفلاحين ، إذ لا يوجد موكب حفلة ولا حداد بدون مساهمته ،
وتناول طلع ذكر النخل ممتزجا بالماء شراب سحري لإزالة العقم ، وعلى الضد من
ذلك ابتلاع نواة أو اثنتين أو ثلاث يمنع الحمل سنين بقدر عددها .

يختلط السحر بالطب في الاستعمال التقليدي لمنتجات الأرض لاجل حفظ الصحة
أو إعادتها . وقليل من التجارب وكثير من الخرافات يوضحان تلك المجموعة المدهشة
من الصفات والتعويذات الموجودة لدى الفلاحين . إنهم قد كونوها مما تحت أيديهم
فنتقيع خوص النخل أو ورق الذرة لاضطراب الأمعاء ، وعصير البصل وفحم حطب
القطن للأعين ، وصمغ السنط للعظام المكسورة ، وأربطة القنب للأورام والروماتيزم
وهكذا يتعلق العلاج كما ترى بالكفايات النباتية . ونحن نضيف إلى ذلك أن نتيجته
تتعلق في جزء كبير منها بالتصديق . تمتد الخرافات إلى كثير من تلك التقاليد الغير
المؤسسة على العقل والتي هي صاحبة السلطان . ولكي يصف المسيو «بلاكمان» صورها
الكثيرة هو يخصص لها أكبر أجزاء كتابه^(١) كما لو كانت كل حياة الفلاحين تتابع
في هذه المنطقة الخارجة عن العقل . يخيل إلينا أن الكتاب يلحون أكثر من اللازم
على خرافات الفلاحين . هم يعددونها برخاء . وعلى الرغم من كل ما نشر في هذا
الصدد لم تغلق الدائرة . فما الفائدة من إغناء المتحف بها . انه ليس متحفاً مبتكراً ،
فكثير من هذه الطقوس عام في الشرق أو في الاسلام^(٢) وأما الأخرى التي تصعد
فيما وراء المسيحية إلى مصر العتيقة فهي تتم عن الركود الذي رسمنا هيكله .

انه من المحقق أن هذه العادات الشائعة تبين عزلة الفلاحين أكثر مما يبينها نوع
حياتهم ، وتولد ذلك المنعزل الذي « يصنعه الانسان لنفسه بكل ما يكدره فوق

(١) أنظر الكتاب المذكور في المصادر .

(٢) يقصد البلاد الإسلامية لا الإسلام نفسه . « المترجم »

متنجاته . الى ذلك النوع من الحياة الذى يدفن الفلاح بالفعل ، هو يضيف أقال
تقاليد الدينية .

في احترام الماضى الذى يتدثر بالغموض - بسبب جهل الفلاح - قد تكون حاجز
هو يعتبره غير قابل للتخطم ، حاجز يحتفظ بالافراد ويؤيدهم ، ولكنه فى الوقت
نفسه يخنق حريتهم وابتكارهم وينيم عقولهم الى حد أنهم لا يعرفون كيف يميزون
الجوهري من الطفيلي .

ومع ذلك فهذا العناد الداخلى مهما يكن منتشرأ لا يؤلف كل نفسية الفلاح ، هو
حد الضواغط التى تنوء عليه : كضغوط الأرض وضغوط الأحياء ؛ سيئاته عظيمة ،
أولئك لا يهدم روحه أكثر من ذينك المشوهين الآخرين . . .

الفصل التاسع

نفس الفلاح

لا يعيش الجنس القروي الا من نفسه . هو ينمو كالتحل مؤسساً مأوى جديدة ، ولكنه لا يتلقى أى عنصر أجنبى ، وفي هذا قوته وضعفه ، اذ المرء يولد قروياً ، ولكنه يصير عاملاً ، وهنا يقدم فعل البيئة أى فعل الداخل استمراراً يستحيل عليه ألا يترك أثره ، لافى جسم من يعيش فى تلك البيئة فحسب ، بل فى نفسه أيضاً .

هذه البيئة نحن نعرفها ، وهى وادى النيل وخصوبته ، والنظام الاجتماعى وضغطه . تستعبد مطالب أحدهما والآخر الفلاح ، فحياته تبعية : تبعية للأرض وللأشياء وللأحياء وللأموات ، يطيع الفلاح دائماً كأنه طفل قاصر ، وفى هذا المظهر - على ما نعتقد - يرتسم خط مزاجه .

ومهما تكن الدراسة النفسية العامة جد وعرة وجد جاححة الى التعميم المغالى ، فاننا نستطيع مع ذلك أن تقدم فى شىء من التأكد الخصائص الأساسية للروح والطبع الفلاحيين . إن العوامل العامة والبلد والجنس والدين والحالة الاجتماعية ونوع الحياة ، وبالاختصار : كل تلك الوحدة التى رأيناها فى الفصول السالفة تسمح لنا بأن نعبر عن نفس الفلاح بصيغة الأفراد .

سيكون من السهل ، ولكن من العسف أن نحكم عليه من وجهة واحدة كما يحكم عليه سادته ، اذ يقولون لنا ما يلى :

« الفلاح كسول ، وكل مجهود بدنى يشق عليه ، ولهذا هو يفضل أن يستعفى من تحسين حالته على أن يتعب . . . »

«ان الفلاح الحافظ للجميل جد نادر ، فمهما يكن الخير الذى يقدم اليه لا يوجد عنده ابدا تقريبا أقل انعطاف نحو أصحاب الأعمال ، فأمامهم يقسم الأيمان ويظهر نشيطا وعاملا ، وعندما لا يكونون موجودين يعود كسولا رخوا ولا يبدأ بأى شئ ، انه شعب جبان مستكين» .

«إن الفلاحين أغبياء وميالون الى الشر ، وعندما يستطيعون الخداع يخدعون» .
وهناك ملاك ونظار آخرون أكثر تفاؤلا ، فهم يقولون لنا مثلا :

« إن فلاحينا - تحت الظواهر المليئة بالضجيج - ودعاء ومسالمون وسعداء *
بمخطوئتهم ، ولكنهم لا يحفظون الجميل كثيرا . وفيما عدا الأرض لا يهمهم شئ» .

« إن الفلاح دائما متفائل وحافظ للجميل وعامل ووفى » .

يبدو بعض هذه الاحكام متناقضا مع البعض الآخر ، ونحن التقطناها من بين شهادات من مصر السفلى كما هى من مصر العليا ، وهي لاتصل الى أن تكون صورة صادقة رغم حسن نية الذين ينقلونها إلينا ، والسبب في ذلك هو عدم تقديرهم الفلاح .

ومع ذلك فهى حقائق تلك التى يؤكدونها ، ولكنها حقائق متحيزة وجزئية والواقع الحى أكثر تنوعا من هذا . ولقد يكون من السذاجة أن يقال - لحل تلك التناقضات الظاهرة - إن الانسان يولد خيرا ، والجماعة تصير شريرا ، أو ألا يرى المرء الا مظهرا واحدا حسب الميل أو النفور الذى يحمله للموضوع ، أو حسب تفاؤل مزاجه الشخصى وتشاؤمه . نحن نأخذ كل شئ ، لأن كل شئ حق ، فنوائى النفس - كمرئيات المناظير المجسمة المبرزة - لا تتضح الا بتقريب المظهرين بوساطة جمع كل العناصر .

لنلاحظ بديا - ويمكن أن يكون ذلك شيئا قد تنبى به عن طريق الفصول السابقة - أن عمومية ذكاء الفلاح أكثر من خصوصيته ، وجهوده أشد من حركته ،

وسليته أعظم من إيجابيته ، وإن حكمته وتجاربه متماسكة من أمثال ذات مغزى تتفصل حسب ظروف الحياة المختلفة وتعنى من التفكير الشخصى .

يحافظ الفلاح ويعيد ولكنه لا يبتكر ، والتحسنتات والاختراعات المدخلة الى الزراعة أو الى السكنى مثلاً لم تتأت منه ، وإنما فرضت عليه فرضاً . ومن كثرة القبول والتلقى والاحتمال قد هزل ذكاؤه وصار سلبياً ، ولم يعد مهتاجاً الى البحث عن جديد أى الى التعرض للاخطار وتعكير ذلك النعاس الذى يقيه من التألم الزائد على المؤلف (اللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش) أى من تعرفه خير ممن لا تعرفه .

هذا الضعف فى الشخصية وفى الابتكار يشرح بدوره فقر روح الجمال ، وعدم وجود أى فن حي عند الفلاحين . أنهم غير مثقفين فى هذا الشأن ، وذلك لعدم تفكيرهم فيه وبخسهم عنه أكثر منه لانهم أميون . هم فى ملابسهم وفى قراهم وفى حقوقهم موضوعات فن للآخرين ، أما هم فانهم يظنون غير مدركين لجمالهم . ومع ذلك فان حبهم للارض وميلهم الى الحقول والقصص والالوان ، وحاسة الهمزج عندهم كان من الممكن أن تصير تربيتهم فى هذه الناحية سهلة ، ولكن قابليتهم للحساب والإعادة والمحاكاة أكثر استعداداً ، فنحن نعرف فلاحين أميين يجرون فى رؤوسهم عمليات حسابية معقدة ويعلمون الحاسب المختص بأنه انخدع عن حسن نية أو عن قصد ، وآخرين ينسخون النموذج الذى قدم اليهم بكثير من الأمانة ويحفظون زمناً طويلاً جداً ذكرى كلمة أو زيارة ، أو شىء رأوه ، ولكن إذا كانت تذكراتهم ثابتة ، فان أفهامهم بطيئة .

ومع ذلك فعندما يكونون أطفالاً تكون تلك الأفهام نشيطة كما يشاهد ذلك فى المدرسة وفى اللعب ، ولكنها فى نحو الخامسة عشرة تبتدىء فى التناقل . فقبل هذه السن يكون الفلاحون ذوى بدائه حاضرة ويبدون أكثر مواهب من الغربيين .

ونفوضهم قبل الآن - وهو احدى نتائج المناخ - يمكن أن يشرح مثل هذه الميزة ، ولكن ماعسى أن يشرح تلك البلادة التى لا تلبث أن تجعلهم ينكمشون ، وأن تصنع منهم رغم كل شىء جنسا متأخرا ؟

لقد تحدث المتحدثون عن عدم كفاية الغذاء ، ولكن النمو البدنى كان اذ ذاك يجب أن يقف أيضا ، والفلاحون الشبان ذوو تكوينات فاخرة . ولقد فكر بعض علماء الاجتماع فى العادة السرية المنتشرة إلى حد فى البلاد الاسلامية (١) ، ولكن يبدو ان هذه الرذيلة هى من نصيب المدن ، اذ الشبان فى الريف أكثر طهرا . وأخيرا قد عزى هذا التحدد إلى فعل المناخ الغير الممكن التجنب : فالغراس الذى ينبت بسرعة زائدة على الحد لا يلبث أن يقف عن النمو ثم يهوى على نفسه . ولكن هناك فلاحين قد خرجوا من بيئتهم فأنجبوا منذ الجيل الثانى أطباء بارعين ، ومهندسين أكفاء ، أو على الأقل موظفين وتجارا يساوون موظفى الدول الأخرى وتجارها .

وإذا ، فاليئة الاجتماعية هى التى تقف بفتة ذكاء الفلاح الشاب ، وهى الجهل الفضيع الذى يحوطه بمجرد اندماجه فى الجماعة ، ونوع الحياة الذى يحنيه على الارض ويجعله يكرر اشارات بعينها . هذا هو السبب الذى يقف نمو العقل عنده . ان الذكاء يربو بمكاسب جديدة ، وهى لا يوجد منها شىء فى هذا العالم القديم جداً ، والمحافظ جداً . عالم القرية المصرية

أما النساء فهن أكثر ذكاءاً من الرجال ، والسير « ولیم ویلکوکس » الذى لم تمنعه مشاغله الكبرى فى الرى من أن ينظر إلى الفلاحين ، يشرح هذا الفرق على

(١) لا يحدد أحد انتشار العادة السرية فى كثير من البلاد الاسلامية ، ولكن ليس هذا لأنها بلاد اسلامية . بل لأن الواقع هو ان الإسلام سائد فى الشرق ، والشرق حار ، والحرارة والرغبة الجنسية متلازمان . المترجم .

النحو الآتى : « ان الحكومة الرديئة حينما يقبلها فى شىء من السلبية رجال ميلهم الطبيعى هو النشاط ، تنتهى بأن تصيرهم وضعا ، بينما أن تلك الحكومة نفسها إذا احتملتها سلبيا كذلك النساء اللواتى هن سلبيات بفطرتهن هى تنعطف إلى إثماء ذكائهن . ولذلك لم تكن النساء الفلاحات أكثر ذكاء من الرجال فحسب ، بل أكثر منهم جدارة بالثقة » .

هذه النظرية قابلة للنقاش ولكن الظاهرة التى تريد شرحها جلية ، وهى الأهمية النسائية التقليدية فى مصر

ان الفلاحة هى أكثر حيلة من الفلاح ، مع أن هذا الأخير قد فاز منها بحظ وافر . هو ككل الضعفاء يستعمل الحيلة إلى حد الخداع . انه يعرف كيف يخفى سروره وحزنه وجريمته ، وسحته الخالية من العلامت تقبل ذلك إلى حد عجيب . فحينما ينحرف ، وحينما يعتمد على الزمن ، وحينما يقبل مصمما على عدم التنفيذ ، وحينما يشرح مراده فى دوران أو يفهم العكس قصدا ، هو يظهر مرونة ، لها بدون شك صورة الذكاء ، ولكنه ذكاء فى حالته الغريزية .

يبدو أن الفلاح يعوزه المنطق ، ولكن الواقع أن مفاهيمه مصطفة فى ترتيب ، وهو يحكم بوساطة المعادلة فأنت تسأله مثلا : « على أية مسافة نحن من قرية كذا ؟ » فيجيبك بقوله : « على بعد قرش فى الاوتوبوس » .

يعرف العمدة جيدا هذه النفسية فهو يقول مثلا :

- يا ولد ، اذهب إلى والدك وقل له إن البيك (أى الدائن) ينتظره هنا ، وإذا لم يكن والدك هناك ، فقل له أن يأتى رغم هذا ، لأن البيك يعرف انه موجود .

وهنا يأتى الوالد الذى لم تنجحه حيلته ، كأسهل ما يكون فى العالم .

ذلك لان الفلاح لا يفكر فيما وراء اللحظة الحاضرة ، وهو مرتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، فالزمان والمكان الخارجان عن الحالة الراهنة لا يكاد ان يؤثران في عقله ، لانها لا يؤثران في حواسه . انه كالبدائي وكالطفل تخضع عقليته لشعوره فتظل على مقربة من الإحساس ومن الوقائع والاشياء . لا يبحث الفلاح عن العلل أو عن الآثار في النظام العقلي ، ولكن يبحث عنها في النظام المرنى . انه رجل الحاضر المتعاقب ، وهذا هو السر في أنه يبدو غير منطقي ، وعدم عنايته بالمستقبل ناشئ من هذا العيب العقلي الذي يحتفظ به فقدان التربية .

هو يحرم نفسه مثلاً طول السنة حتى من الضروى ، ولكن عند ما يحل العيد ينفق كل شيء في يومين أو ثلاثة أيام ذوات سرور قوى له ولأسرته : ملابس جديدة ، وموائد فاخرة وملاعب ، وبعد ذلك يستأنف حياته أشد فقراً مما كانت عليه قبل ، واذا امتلكت يده بضعة جنيهاً مربوحة أو مقترضة ، وحقله في حاجة الى التحسين فهل يشتري آلات أو سماداً جيداً لينمى إنتاجه . كلا ، وانما هو يستدين ديناً آخر ، ليشتري قطعة مجاورة له ، اذ أن امتلاك مقدار أكبر هو الظهور في الحال بمظهر المالك الأقل صفراً . وعند موعد الدفع سترى (تفرج) . وربة المنزل لا تملأ مصباحها الا بعد أن يبدأ الليل ، والحرث لا يشحم محراثه الا في لحظة الحرث ، وهو لا يدفع دينه إلا حين يجبر على الدفع ، ولا يشتري البذور الا ليلة البذر ، ولا يدعو الطبيب الا في حالة اليأس . وقصارى القول : ان روح عدم العناية بالمستقبل من خصائصه . ولقد لاحظ المقرئ هذا النظر القصير فقال :

« ومن أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر في العواقب ، فلا تجدهم يدخرون عندهم زاداً كما هي عادة غيرهم من سكان البلدان الأخرى بل يتناولون أغذية كل يوم من

الأسواق بكرة وعشيا . . . قال لى شيخنا ابن خلدون : « أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب » (١).

وفى الواقع هم لا يفكرون ولا يعملون الا حسب ما تتطلبه الحالة الراهنة ، حسب الضغط الحسى للحظة الحاضرة ، أى أن الحاضر هو الذى يحدد لهم إذا أمكن هذا التعبير . ولهذا هم فى الوقت ذاته سريعو التصديق وحذرون ، وفرديون ومحبون للاجتماع ، وأشحاء وسفهاء ، وودعاء وسريعو الغضب .

إنهم ذوو ثقة الى حد التصديق الحير فى الاشياء أو الاشخاص المقدسين الذين يستطيعون أن ينيلوهم الخير المشتهى كالنسل أو الانتقام أو الصحة ، وخرافاتهم الكثيرة ، والهيبة التى يستمتع بها رجال الدين ونجاح المحتالين المرتدين ثياب النفاق هى أمارات هذه السرعة الفائقة فى التصديق .

والى جانب هذا يحذر كل منهم الآخرين عادة حتى فى أسرهم ، ويحذرون رؤساءهم دائما حتى فى احسانهم كأولئك الاطفال الذين هم غالبا مخدوعون ومحرومون والذين يكشفون لدى الغير اشتهاه ثروتهم الصغيرة ، وهذا هو السبب الاخير فى الايمان بتأثير « العين الخبيثة » .

هذا الحذر وتلك الرهبة اللذان لهما ما يبررهما من نظام المظالم والوشايات يصيران الفلاح فرديا ويحصرانه فى حياة شخصية غير قابلة للاقتحام . فحينما يدخر شيئا ، يفعل ذلك فى أشد الاحوال خفاء . واذا زاول مهمة قيمة يحتاط كل الاحتياط من أن يتناولها بالحديث ، لان الشقاء يتبع السعادة عن قرب . ولكن حينما لاتكون مسائل

المنافع والارض والنساء - وهى المسائل التى تجلب التفرقة - هى موضع الاختلاف
تسود الحاجة ، الى الحياة جنبا الى جنب .

رأينا أن الفلاح محب للجماعة فى عمله وفى متعه وحداده ، وأن هذه الجماعية ،
تتحول الى تماسك عندما يكون هناك خطر عاجل تنبغى مواجهته . وهذه الجماعية هى
فى أغلب الأحيان تكون فرصة للتفاؤل والتباهي الصبيانى . فبمقدار ما كان الفلاح
يدخر فى خفاء وعزلة فى منزله ، هو فى حالة انسحابه فى تيار الجماعة والحفلة كالأطفال
الذين لا يقاومون منظر المعروضات ، هو يسرف للظهور بقدر ما يسرف للهو .

هو مرح مادام أنه لا يرهق نفسه بالماضى ولا بالمستقبل ، انه مرح عدم الانشغال
وعدم التحدد . هو يستمتع استمتاعا كاملا بالساعة الحاضرة "carpe diem" أى استغنى
من اليوم الحاضر . وعندما يأتى أمر يعكس تلك الساعة ولا يكون شديد الضغط فانه
يجيب عليه بقوله : غدا (بكره) نابذا بهذا التأجيل ما كان ينبغى أن يفعله ، الى خارج
حدود ادراكه ومطيلا الحالة الراهنة ما استطاع الى ذلك سبيلا ، بل انه حينما يجيب -
لوجوب التنفيذ حالا - : (حاضر أو طيب) هو يقصد تماما الا يسرع . كل شيء يأتى
فى أوانه ، ومادام لا يؤمل فيما هو أحسن فلماذا هو ينشط ، ان ثقافته هو ملجؤه هو
(كيفه) هو هكذيته ، وهى كلمة واسعة وعميقة تحدد السكون الطويل والنوم المستيقظ
لذلك الذى ينشغل بالألا يعمل شيئا ، وألا يقول شيئا وألا يفكر فى شيء . انه صبر
من نوع فريد ذلك الذى علمته الارض إياه . ان احتفاظه بروحه كالسراج الضعيف
الساھر ، وانتظاره بدون نشاط ظاهر أو إغراقه نشاطه فى حلم داخلى ، فى ذلك الترم
الذى يهدد الشغل والروحات والحيثات كما يهدد الطفل فى مهده ، وفى ذلك البطء
الذى يضعف مصادمات الرجال ، ذلك هو (الكيف) أو الاستعداد الأساسى للفلاح
أو نصف الشعور الذى يقتل الألم .

لكي يركب القطار يصل قبله بعدة ساعات ، وهو يذهب الى الموعد بعده بعدة ساعات . . . أما الضبط والتحديد والإسراع . . . لماذا يحدد المرء الزمن الحاضر أو يدافعه ؟

ولما كان الفلاح يعيش بأ كمله في ذلك الزمن الحاضر ، فلم يكن معجلا ولا شغوف بالاطلاع ولا طموحا . هو مسالم ووديع لأنه صبور ، وهو صبور لكثرة خضوعه للناس وللأشياء ، وهو بسبب هذا نفسه مثاقل على هيئة النيل أكثر منه كسولا ، وليس النشاط بالنسبة اليه إحدى الحاجات ، وعقليته هي من نوع جبرى ساكن . (هو هكذا) .

ومع ذلك فأحيانا ومن خلال هذه الحالة التي تمنعه من أن يرى كثيرا أو يفعل كثيرا كما تمنعه أيضا من أن ينتحر ، وفي ذلك الأفق المؤلف من مزيج معرفته واحساسه تقع بعتة حادثة تنهشه ، واذ ذاك يعمل ضدها بدون تمييز ولا نسبة ، وبدون تقدير لقيمة هذا الحادث أو التفكير في عاقبة فعله ، ولكنه يعمل حسب الانفعال الداخلى الطارىء . هل أخفى منه جاره شيئا من غلته . أو دجاجة أو إوزة ؟ هل حول ماء ربه ، أو ترك جاموسته تقضم في حقله ؟ هل أساء أحد رفاق ابنه معاملته ، أو أهانت إحدى الجارات زوجته ؟ هل شنع عليه أحد بما ليس فيه أو وشى به ؟ هل تأخر صديقه في أن يرد اليه البضعة القروش التي هو مدين له بها أو نظر الى امرأته أكثر من المألوف ؟ عندئذ نشاهد الفلاح المفرط في احتمال عسف من هم أعلى منه ووحشيتهم يبدى تجاه نظرائه أكبر حساسية مغالية ، وهذا الحادث الذى هو فى الغالب عديم الدلالة يبدو له هائلا ويدفعه الى الانتقام ، فبقدر ما يوجد من عنف فى انفعاله الذى هو آت عن طريق العدوى هو يُدفع ويقتل ، والحياة البشرية لا حساب لها . فى مصر العليا عند ما يختصم رجل مع آخر يحاول أن يهاجمه فى موضع الاختصاص بأية

آلة كانت ، والصعيدى يشبه البركان الذى ينفجر فى أقل الاوقات انتظارا لهذا الانفجار .

وفى غالب الاحيان يكون الانتقام (الثأر) فى الخفاء ، هو يجرى فى الليل وباحتياطات لا نهاية لها : كأن يهاجم العدو عدوه من الخلف فى حقول الذرة أو هو - دون أن يصيب شخصه - يحرق غلته أو يبعثر حبوبه فى الحقول المجاورة أو يسم جاموسته .

ان الفلاح الذى يحتمل فى عمله كثيرا من الإهانة من جانب سادته لا يهاب أن يتساوى معهم فى مسائل النساء التى هى مع مسائل الارض تبسط عليه أكبر السلطان . وحينئذ لا يكون هناك قوى وضعيف ، وثرى وفقير . إذ لا تستطيع هنا السلطة ولا المال أن يفعل شيئا ، والملاك يعرفون ذلك فلا يستطيعون أن يتصرفوا فى القرويات لذاتهم . ونحن نعرف أن أحد (البسكوات) قد قتل على باب داره . لأنه أفسد إحدى الفلاحات .

يدل القتل والانتقام عند الفلاحين على الحدة أكثر من دلالتهما على الشر . هما ينفان عن أن دماءهم حارة ، ولكن هذا الهياج لا يكاد يدوم ، والإذعان يسترعى انتباهنا أكثر منه ، إذ هو شىء عادى : (طولة البال تهد الجبال) ، (طولة البال ماتخسرش) .

(يشارى الخبز بفلوس بكره يبق بلاش) هذه أمثلة فلاحية .

ولقد نقل المقرئى عن كعب الأخبار أنه قال :

« إن الله لما خلق الاشياء جعل كل شىء لشىء ، فقال العقل : أنا لاحق بالشام

فقلت الفتنة . وانا معك ، وقال الخصب أنا لاحق بمصر ، فقال الذل وانا معك .
وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية فقالت الصحة وأنا معك » .

إذعان الى جدالذلة والوضاعة ، خلقه واحتفظ به ضغط السادة أكثر مماخلقته الفاقة
مثلا . ان الفلاح يعمل كأنه طفل أو بهيمة لانه يعامل كطفل أو كبهيمة ، هو لا يعرف
من الطبقة العالية التي تسوده الا جانبها الخشن ، ولقد قيل لنا انهم لا يفهمون السلطة
التي تتأنسَن وتلجأ الى العواطف الخيرة هذا حق ولكن لانهم لم يهذبوا إلا بالضربات
والغرامات والشتائم والفظاظة التي انتهت بأن صيرتهم غير حساسين .

ونحن أنفسنا في شبابنا قبل ان نفهم كرامة الفرد الانساني استعملنا هذه الطريقة
القاسية إذ انها كانت تبدو لنا طبيعية وضرورية

لتكن فكرة العدالة عند الفلاح فاسدة ، وليكن تعوزه الصراحة والثقة والحمية .
نحن نعتزف بهذا ولكننا نعتزف ايضا باننا لم نعمل شيئا لكي نعلمه هذه المحامد ولكي
نرفع نفسه .

ليكن انكبابه على العمل بدون سرور وبدون إخلاص وبدون كمال ، وليكن
خاليا من الميل الى العمل المتقن ، وليكن ينقصه التصميم الحر والابتكار ، كل هذا حق
ايضا ، ولكن هذه الثغرات ناشئة من خضوعه ومن عزله فنفسه محاصرة بين الجهل
والطغيان على حد تعبير القلي .

كذلك الارض وشغلها يحملان الفلاح على الصبر والثبات والصلابة ، ولكن صيرته
هذه الارض على صورتها جسمانيا وماديا ، فحبه كله بدني ، ومع ذلك فهو ليس خليعا .

هم يعلمونه منذ طفولته أنه خرج من بطن أمه ، فهو لا يجهل شيئا من التفاصيل

البدنية الموازنة وهو ينطق بسباب يدل في وضوح على إحاطته بكل أسرار الحياة الجسدية وصغيرات الفتيات اللواتي يلعبن بالدمى يمثلن بالإشارات مناظر لا يستطيع الواقع أن يفوقها ولكن هذه الوقاحة البهيمية الهادئة ليس فيها شيء شديد الإزعاج وهي لا تلتبس ألبتة بالدعارة فالخلقية الأساسية لم تصب .

ان الرقابة المتبادلة والروح المحافظة وغريزة الحياة تصير الجنايات على الأخلاق أقل عدداً منها في البلاد الأخرى . « لا تؤلف الاعتداءات على الأعراض بين الفلاحين إلا جزءاً صغيراً من مجموعة المخالفات القانونية (١) »

في الواقع ان الفقر والتقاليد يعودان الفلاح منذ باكورة حياته على التقشف الجسماني فوئارة السرير ، ورفهية المنزل ، ولذائذ المائدة ، وبيوت البغاء هي أشياء لا يزاولها وفي هذا حماية لخلقيتها . يمكن ان تضاف الى ذلك أوامر الاسلام ولكن الفلاحين جهلاء بآديتهم وليس الشيوخ أو علماء الأزهر هم الذين يعلمونهم إياه ونحن نعتقد بالأحرى ان الخلق الفطري عند أولئك البدائيين يحفظ بقوة قانونية .

الفلاحون اخلاقيون لانهم يؤمنون بالله ، وهم ماديون ولكنهم ليسوا متهذبين بالمادية . هم يؤمنون قطعاً بالتدخل والعناية الإلهيين : « ان شاء الله » في كل شيء ، وهم لا يقومون بأي مشروع ولا يزاولون أي عمل دون أن يضيفوا إليه : « ان شاء الله »

التاجر الاغريقي :

- هل ستسلمني قطنك غدا ؟

الفلاح

(١) محمد القللي « محاولة على أسباب الجنايات في مصر » مكتبة الحقوق والتشريع باريس سنة ١٩٢٩ ، ٣٨٠ صفحة .

- نعم يا خواجه ان شاء الله

- خمسة قناطير لا أقل ، أليس كذلك ؟

- بلى ، ان شاء الله .

- هل ستجد جمالا للنقل ؟

- ان شاء الله .

- ينبغي أن تصل إلى البضاعة حتما قبل الظهر .

- ان شاء الله .

- ليست المسألة مسألة ان شاء الله ، فنحن نتحدث عن عمل ، وانا أريد وعدا حاسما

- إذا لم يكن هناك ان شاء الله ياسيدي فليس هناك قطن وإلى اللقاء . .

يدبرها ربنا ، والله يقسم الأرزاق ، الله يحمي (المحصول) - ان الله مع الصابرين
كل واحد وحظه الذي كتبه الله له . انا لله وانا اليه راجعون . الله موجود . هذا يوم
الرب . الله هو المدير ، العبد في تفكير والمولى في تدبير . رب العطا يعطي البرد على
قدر الغطا . هذه هي عبارات العلم الديني القروي ، وهي عبارات تنعطف نحو الجبرية
تشف عن الإذعان ، ولكنها في الغالب تنتعش بكل جمال الرضى النبوي بالارادة الإلهية
إن الفلاح يؤمن بالله كأول الاحياء واكثرهم فعلا . وعلى الرغم من فقر عقله
وجله بالدين قد كون لنفسه عنه فكرة جد تقيّة : هو القادر والعاقل والخير . وكل
هذه الصفات تجتمع في تلك العبارة التي يستعملها مبينا بها الاله : « ربنا » . ينبغي أن
يستمع المرء إلى الفلاح اذ ينطق بهذه الكلمة .

إن الخرافات التي تضنى نفسه لم تفسد جوهر عقيدته ، فالشعب الفلاحى اكثر
من الشعوب الاخرى اتجاها نحو الصلاة والزهد ، لانه شعب مؤمن . ان المقدس ،

والبركة ، والفوق الطبيعي ، والطهر ، أو ظواهرها فقط ، قد أحدثت فيه دائما جاذبية
لا تنهر . فالفلاحون الكاثوليك - وهم الذين نعرفهم أكثر من غيرهم - يقدمون
أجمل المثل للحياة الدينية ، بل للبطولة ، وقسسم الذين هم فلاحون يحبون بينهم ولا جلمهم
حياة زهادة وإخلاص ليس المرسلون الآتون من أوروبا بقادرين عليها دائما .

يجب علينا ألا ننسى ان أوائل رجال الدين في العالم المسيحي ، وهم رهبنة طيبا ،
كانوا فلاحين .

— الفصل العاشر —

— تطور الفلاح —

في ميدان محطة القاهرة المتسع ينتصب أثر سميك ممتلئ قد نحت من جرانيت اسوان ، وهو أبو الهول يقف على رجليه الاماميتين بينما تمسك برقبته امرأة واقفة تزيل النقاب عن وجهها . وهو : « تمثال نهضة مصر » .

ان مصر منذ نصف قرن من بين جميع بلاد الشرق الادنى وجميع البلاد الإسلامية هي البلد الاكثر يقظة .

فمن الوجهة السياسية قد تحررت من تركيا ثم من انجلترا ، لتكون من نفسها دولة مستقلة .

والصفوة التي أدركت مصير الوطن المصري ، ونشأة فكرة الوطنية ونموها في إحدى الطبقات قد صيروا هذا الخلاص ممكنا . ومنذ سنة ١٩٢٣ قد صار المملكة المصرية سفراء وقناصل في الخارج ، وحكومة وطنية ، وحياة نيابية ، ومعارضة وتصويت فردي ، واحزاب سياسية ، وبرامج انتخابية ، ووزارات ووكلاء وزارات ، يزيد تنوعهم باطراد ، وبالأجمال لها كل آلات الدولة الاكثر حداثة .

ومع ذلك فهذه الحياة السياسية لا تكاد تحرك الا عشر الاهلين والباقي الفلاحون . وهم مواطنون غير مدركين وغير منظمين لا يساهمون فيها أكثر من ذي قبل حين كان الترك والانجليز يقبضون على زمام البلاد .

وكل هذه التجديدات التي سردناها آنفا هم يجهلون وجودها أو لا يفهمونها .

يقال أنهم تابعون لحزب كذا وكذا . ليسكن هذا ، ولكن على معنى أن العمدة أو السماسرة قد قيدوا اسماءهم في الحزب غير أنهم ليسوا من المناضلين بل ولا من الاشباع كما يكون القرويون الروسيون في مثل هذه الحالة مثلا . إنهم لم يعلموا حريتهم ولا حقوقهم ، ولم تكن الصورة الشيوقراطية قط خادعة في أى مكان آخر كما هي في مصر ، ولكن الشر الأكبر ليس في هذا .

ان تقدم مصر الاقتصادى ليس أقل وضوحا من تقدمها السياسى ، وهما متماها المسالية أمر جدير بالملاحظة ، فالحكومة تملك احتياطا من الذهب قدره ثلاثون مليونا من الجنيهات ، وهذا المبلغ قد تضاعف تقريبا فيما بين سنتى ١٩٢٥ - ١٩٣٥ « وكان بالضبط و ١٩٥٠ ٢٧٩٠٠٠٠٠٠ جنيهها في ٣٠ ابريل سنة ١٩٤٠ »

وليس في ميزانيتها ألبتة عجز ، والنمو المطرد في إنتاجات الجمر والسكة الحديدية وروؤس أموال الشركات المجهولة الاجنبية والمصرية وانتشار الصناعات المحلية ، « والشركات المصرية تستخدم ٢٠٠٠٠٠ عامل » ومكان مصر في سوق القطن وتحسن زراعتها والامتدادات المنهجية للرعى ، وبالتالى للإنتاج الزراعى ، كل ذلك يؤلف علامات الشراء :

غير أن هذا التقدم لم ينتج منه تحسن في حالة الفلاح ، ومستوى حياته لم يتغير ، وكذلك وسائله الى الاستقلال كما هي . والسبب في ذلك بسيط جدا وهو أن الفلاح في هذا التطور الاقتصادى كان يستخدم كالأساس الأدنى للمنزل ، وعدم إدراكه وثبات حالته الراهنة كانا شرطا لهذه الهناءة الرأسمالية . ولقد كتب أحد الاقتصاديين أنفا ما يلى :

« ان الزراعتين المنعوتتين بالثراء ، وهما : القطن وقصب السكر ستؤثران في

تطور الفلاح ما دام أن أحدهما تحضر من الخارج رؤوس الأموال التي تجلب التحسن الزراعى. والآخرى تحضر الصناعة التي تصير الفلاح أكثر دقة بوساطة استعمال الآلات الميكانيكية. . . .

لم تفد رؤوس الأموال ولا الصناعة الفلاحين في شيء. « فقبل عصر ١٩٢٠ الهنىء كانت أمورهم المالية كما كانت بعده متساوية في الرداءة. وكان فقرهم مساويا لنفسه في العظم منذ مائة سنة وألف سنة. بل يلاحظ - وذلك في التقارير الرسمية - انخفاض في مستوى حياتهم. (١) ويميل البعض الى عزو ذلك الى نمو السكان. (٢) ويضيف على الشمسى باشا الى هذا نسبه الى « سوء توزيع الثروة الزراعية » (٣) لأنه يوجد مع ذلك في هذه البأساء العظمى لبلد ثرى كهذا ملاك يمتلك الواحد منهم دخلا يتراوح بين ١٢٠٠٠ جنيه و ١٥٠٠٠ جنيه.

وهنا أيضا نحن لا نغالى في الشر ولا نرى أن الفقر أسوأ الأشياء. ولكن الجهل . . .

ان التجديد العقلى فى مصر ساطع. وفى عهد حكم جلالة المغفور له فؤاد الاول على الأخص كثرت المؤسسات العلمية فالجامعة الملكية التى لم تكن موجودة منذ بضعة عشر عاما تحتوى اليوم على ١٠٠٠٠ طالب. وقد بلغت من العظم الى حد أن أنشئوا فيها أقساما ثم كليات. ومنذ الآن ستكون جامعة في

(١) خلاصة تقرير لجنة المالية عن مشروع الميزانية لسنة ١٩٤٠ - ١٩٤١

(٢) خطبة في مجلس النواب في ديسمبر سنة ١٩٣٩.

(٣) لقد نوه الدكتور إيلي نصيف بذلك حين قال: هل تشكو مصر من الازدحام بالسكان في المحاضرة التى القاها بالفرنسية يوم الجمعة ٥ فبراير سنة ١٩٤٣ بالجمعية الملكية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع.

الاسكندرية . وتحتوى مدارس الحكومة الابتدائية والثانوية على مئات الألوف من التلاميذ . وهم مزودون بأحدث الكمالات . وهذا فضلا عن التعليم الحر الذى هو أقدم من غيره . وليس هذا فحسب . بل ان جامعة الازهر القرآنية نفسها قد حدث فيها إصلاح وتنوع كعاهد : شبرا وطنطا وأسيوط . . وهناك ثلاثة آلاف مدرس يوزعون التعليم الاولى فى القرى . وصحافة مصر من جرائد ومجلات وأسفار يمكن أن توازن في هيئتها وأنبائها بأرقى صحف أوروبا . وهي تستعمل نماذج لكل البلاد العربية . ولكن الصحيفة الاكثر أهمية . وهى الاهرام التى يدعوها بتامس الشرق لا تكاد تطبع ١٠٠٠٠٠٠ عدد ، والمجلة القروية (زميل الفلاح) التى تصدرها وزارة الزراعة تطبع حوالى ٤٨٠٠٠ فقط

والعلماء ورجال الادب الذين يأتون الى مصر فى كل شتاء للمؤتمرات والمحاضرات يجدون فى القاهرة والاسكندرية مستمعين مستبشرين ذوى صدور رحيبة كما فى يثاات باريس . وهم يدهشون لهذا ويصرخون به .

والذين يفكرون ويدرسون هم مشتغلون الآن بإنشاء لغة وطنية وموسيقى وطنية ، ومسرح وخيالة (سينما) وطنيين وبالاجمال : انشاء شىء يكون مصر يا خالصا لا يختلط بالبلاد الاسلامية الاخرى . ومن الشيق تتبع هذا التطور الثقافى . ولكن ينبغى أن نتحرر منه لننظر الى أدنى .

هل السواد الاعظم يشمله هذا التجديد ؟ وهل هو يتبع هذه الصفوات الحضرية ؟ كلا ، أو هو يتبعها على بعد شاسع إلى حد يجعله لا يبدو متحركا ، والامية لا تزال تسود الاكثرية الساحقة ، ولا بد أن تكون الإحصاءات الاخيرة قد اعترفت بذلك وسواء أكانت تلك جناية المسئولين الذين نموا كل شىء فى مصر ماعدا التعليم ، أم جناية الفلاحين القليلي المواهب والتمردين بمجمودهم على كل تعليم ، أم جناية المناهج

الغير المتلائمة مع عقليتهم والتي تفرض عليهم مع المدرسة الإلزامية ، فنحن لا نقول كلمتنا في هذا ، ولكن الظاهرة تظل ملموسة ، وهي ان ٩٥ ٪ من الفلاحين أميون .
وحيثما يعرفون القراءة يظنون أجانب عن تبادل الافكار ، لأن اللغة المكتوبة أو أسلوب الكتب ليس هو لغتهم .

إن ضعف الفلاحين وآلامهم يأتیان من جهلهم الهائل في عالم قد تطور ، وتلك النهضة التي أشرنا إليها آنفا تزيد في اظهار عزائهم وتبعيتهم ، ومع ذلك فاذا كنا لا نستطيع أن نشاهد في هذه الجماهير تغيرات جوهرية ، فاننا نلاحظ عليها من الخارج بعض مميزات جديدة بالتقدير ، ومن الداخل معالم للتطور .

تقدمت بالمعنى الاجتماعي ، فمصر المتطورة بدأت تشغل بمصر الغير المتطورة ، نعم ان ذلك يحدث في أغلب الأحيان بلا مهارة وبدون استمرار ولا منهج ، وهو مشروع أكثر منه حقيقة واقعة . ولكنه مع ذلك تصحبه رغبة في تحسين هذه الجماهير الغير القادرة على تحسين نفسها بنفسها .

لنسرّد بديا بعض الوقائع : للفلاح اليوم حالة عقارية شخصية ، وهو لم يعد خاضعا للسخرة بسبب هوى السادة . توجد له عدالة وقضاة ، نعم هو لا يعرف كيف يستمتع دنياه هذه الشرعية ، ولكنه يستطيع أن يستمتع بها على حين أنه كان قبل ذلك . .

أما وضع حد لقسوة الباشوات وترك ما تملكه زوجة الفلاح أو ابنه الرعديد لها فمن عمل اللورد كرومر في نهاية القرن التاسع عشر ، ذلك العميد الذي كان يفكر كثيراً في الفلاحين^(١) قد استعمل كل سلطته في ان يجلب لمصلحتهم على الأقل القدر الضروري من العدالة . فالسوط (الكرباج) قد الغي ولو من ناحية المبدأ ، وتسلم

١ . مصر الحديثة . تأليف الاول كرومر . ماكيلان لوندرة سنة ١٩٠٨ ، مجلدان كل منهما ٦٠٠ صفحة وثانيهما يعني بحالة مصر الاجتماعية .

الضرائب قد حددت بنسبة وفي وقت معقولين، ولم يعد الفلاح في وجل دائم من الصراف .
هو يعرف ما لا يجب عليه دفعه ، وانه اذا كان حقله لم يستطع الإنتاج (بسبب فيضان
أو جفاف أو حريق) فانه يعفى من الضريبة ، غير ان عيب الاوتشاء لدى الموظفين
وأناية كبار الملاك يضعفان في اغلب الاحوال النتيجة النافعة لهذه الاحتياطات ومع
ذلك فهي تعمل عملها .

وفي مصلحة الفلاح أيضا اصدر اللورد كيتشنر خلف اللورد كرومر في سنة ١٩١٢
قانونا يقضى بان يكون منزل المزارع الصغير وآلات شغله وحيواناته من حيوانات
لحمل والركوب وخمسة أفدنه غير قابلة للحجز عليها .

ولكى يحسن حالة مالية الفلاح ويعوده على النظام أسس نفس هذا العميد
صناديق ادخار في القرى يجب على الفلاح أن يضع فيها مدخراته ، غير انه
ينبغي أن يقال إن هذه المؤسسة لم تنل نجاحا . وقد يكون ذلك ، لانها كانت
إجبارية ، فكان لا بد من إلغائها بعد الحرب

وفي سنة ١٩٠٢ وبعد تجربة حاولها البنك الاهلى أسس البنك الزراعى المصرى
لذى كانت غايته أن يقرض صغار الزراع بقائدة شرعية قدرها ٩ ٪ فأنشأ فروعاً في
جميع عواصم الاقاليم ولقد كان له امتياز الاستيفاء قبل الضرائب ، فكان ذلك في أول
الامر نجاحا ، ولكن الرسوميات الكثيرة التعقد ، والفروع البعيدة عن مقرضى القرى
صغيرة بعد شاسعا ، ومواعيد الدفع العلتية ، الغير القابلة للتزحزح بهيئة خارجة عن
حد المألوف كل ذلك قد صير خدمة المرابى الحاضر المتساهل أفضل من غيرها . ومع
ذلك فان النجاح النسبي الذى احرزه البنك الزراعى كان يمكن أن ينمو لو أن تطبيق
قانون الخمسة الافدنة الذى أزال كل ضمان لقروضه لم يصوب اليه الضربة القاضية .
وعلى أثر ذلك تحول البنك عن غايته الاولى وبدأ التصفية في سنة ١٩٣٠

وفي سنة ١٩٣١ لا بد أن يكون مبدؤه قد أخذ وأدخلت عليه تحسينات في إنشاء بنك التسليف الزراعي المصري الذي أسسته الدولة (١) بمعاونة كبار مصارف القاهرة . ولكي تسهل الحكومة عملياته وافقت على قرضه مليوناً من الجنيهات ووقفت لصالحه العمل بقانون الخمسة الأفدنة .

تقدم هذه المؤسسة الجديدة - الى صغار الملاك بفائدة قدرها ٧ ٪ ولجمعيات التعاون ٥ ٪ - المبالغ الضرورية لحاجات الزراعة وحنى الغلات ولشراء المواشي وتحسين الارض ، وهي تبيع بالاجل لصغار الملاك (والمستأجرين والشركاء) السماد والبذور المنتقاة ، وهي تقرضهم الى ٨٠ ٪ من قيمة غلاتهم المودعة في (الشون) التي تكثر منها في انحاء البلاد . ولما كانت تفهم العقلية القروية ، وقد استفادت من تجربة البنك الزراعي ، فقد نقلت تصرفاتها من المركز الاساسي وتركت سلطات واسعة بالقدر الكافي لعمالها الذين يذهبون الى القرى وبسطت الرسميات الى أقصى حد . وهكذا ربحت ثقة الفلاحين وأقنعت كثيراً منهم من مخالف المربين دون أن تتحمل هي نفسها خيبة أمل دائئها فيها ، ومع ذلك فيبدو أن لديها ميلا إلى ترجيح خدمة متوسطى الملاك وكبارهم .

ومن المرجح ان تكون الشروط الخاصة التي يمنح بنك التسليف الزراعي الجمعيات التعاونية اياها قد لوحظت . فمنذ خمسة عشر عاما يوجد منها عدد في مصر ، وقد اعترفت بها الحكومة كمؤسسة رسمية (قانون سنة ١٩٢٣ المعدل في سنة ١٩٢٧) وكانت تعينها كثيراً وتقرضها لتشجيع زيادة عددها وتسمح لها بشراء بذور وسماد ومواش وآلات بأفضل الشروط .

١٠. القرض الزراعي في مصر - تأليف جوزيف رانيس المكتبة الاصطلاحية والاقتصادية سنة ١٩٣٧ - ١٧٧ صفحة

وقد وُكِّلت هذه المهمة منذ سنة ١٩٤١ الى بنك التسليف فكان هذا التغيير سعيًا
إذ قد ارتفع عدد الجمعيات التعاونية من ١٤٧ في سنة ١٩٢٧ إلى ٧٠٣ في سنة ١٩٣٥
وارتفع عدد المساهمين فيها من ١٢٢٩٨ إلى ٧١٠٠٠ وفي سنة ١٩٣٥ نالت ٥٤٤ من
هذه الجمعيات التعاونية من بنك التسليف الزراعي مبلغ ٨٣٦٠٠٠ جنيه . وأما الجمعيات
الآخري فهي تستمتع برؤوس أموالها الخاصة .

ان فوائد هذه الجمعيات واضحة ، فهي تلغى الوسطاء المفسدين وتنظم الانتاج
والاثمان وتحسن الكيفية والكمية ، وتشتري وتبيع بأفضل الشروط^(١) وتعنى بالخدمة
الاجتماعية : « تحتفظ الانواع المختلفة من الجمعيات التعاونية بجزء من فوائدها السنوية ،
لينفق في الخدمات الاجتماعية المتباينة كاصلاح القرية والترفية والصحة وماشاكل ذلك »
في مصر السفلى ولاسيما في البحيرة تكثر هذه الجمعيات ، غير أن نجاحها لا يمنعها
من أن تظل أقلية ضئيلة بالنسبة إلى المجموعة ، بالنسبة إلى الفلاحين ، الاكثر عوزًا
والاقل استعداداً لروح الاجتماع .

ولكى تحمي الحكومة هؤلاء الاطفال الكبار اتخذت سلسلة الاحتياطات الآتية :-

(١) قانون ضد المرايين (١٨٩٦) وهو الذى يعاقب المقرض بالربا الفاحش بغرامة
كبيرة .

(٢) تأسيس أسواق القطن أو الحلقات (١٩١٢) التى يجرى فيها البيع حسب
سير البورصة وبوزن مراقب .

(٣) الغاء ضريبة النخل فى سنة ١٩٢٠ .

(١) كتاب التعاون الزراعي تأليف ابراهيم رشاد مدير قسم التعاون بوزارة الزراعة
المطبعة الاهلية ، القاهرة سنة ١٩٣٥ مجلدان مصوران بالعريية ، والثانى منهما يتعلق
بتطبيق التعاون الزراعي فى مصر .

(٤) إلغاء ضريبة (الخفر) في سنة ١٩٣٦ وهو حق الحراسة الذي كان يجب على
الفلاحين دفعه .

إذا كان اقتصاد الفلاح في حاجة إلى أن تنظمه حكومة كأنها العناية الربانية فإن
الأشد من ذلك حاجة هو حياته الصحية أي مسكنه وصحته . وهنا تفوق المشروعات
الحقائق الواقعية كثيراً .

هل ينبغي أولاً تحقيق وجود الماء الصالح في جميع القرى . أو إنشاء قرى نموذجية
تدريجياً .

يوجد اليوم ٢٥٪ فقط من الاهلين وهو العدد الذي يمثل سكان المدن يشربون
مءاً صافياً . ومن وقت الى آخر تؤسس محطات جديدة للماء الصالح . وفي سنة ١٩٤٠
قد مهت كل مديرية الفيوم الاشد من غيرها بعدا عن النيل بمؤسسات نموذجية ، ولكن
الفلاحين ليسوا معجلين للاستفادة من هذه النعمة ، ففي النخيلة مثلاً ، وهي قرية
ضخمة ، عدد سكانها عشرون ألفاً على مقربة من أبي تيج ، قد أدخل الماء الصالح
حديثاً بفضل عناية مجلس قروي نشيط . يجب أن يدفع نساء الشعب (للحنفية) العامة
ملياً عن كل صفيحة أو (بلاص) ، ولكنهن لا يذهبن اليها قط مفضلات النهر الغني
المجانى ، ويبين ولادة الامور خفراء ليمنعوهن عن هذا العمل ويقهروهن على الاستفادة
من ذلك التقدم الذي يلعبه .

أغوى إنشاء القرى النموذجية الحكومة أكثر من الماء . فمن قبل قد أنشأ محمد
على بخيط الميزان نحو عشرة بلاد كان يجب أن تكون مثلاً لغيرها ، ولكن مثال
ذلك الغير هو الذي كان أقوى ، واليوم لا تكاد هذه البلاد تمتاز عن تلك التي بنيت
بدون أى تصميم .

وفي سنة ١٩١٤ افتتح الخديو عباس الثانى ثلاث قرى مستقيمة الشوارع تكون

كل واحدة منها من ١٨٠ منزلاً منها ١٦٩ للفلاحين ، والباقي للمصالح العامة ، وكان كل مسكن منها يتألف من حجرتين وردهة ، فلم تكن هذه التجربة أكثر تربية للفلاحين من غيرها ، إذ أنهم قد حولوا هذه المنازل حسب حاجاتهم .

ومع ذلك فهاهم أولاء القائمون بالامر بعد نوم عشرين عاماً يعودون إلى القرى النموذجية ، وهكذا بأمر المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول قد أنشأت تفتيشات الخاصة الملكية للعمال الذين يشتغلون فيها مساكن متجانسة ومتلاصقة ذوات أدوار أرضية تبدو لنا كأنها سجون ، ولكنها قصور عند الفلاحين . ولقد سبقت هذه المباني وحوكيت من عدد كبير من الملاك الذين أعدوا في عزبهم لفلاحهم منازل صغيرة من آجر أو لبن ، ولكن البناء الاكثر أهمية هو بناء عزبة بهتيم التي تملكها الجمعية الزراعية الملكية . وجدت فيها بدياً في سنة ١٩٣٤ طليعة تلك المنشآت وهي ٣٠ منزلاً للزراع و ٣ للمستخدمين والمرافق العامة ، والمباني منتظمة من الشمال إلى الجنوب على خمسة صفوف ينقسم كل صف منها إلى مجموعتين بشارع يتسع في الوسط حتى يتحول إلى ميدان ، وبين كل صفين من هذه الصفوف يوجد شارع عرضه ستة أمتار بحيث تغلغل الشمس في جميع المساكن .

تلك المنازل مبنية بالآجر ، والسقف بالاسمنت المسلح ، والأرضية مرتفعة من الداخل ٣٠ سم ، وارتفاع المنزل أربعة أمتار ، و ٢٠ من هذه المنازل يتكون كل واحد منها من حجرتين وردهة داخلية وحظيرة للحيوانات ، وفي كل منزل مرحاضه الذي يلتزم مع أوامر الصحة ، و ١٠ منازل كبرى يتألف كل منها من ثلاث حجر ومدخل وتوابع أخرى ، وهذه المنازل يشغلها رؤساء الاسر وأقاربهم وهي في أغلب الاحايين الاب وابنه ، وقد بنيت ستة تنورات للخبز خارج المنازل لكي لا يؤذى الدخان السكان ، وهي تحت تصرف الاسر كل بدورها ، وكذلك ستة حمامات

(بالدوش) أربعة للرجال ، واثنان للنساء ، ويمكن أيضاً أن تغسل فيها الملابس ، وقاعة الاجتماع تتسع لـ ٧٠ شخصاً وهي تستعمل للاعياد والافراح والمآتم ، والمسجد ذو مسطح قدره ستون متراً مربعاً ، والمدرسة التي يتبع فيها منهج المدرسة الازلامية مفتوحة للعلماء والفتيات . وهناك حوانيت قد انشئت لكي تسمح للسكان بأن يشتروا حاجاتهم دون أن ينتقلوا ، وكذلك (دوار) كبير مؤلف من ستة مستودعات لخزن المنتجات المختلفة وأطعمة المواشى والآلات الزراعية . والماء الذي يملأ الصهريج يأتي من بئر مجهزة بالآلات رافعة .

غير أن هذه البنايات الغالية التكاليف (١٠٠٠ جنيه) لا يمكن أن يحاكيها الافراد، فكان ينبغي لهم وجود شيء أكثر اقتصاداً وأكثر قرباً أيضاً من العادات القروية دون أن يضحوا من أجل ذلك بالصحة . وفي سنة ١٩٣٦ قدمت الجمعية الملكية الزراعية إلى الملاك صورة واقعية أخرى ، وهي ٢٠ منزلاً من نوع يختلف عما تقدم ، كل أربعة منها متصلة ببعضها ، وتفصل هذه المجموعات شوارع عرضها ستة أمتار ، وهنا الحوائط مبنية باللبن ، والسقف مصنوعة من الخشب ، وفي كل منزل منها خجرتان ، سعة الواحدة منهما نصف ٣ X ونصف وردة صغيرة وتنور المنزل . وقد تكلف كل مسكن من هذه المساكن ٢٥ جنيهاً بدل ١٢٥ جنيهاً في النموذج الاول .

وكذلك صممت الحكومة من جانبها على أن تبني قرية نموذجية في كل مديرية وللبدا في هذا المشروع قررت إعادة بناء ميت فارس في (مصر السفلى) التي هدمها الحريق ، ويحتوى الرسم على منازل ذوات دور أو دورين بالماء الصالح والمجارى وشوارع متسعة تمتد على جوانبها الاشجار وفي وسطها قاعة الاجتماع والمسجد والمدرسة وفي خارج القرية يوجد موضع للسوق الاسبوعية ومستودعات للخشب والسماد والحبوب ومضخة للحريق وسيقطن ٢٠٠٠٠ نسمة في هذه الفردوس التي ستشغل ٤٥ فدناً . هذا

تصميم لم يتحقق بعد (١)

غير أن قرية نموذجية واحدة في وسط جهة واسعة تكون شبيهة بقطرة ماء في البحر ، اذ قليل جدا من الناس هم الذين يستفيدون منها والذين يحا كونها . فالأفضل إتفاق المال في مشروعات أكثر نفعا كتزويد القرى بالماء الصالح فتكون الفائدة أعم كما تقول المعارضة ، وهذا فضلا عن الظلم الناشئ عن هذا التفريق بين القرى . والا فلماذا تصير هذه نمودجا وتبقى الاخباريات تعساة ؟ ولقد ووجه تصميم يتحقق في خمس سنين لإعادة بناء ٤٠٠٠ قرية في مصر ، وقدر له مبلغ ثلاثين مليوناً من الجنيئات ، وهذا المبلغ لا يبدو هائلا ولا غير ممكن التحقيق اذا فكر المرء في أن الحكومة المصرية قد انفقت على الخزانات وأشغال الري خمسة وأربعين مليوناً من الجنيئات ، ولكن المشروع قد هجر منذ اعباء معاهدة سنة ١٩٣٦ الثقيلة الحمل ، وقد يكون ذلك بسبب عدم وجود الروح الاجتماعية . (٢)

ان اللجنة المؤلفة لاصلاح نظام العمدة الاقطاعي وتحسين حالة القرية تقترح

(١) انظر في مجلة العمارة ١٩٤١ العدد الثاني ، تلك الدراسة القيمة للدكتور سيد كريم (ص ٥١ - ٦٤) اصلاح القرية ، بين القرية النموذجية وقرية الانتقال .

(٢) أنفقت الحكومات المتتابعة ١٤٠٠٠٠٠٠ جنيه لأجل تنظيم دفع الديون العقارية أى لأجل إنقاذ كبار الملاك الذين لا يتجاوز عددهم ١٣٠٠٠ شخص . وهذا معناه ان كل واحد من هؤلاء الممتازين قد نال ١٠٠٠ جنيه دفعها اليه الخزانة بحجة حماية الثروة الزراعية .

ولقد خصصت الدولة هذا العام ١٧٠٠٠ جنيه لإنشاء المراكز الاجتماعية فعاد على كل واحد من هؤلاء البؤساء نصف قرش . فاذا اضعفنا الى هذا النفقات المبدولة لتعميم الماء الصالح والعيادات المجانية فان المبالغ المحفوظ في خزانة المالية لاولئك التمساء لا يتجاوز بضعة قروش لكل منهم (الانذار - - المنيا ٢ مارس سنة ١٩٤١) .

إنشاء مجالس قروية يكون للفلاحين فيها فوائد . وفي الوقت الراهن توجد في نحو ستين بلدا كبرى مجالس بلدية مؤلفة من المدير أو المأمور ومن مفتش الصحة ، وأربعة أعضاء منتخبين . وبضعة أعضاء معينين من وزارة الداخلية .

وهناك مؤسسات أخرى أقل بروزا من الأولى ، وهي المجالس القروية المنشأة منذ سنة ١٩١٨ وفي سبعين قرية . وهذه المجالس القروية معدة لان تصير مجالس بلدية ، فهي مؤلفة بنفس الطريقة ، ولكن مواردها المالية ضئيلة .

ان رش الشوارع الاساسية - وان كان لا يزيل الاوحال - وانشاء حديقة صغيرة شعبية محرمة على الشعب الذي لو دخلها لحطمها ، وبضعة مصابيح تبين نشاط هذه المؤسسات البلدية .

كان الجميع يتمنون أن تكون هذه المجالس أكثر تمثيلا للقرى ، أينتخب العمدة بوساطة مواطنيه بدل تعيينه ؟ ولكن في هذه الحالة منذ الذي يجعل منه أهلا لوظيفته أیوضع في البلد موظفون مختصون : طبيب وممرضة متنقلة . ومندوب من الزراعة ، ومندوب من الشؤون الاجتماعية .. أم تنشأ أولا مراحيض عامة ، لأن أمراض الفلاح التي تضعف إنتاجه تشغل السلطات . ولقد وضعت وزارة الصحة المنشأة في سنة ١٩٣٤ هذه المسألة على رأس برنامجها ، ولكنها لا تتصرف في ميزانية كبيرة ، وأعظم حظوظ ميزانيتها يذهب الى الموظفين ، ومع ذلك فان حملاتها جديرة بالإشارة : فهناك ٦٧ صيدلية مجانية ثابتة أو متنقلة تعالج (الانكلستوما) (والبلهارسيا) وبقدر هذا العدد مستشفيات ، تحت تصرفها ٤٠٠٠ سرير تستقبل المرضى السيئي الحالات ، وفي سنة ١٩٣٦ كان هناك ١١١ مؤسسة رمدية عالجت ١١٣٣٥٩٩ مريضا . وكذلك العناية بالطفولة يكفلها نحو ٤٠ مؤسسة . والاطباء والقابلات ، والمرضات المتنقلات لا ينتظرون حتى تأتي الفلاحة تقص

عليهم حاجتها ، بل هم يذهبون إلى المنازل يعلمون ويأومرون ، وعلى هذا قد بلغت
مجموعة زياراتهم نصف مليون . واليوم يوجد نحو ٥٠٠٠ قابلة رسمية (داية)
أضمت كل منهن ستة أشهر للتمرين في أحد مستشفيات الولادة . وهناك ٨٠٠٠
من طبقة قد تلقين دروسا من ثلاثة أسابيع الى ستة .

ينبغي أن يضاف الى هذا المجهود الجليل ذلك الذى هو أكثر منه اخلاصا ،
وهو مجهود المؤسسات الخاصة والصيدليات المجانية وزيارات فرانسيكانيات مصر
المنزلية ، ومرسلات مريم ، والايلازيتيات ، وراهبات القديس يوسف ، وراهبات
سيدتنا مولاة الحواريين ، والمؤسسات البروتستانتية . وأكثر من هذا حداثة ،
وأكثر منهجية أيضا المراكز الاجتماعية الموجودة في نحو عشر مدن من الدلتا ،
ولكن الحقل جد متسع ، والعمل هو ابن الامس ، والمستفيدون من هذه العناية
هم آلاف من المساكين . وهؤلاء انفسهم يهدمون في الغالب نتيجة هذا الدواء بجهلهم
وعاداتهم وفقيرهم ، وكل هذا يقيم بعدده عقبات أمام التطور .

ليس في مقدور القرية النموذجية أن تجعل من الفلاح رجلا سليم الصحة .
بريثا من العاهات . وليس عمل السلطات في المديرية والمراكز بأكثر منها
اتاجا . وما دام الفلاح يظل محتفظا بعقليته التي هي له اليوم : وبهذا العوز في الذكاء
الذى لا يستطيع به التمييز بين ما يوافقه وما لا يوافقه ، فانه سيستمر على أن يكون في
وسط التحسينات التي تجلب اليه كما هو اليوم . فالماء الصالح الجيد التصفية ينبذه ،
ليشرب الماء القذر الذى شر به أجداده . والمنزل المنير الطلق الهواء الصحى يفسده
بطريقته في الحياة . والقوانين والمؤسسات المنشأة لصالحه لن يعرف كيف ينتفع بها .
فينبغي البدء بالتعليم « كما قال لنا أحد رجال الشارع »

وعندى أن كل اصلاح لا يقوم على تعليم الشعب قبل أى شئ ، مصيره الفشل

أو على الأقل يستغرق زمنا مديدا يضيع على الأمة أكبر الفوائد ، فبناء القرى الجديدة للفلاحين وإلقاء المحاضرات والارشادات الاجتماعية ، الصحية بالسينما والراديو لا تؤدي ثمراتها ما لم يتعلم الشعب ويعرف كيف يستخدم هذه الشؤون .
هكذا أعلن في سنة ١٩٤١ الشيخ المحترم المرحوم عبد القادر حمزة باشا . (١)

ولكن عددا من ولاة الأمور يعتقد باخلاص أن تعليم الفلاح هو تصديره تعسا ، وأن حالته الراهنة المكونة من عدم الإدراك ومن العادات تؤلف أحسن حظوظه ، فهو لا يتألم بقدر ما نظن ولا يحقق ما ينقصه ، فتعليمه يوقظ فيه مطالب رفهية وملاهي لا يستطيع أن يرضيها ، فيقرزه ذلك من عمله في الأرض .

وحينئذ فماذا ستصير مصر ؟ وفي سنة ١٩٣٣ وقف أحد النواب يؤيد أن تعليم السواد الأعظم شيء غير مرغوب فيه ، وهو سيكون انتحارا للبلاد ، وبعض كبار الملاك يفكرون على هذا النحو .

نحن نقر هذا اذا كان الأمر يتعلق بذلك التعليم الذي هو يدون تربية وبدون ملائمة والذي نجده في المناهج الرسمية للتعليم الإلزامي ، واذا كان الأمر يتعلق بتعليم الفلاحين استعمال أشياء غير ممكنة الوقوع في القرية او عادات منسوخة عن الغرب فان هذا التعليم لا يعطي نتائج متناسبة مع النفقات ولهذا فاللجنة ترى «أن يعيد القائمون به تنظيمه من أساسه معتبرين ضرورة اعداد الشباب لحياة القرى ، لكي يرفعوا مستوى الانتاج الزراعي » . (٢)

(١) المصور عدد ٨٠٠

(٢) مشروع الميزانية ١٩٤١ - ١٩٤٢ في محضر مجلس النواب ابريل سنة ١٩٤١
ابنة الشاطيء في « قضية الفلاح » (١٩٣٩) : اصلاح التعليم القروي ، عيوب المنهج الحالي . ١١٢ الى ١٣١ . طه بك حسين في « مستقبل الثقافة في مصر » (١٩٣٨)
التعليم الاولى ، و ٩٤ الى ١٢٥ من الجزء الثاني . جاك تاجو في « مشكلة التعليم في مصر » (١٩٤٢) ، ٥٩ الى ٦٣ .

أما التفرز من الأرض والهجرة الى المدن فانهما يأتيان من البأساء الدائمة أكثر من اتیانهما من هذا التعليم ، إذ أن الفلاح يرتحل ، لأنه يؤمل أن يجد هناك ما يربحه ، ليعود على الفور الى بلده .

لا يشاهد الى الآن ، والحق يقال ، نقص في سكان القرى ، فاحصاء سنة ١٩٣٧ ينم عن حالة ثابتة بين الالهين القرويين رغم ارتفاع نسبة المواليد والانخفاض النسبي في الوفيات . ومن ناحية أخرى نحن نلاحظ أن في القرى الاقل أمية - كما نلاحظ بين الفلاحين الذين بعد اقامة طويلة في المدينة يعودون الى قراهم فقراء أو مثرين ، ولكن عيونهم مفتوحة - - بعض النفور من عمل الأرض الشاق .

وفي سنة ١٩٣٧ قد أحصى في القاهرة ١٨٨ ألف ساكن من مصر العليا و ٣٠٠٠٠٠ من مديريات مصر السفلى بزيادة ١٥٠٠٠٠ في عشرة أعوام . ولقد قدمت مديرية أسيوط الى العاصمة حوالى ٥٠٠٠٠ نسمة ، والمنوفية المزدهمة بالسكان أكثر من ٧٠٠٠٠ وفي هذا ظاهرة ذات دلالة تشرحها البأساء والزحام أكثر مما يشرحها التعليم .

يسكن أن يرى المرء مستعمرات الفلاحين المنشأة في القاهرة ، فهم يؤلفون قرى حقيقية مجتمعين حسب مواضع أصولهم في الاحياء المتطرفة من العاصمة كالشرابية والقللى وأمثالهما . هم يمشون معا ومجتمعين في مواقع خاصة وهم يحتفظون بأكثر قدر ممكن من عاداتهم القروية ، وفي أغلب الاحياء يهاجر الرجال وحدهم تاركين في القرى النساء والأطفال ، وهذا معناه الامل في العودة ، هم يلتحقون على الاخص كعمال بصناعة المباني يستأجرهم رئيس مياومة ويدفع لهم أجرا أعلى (خمسة قروش تقريبا) ولكنهم يعاملون معاملة تشبه في قسوتها معاملتهم في الحقل ، وهم معرضون للتعطيل .

وبعد تجربة بضعة أعوام يعود البعض الى بلادهم أكثر فقرا من ذى قبل ،
أو مزودين بالقدر الكافى لشراء قطع الأرض الصغيرة التى هى موضع أحلامهم ،
ويستقر الآخرون نهائيا فى المدينة ويشغلون كعمال حفارين أو حمالين أو خدما
أو باعة متجولين متعلقين بالثروة الحضرية كما أن أكوأخهم متعلقة بالأحياء الجميلة .
هم يؤلفون سوادا طفيلا لا يختلط بالمدينة ، وأحيانا يدخلها بضعة منهم ويبرزون فيها ،
فيصيرون تجارا كبارا ، أو مقاولين أو سماسرة ، ولكنهم لا يكونون آخر من يستغلون
ذلك الوسط المتنقل الذى خرجوا منه ، فهم يدوسونه بأقدامهم بدلا من أن يعينوه
على النهوض .

بأساء دائمة للفلاح .

خاتمة

بأساء الفلاح

بالموازنة بين حالة الفلاح الحاضرة وبين بأسائه منذ قرن أى فى زمن المماليك ، تبدو خيراً منها ، اذ لا يمكن ان يقتل قتلة الكلب ، ولا ان يجود تبعاً لاهواء الافراد ولا ان يصادر مصادر الرقيق ، بل ان موازنة حالته ببأساء القروى الاسود أو المدغسكرى ، أو الصينى ، أو التونكينى تظهره لنا أحسن حظاً ، واذا لم يكن غداؤه كافياً فهو لا يموت جوعاً . انه ليس ممزق الثياب ، وهو يلهو وينفق فى الاعياد . هذا حسن جداً ، ولكن يوجد نوعان من البأساء ، وهما : البأساء الجسمانية التى تتمثل فى عدم كفاية الدخل المالى وفى عدم الشروط الجوهرية للاحتفاظ بالحياة البدنية ونموها والبأساء العقلية والخلقية التى تتمثل فى الجهل وفى عدم الكرامة الخطر على حياة النفس .

لا ريب فى أن البأساء البدنية يحس بها العامل بهيئة أكثر سرعة ، لكونها أشد ظهوراً وهي تنير الشفقة أكثر من غيرها ، ومن ذلك تأتى الاحتياطات التى تتخذ لصالح منزل الفلاح وصحته واقتصاده . ومن ذلك أيضاً تأتى المحتويات العادية لشكاياته . . وللخطب المخصصة له ، ليس هذا جديداً ، ولكنه موضوع نال أصوات جميع خطب العرش منذ بدء حياتنا النياية . . نحن لا نألم بآلام مختلفة يمكن ان تعالج متفرقة ، ولكنه ألم أساسى ، وهو انحطاط مستوى حياة السواد الاعظم من سكان الاقاليم الى حد يجرح كل شعور انسانى ، ويشين شهرة الوطن المصرى . ان الشعب المصرى لا يتألف فى الواقع من مائة وستين ألفاً أو من مائتى ألف شخص ذوى سعة نسبية (١)

ينبغى ان يقصد ايضاً من انحطاط مستوى الحياة البأساء الخلقية ، وهى التى يلحقها

(١) على الشمسى باشا ، خطبته فى مجاس النواب : ديسمبر سنة ١٩٣٩

منايع الحياة البشرية نفسها تكون أثقل نتائج بالنسبة إلى الفرد كما هي بالنسبة إلى المجموعة والفلاح مزود من هذه البأساء بغزارة : فجهله ، وعدم ادراكه ، وفضاظته ، ووضاعته تحت درجة صفوة متطورة مهذبة هي أكثر مأساوية من فقره .

وكونه لا يشعر بهذه البأساء العظيمة ليس سبباً في أن تكون أقل خطأ بالقدر ، بل الأمر على العكس ، فحين يتألم منها أكثر ، وحين يدركها ادراكاً كاملاً ، عند ذلك سيبتدىء خلاصه ، وبالأجمال : إن عدم مدنيته ، وعدم تربيته ، وسوء معرفته الذين يستطيعون إنهاضه ، وعدم الثامهم معه ، وفي أكثر الأحيان أيضاً احتقارهم إياه وعدم أكثر انهم به ، هذا هو الشقاء .

إن أكثر الاحتياطات الرسمية مثلاً قد فكرت فيها مكاتب جد بعيدة عن الفلاحين وحققتها موظفون ليس لديهم من الريفية شيء . وإذا ، فسواء أكانت ترمي إلى الصحة أم إلى التعليم ، وإلى الزراعة أم إلى العدالة ، فإنها ترتبط بنظرية أو بمحاكاة بلد آخر أكثر من ارتباطها بالواقع الدقيق ، وهي لا تعني بالعقلية القروية ، وإنما تعني بمثل أعلى أو برسم . هي تتدخل في أشياء كثيرة وتفرض على الفلاح بطريقة جافة وأمرية ، وهي تلتصق عليه من الخارج دون أن تلحق نفسه ودون أن توقف معونته إلى حد يجعله لا يستطيع أن يصدق رفق الحكومة الذي هو مع ذلك أمر واقعي فيظل في بأسائه .

وهذا يمكن أن يشرح تلك السلسلة المدهشة من الإخفاقات التي تجعل المتشائمين يقولون : ليس يرجى شيء مع الفلاحين . ومع ذلك فالجهودات المبادهة الخاصة التي هي أقل غنى وأشد ضيقاً - ونحن نتكلم عن تجربة - قد عرفت كيف تربح ثقة الفلاح ، لأنها تعمل معه لا له فحسب ، ولأنها تنصح ولا تقهر ، وتعد ولا تهدد ، وقد نالت نتائج فاخرة رغم ذلك الضجر الذي لا محيص عنه .

هكذا كانت مؤسسات الجمعية الملكية الزراعية التي ذكرناها في الفصل السابق والتي تمت في ديسمبر سنة ١٩٤١ بإنشاء مركز اجتماعي .

وكذلك تلك المحاولة السعيدة التي جرت في عزبة كبرى من عزب البحيرة (مساحتها ١٦٠٠ فدان) حيث لم يكتف مالكمها ، وهو اغريقي بأن يبنى لقرويه منازل جميلة بالآجروب (الاسمنت) المسلح (يتكلف الواحد منها ١٢٠ جنيه) فكان يستقدم كل أسبوع من المدينة طبيين أحدهما للصحة العامة ، والآخر للأسنان ، وأنشأ مدرسة نموذجية وعلى الاخص عين مسعفة اجتماعية . وهذه الشابة المصرية ، وهي أولى خريجات مدرسة الخدمة الاجتماعية بالاسكندرية ، لا تقيم في (فيلا) المالك أو في منزل الناظر ، ولكن على مقربة من الفلاحين ومن المدرسة في غرفة صغيرة صيرتها جميلة وفي الساعة الثامنة توزع الادوية مجانا ، وفي التاسعة تقوم بالزيارة الصحية للمدرسة ، بعد ذلك تذهب إلى المنازل متعقبة في رقة سوء النظافة والهمجية . وقد أعدت لكل أسرة بطاقة ، لتستطيع بهذا أن تلاحظ التقدم ، وهي تجمع الفلاحات الشابات ، لتلقى عليهن دروسا في العناية بالأطفال وفي الخياطة . وفي المساء تجمع الرجال ، لتقص عليهم قصصا وتعلمهم كيف يسرون عن أنفسهم . فبعد مرور سنة بفضل استمرار هذه الخدمة وقربها ، أصبح نساء (العزبة) يستحممن كل أسبوع بعد أن كن لا يستحممن الا مرة كل عام ، وذلك لان درية لم تلق عليهن خطبا في أحواض الحمامات ولا في (الدوش) ، وانما قد استعملت ما تملكه كل فلاح في منزلها ، وهو : (الطشت والحلة والكوز) .

لنشر أيضا إلى ذلك المثل الجدير بالملاحظة وان كان أشد قدما ، وهو مثل (أبعدي) في مركز السنبلابين فناظرها - وهو الزامي من جنس قروي قوى يعيش في تلك (الابعدية) ويشغل فيها ترافقه زوجته - قد خلق من هذه الضيقة التي هي ٤٠٠ فدان مستغلة في الزراعة المباشرة ، حنة في النظام وفي الصحة .

الفلاحون قاطنون في ٣٦ منزلاً تختلف كبراً وصغراً حسب عدد الأولاد، وهي مبنية بالآجر، وسقفها بالخشب وداخلها يطل بالحص في كل سنة. ولا يوضع شيء فوق السقف. ولكن كل أسرة تتصرف في قطعة من الأرض مجاورة وهي عبارة عن مربع محدود بخط نظري يكسده فيه الخشب والسماد، فلا ينتج من ذلك جور على الفير.

كل واحد من العمال يتقاضى من ٣ قروش إلى $\frac{4}{5}$ في اليوم، وهو أجر يزيد عن أجور الممتلكات المجاورة، وقد منحوا فدانا أو فدانين لحاجاتهم من الذرة والبرسيم لأن كل أسرة تقريبا تملك حمارا وماعزة أو عجلا أو جاموسة، وفي كل عام يرتدي جميع هؤلاء السكان مرة ملابس جديدة على حساب المالك، ولذلك يكافئه ٧٠ جنيها تقريبا، وهذه (الجلاليب) لا تعطى كيفما اتفق، ولكن باختيار جد شخصي عن طريق زوجة الناظر حسب قامة كل واحد وذوقه.

وفي العيد الأكبر يجري توزيع عام للحم، فيتسلم كل واحد ٢ (كيلو) تقريبا، وذلك يتكلف حوالي ٤٠ جنيها وفوق ذلك يقدم الدهن إلى الذين ليس عندهم جاموس. وكذلك يجري تقسيم فواكه من الحديقة عدة مرات كل عام. ولكل طفل يولد حديثا تقدم أهبة من الملابس الضرورية.

وعندما يكون الفلاح مستدينا يقدم إليه الناظر ما يلزمه بدون أن يخدعه ثم يستوفي حقه على أثر ذلك من أيام عمله. أما الماء الصالح فهو محقق للجميع بواسطة (طلمبة) مثبتة عند مدخل (العزبة) وهناك حوالي ١٢ مرحاضاً صحياً و (دوشا) مبنية إلى جانب المسجد، ذلك المسجد الجميل الذي بناه المالك المسيحي وعين له إماما على نفقته يجمع رجال العزبة والعزب المحيطة بها. ولقد أضيف إليه «كتاب» ظل حتى الغي عند افتتاح مدرسة الزامية في القرية المجاورة لها.

وعندما يمرض الفلاح يعالجه الناظر الذى قد صار بالعادة دكتوراً بعض الشيء .
أو يرسله الى طبيب ميت غمر الذى يتقاضى راتباً معيناً . ولقد كانت زوجة هذا الناظر
المحسن نفسها تعالجهم وتغسل لهم أعينهم ، وتعطيهم ملابس وتعلمهم عادات . انها كانت
دائماً حاضرة بينهم ، وقد ظلت على هذه الحال ٢٤ سنة الى جانب زوجها .

والفلاحون يعرفون كيف يحفظون الجميل ، فعندما علموا -- بوساطة حيل صيبانية
رغم الغموض الذى احيط به الامر -- انها مريضة بالقاهرة مرضاً خطيراً ، تكس
٣٠ رجلاً فى سيارتين وارتحلوا الى المستشفى ، فظن من فيه أنها مظهرة ، وفى الواقع
انها كانت مظهرة ألم حينما رأوا ناظرهم العزيز وأولاده عائدين من المقبرة يرتدون
الملابس السوداء . وفى (العزبة) وما يجاورها كان الحداد آلياً بقدر ما كان عاماً .
ولقد تركت هذه الام لابنتها مثلاً تسير على منواله . . . ودیعة باسمه متحدثه بالعربية
جيداً ، وينبغى ان يرى المرء كم أن اولئك الذين لا يحبهم أحد يحبون هذه الفتاة .

لم يفتقر المالك ولا الناظر بسبب هذه العدالة الاجتماعية التى يستعملانها ،
فالبضیعة لا تزال احدى ضیعات مصر الاكثر انتاجاً ، ومنتجاتها تنال الجوائز فى
المعارض الزراعية .

وهكذا ايضا الابتكار الذى استحدثته لشغل العطلة خمس فتيات مصريات
من قلو صنة (بالوجه القبلى) . قالت الراوية التى نحن نترجم تقريرها (١) : (ان ابنتى
عمى وأختى وأنا قد أنشأنا مدرستنا الصغيرة فى أوائل يولييه سنة ١٩٣٣ إذ كانت
مدرسة الحكومة بعيدة عن القرية بعداً شاسعاً ، وكانت فيما وراء مزلقان خطر للسكة
الحديدية .

(١) نشرة العاملين الاجتماعيين : مدرسة ريفية صيفية .

كان المكان المؤلف من حجرتين أعارتنا إياهما سيدة لطيفة يوجد في وسط البلد ، وعندما افتتحت المدرسة كانت المواد المدرسية لا تزال غير كافية ، ورغم ذلك بدأنا في العمل وتلقينا ستين طفلا ، أكثرهم بنات تتراوح أعمارهن بين ست سنوات وسبع عشرة سنة ، قسمناهم الى خمس طوائف ، وكنا نحتفظ بهم من الساعة السابعة صباحا الى الاولى بعد الظهر . وفي المبدأ كانت الطاعة شاقة ، ولكن النظام لم يلبث أن ساد قليلا قليلا . كنا نعلم المطالعة والخط وبعض الاشغال اليدوية والالعاب ، وكان نداء الاسماء يحدث في كل صباح .

وبوساطة جوائز المواظبة وصلنا الى نسبة ٧٠ ٪ في الحضور . وفي السنة التالية عندما كان لدينا ١٧٠ مقيدا كانت النسبة ٨٠ ٪ .

ولقد أحرزنا تقدمات محسوسة في المطالعة والخط ، وأكثرهمها في الصحة ، والحلي التقليدية قد اختفت ، والوجوه كانت تغسل في كل صباح ، والشعر صار نظيفا ، وطرده الذباب أصبح منتظما وهكذا . . .

وفي كل يوم نضع قطرة في أعين الاطفال . وأشدهم مرضا كان يرسل إلى طبيب العيون . وفي يوم الجمعة ولو أنه ليس هناك دروس ، كان الاطفال يأتون الى التفتيش الصحي ، وكان كل واحد منهم يتسلم قطعة من الصابون وسائل لتنظيف الرأس .

وفي دروس الرسم المعطاة للغلمان ، كان علينا أن نعلمهم كيف يميزون الالوان ، وفي دروس الخياطة للفتيات علمناهن تفصيل (الفساتين) .

ولقد كان تنظيم اللعب في المبدأ شديدا الصعوبة ، ولكن الاطفال قد انتهوا بأن فهموه وطبقوا عليه القواعد .

دامت هذه المحاولة ثلاثة أعوام، ولكنها لسوء الحظ انقطعت برحيل اللواتى ابتدأنها .

إن معلمى المدارس فيما يختص بتلاميذهم ، وبعض المسالك فيما يختص بشركائهم أو بمستأجريهم يعترفون بأن تقدم الفلاحين وغبائهم يتعلقان بخططهم هم ، على أن بعضهم ينشغل باخلاص بهذه الانسانية ، والمقالات المتزايدة باطراد فى الصحف المصرية توضح ذلك جيدا ، وكذلك إنتاج رواية « عاصفة على الريف » السينمائية التى توجد فيها مشكلة الفلاح ورؤسائه مبسوسة بشجاعة ، ولكن ألا يمكن مع ذلك التحدث عن خيانة الصفوة المستنيرة .

أعرضت هذه الصفوة عن الجماهير ، واحتفظت لنفسها وللسياسة والادب أو لأوروبا بدكائها ومدنيتها وثقافتها ومالها وفقدت الاخلاص . وآخرون يقولون : انها فقدت الوطنية .

على بعد بدون ريب ، ومن وقت الى آخر كانت تثير محامد الفلاح الزراعية ، ولكنها لم تعمل له شيئا هاما ، وموضع التماس بين الحكام وبين هذا الجمهور يتم عن شئ مسرحي ، ونحن نعلم أن المسرح ليس هو الواقع . ولقد استطاع أحد النواب حديثا أن يعلن فى المجلس ما يأتى :

« عندنا حينما يزور أحد رؤساء مجلس الوزراء قرية ما يسبقه اليها حرس مكون من ٣٠٠ جندي تقريبا ، وهذا فضلا عن الضباط وعن عدد ضخم من كبار الموظفين ، وفى مثل هذه الأحوال لا يستطيع أن يختلط بالقرويين ولا أن يعرف حاجاتهم » (١) ثم دعا النائب المحترم الوزراء الى أن يشاهدوا بأنفسهم حالة الشعب .

والفلاح — كطفل مهجور كبير بدون تفكير وبدون معرفة — قد بقى (فى

(الارض) والارض منته من النزول أخفض من ذلك واحتفظت به ، وسندته ،
ولكن الرفع ليس من وظائفها .

وإذا ، فالامر يتعلق في هذا الرجل وفي هذا الشعب بإثارة الحياة البشرية أو بإيقاظها
هذا هو دور الصفوة ، وقبل كل شيء دور الذين لهم من تلك الصفوة في الحقول
منافع . نحن نقصد الملاك والمهندسين الزراعيين وأولئك الذين يسرون في الارياف أو
يعيشون فيها لأعمالهم من : التجار ومستخدمى المصارف والموظفين ، ولو أنها مثلت
دورها لما كان لها مع القرويين صلات اقتصادية أو أدبية أو سياسية فحسب ،
ولكن كان يوجد احتكاك برى بين رجل ورجل . وتلك الاحتكاكات وحدها
هي التي ترفع . ولقد استطعنا أن نلاحظ كم أن زيارات بسيطة من جانب الأعيان
أو المدنيين لمدارسنا القروية إذا كانت مطبوعة بطابع المحبة والعناية تقوى القرويين
عندما يلقي بعض السادة والسيدات اليهم ومن أجلهم .

هذه هي مهمة المدرسين ورجال الدين بمقتضى وظائفهم إذا أمكن أن يقال ذلك
فهم يتغلغلون في الجماهير أكثر من غيرهم . وهكذا كان الذين يسهلون عملهم
يبدون أذكي أنواع الوطنية ، ونساء الملاك وبناتهم هن مدعوات بنفس الطريقة الى
المهمة دعوة خاصة ، ففتاة واحدة من بنات إحدى الأسر الكبيرة - إذا انشغلت
بالشعب أثناء قضاائها عطلتها المدرسية في القرية - كافية لائت تجمع كل فلاحات
(العزبة) . وفي كل مساء تجلس بينهن ساردة عليهن قصصا لتعليمهن ورفعهن ،
هذه هي النسائية المنتجة .

يتعلق الأمر إجمالاً بمزاولة تحقيق عمل من أعمال التربية ، وهو مسألة فهم
وخدمة شخصية أكثر منه مسألة لجان وخطب ومراسيم .

ان عقلية اجتماعية وروحانية من جانب الصفوة - مادامت هي التي يجب أن تبدأ - تستطيع وحدها أن توقظ دون أن تهيج ، وأن تساعد دون أن تستبدل ، وأن تحرر دون أن تقتلع الجذور .

ونحن لا نستطيع أن نختتم بأحسن من نص « ييوس » الحادى عشر العظيم الذى يلائمنا بنوع خاص ، وهو :

« ينبغي لكم أن تعيروا العامل مساعدة مادية ودينية : مساعدة مادية عاملين على ألا تتحقق لصالحه العدالة الخاصة المتبادلة فحسب ، بل العدالة الاجتماعية أيضا ، أى انه يستفيد من تلك المؤسسات التى ترمى الى تحسين حالة طبقة الصعاليك ، ومساعدة دينية محققين له المعونات الدينية التى بدونها يحيا مغمورا فى مادية تصيره وحشا وتحط من قدره إنهم ملايين من الكائنات البشرية ، أولئك الذين يعيشون غالبا فى حالة محزنة وبأسة الى حد يجعلهم لا يستمتعون حتى بأقل قدر ممكن من النعمة الضرورية لحفظ الكرامة الانسانية . » (١)

« ١ » رسالة بابوية الى جماعة أساقفة الميكسيك فى ٢٨ مارس سنة ١٩٣٧ . فقرة

عن القرويين . . .

ملحقات

- ١ -

ملاحظات على الحداد

(١) أخلاق وعادات

اعتاد المسيحيون في عيدى الميلاد والفصح ، والمسلمون في عيدهم ، الأصغر والأكبر أن يذهبوا الى المقابر للترحم على قبور موتاهم ، وهم يمشون فيها دون ضجير يومين أو ثلاثة ، وفي هذه الايام تبدو المقابر في مظاهر الاسواق : فالاسر تصل بدون انقطاع ، والصغار والكبار يجتمعون هناك ، والجمل يستولى عليه لنقل القوت والفرش ولوازم المطبخ والصناديق . وأحيانا ينبغي اجتياز النيل فيسكس الجميع بدون نظام في سفن مثقلة الى حد الفرق ، والاطفال المرتدون جدد الملابس يسعدون بهذا السفر ، والنساء يولولن . وحينما يزرن للمرة الاولى بعد الدفن المقبرة ، يصرخن بالامهين منادات ميهن ، وبعضهن يصبغن وجوههن بلون أزرق ويلوحن بتناديلهن . ولقد رأيت عجائز لا يكدن يستطعن المشى حطمتهن السن والعاهات ، يجررن أنفسهن لأداء حجهن الجنائزى الذى لا يستطيع شىء أن يعفيهن منه ، وقد لا تعود أولئك البائسات من ذلك الحج .

الدم يسيل على القبور من تلك الضحايا المقدمة التى توزع لحومها على الفقراء . وهذه القرايين وتلك الصدقات تهدى أرواح الموتى . والمعز والضأن اذ تشعر بقرب نهايتها تصيح من يأسها . وفي الشمس الساطعة والعثير المثار وفي كل هذا الهرج للجماهير يسود مع ذلك جو من السرور : فهناك تجار متنقلون يعرضون منتجاتهم المشهية ، ومقام تفتح ، وأراجيح تهتز وتثير شهوة الاطلاع لدى الصبية ، ومع ذلك فان الأسر تتفرق فتتجه كل واحدة منها نحو موتاهها . الجانب الأعلى من القبور مبنى على صورة قبة أو صورة غرفة للسكن ، وهذا هو الموضع الذى يستقر فيه المستقرون ، فيسكون ساعات وينامون . سعداء أولئك الموتى الذين يذكرون . وأسعد منهم الذين يترحم عليهم .

وفي القرى حينما يتوفى أحد الناس توجد دائما حجرة (منضرة) تقدم فيها التعازي الى أسرة المتوفى . وبينما يكون الموضع المعد للنساء مليئا بالآنين ينتظر الرجال ، متجهمين صامتين ، زائريهم ، والجميع ينهضون عند دخول القادم الجديد ، وهنا يتمنى الداخل قائلا « البقية في حياتك » أى (أرجو لك أن تعيش بقدر ما فى الامكان) فيجيبه بقوله : « البقاء لله » أى (البقاء صفة من صفات الله) . وهنا يجلسون بدون حديث كما لو كان المرء قد ذهب يبحث في أعماق نفسه عن الكلمة الملائمة ، ثم يقطع الصمت فيتلو القادم الجديد حكما أو أمثالا أو نصوصا من الكتاب المقدس ، أو مواعظ صغيرة عن الموت الغير القابل للتجنب ، وعن الاذعان لارادة الله ، وعن حياة المتوفى الطاهرة ، وعن الثواب الذى وعد به الأخيار ، وعن الشجاعة التى يجب أن يبدىها الرجل في حداده . وهنا تدعو الحكمة حكمة أخرى ، وتوقظ القصة كالصدى قصة ثانية ، فتتحل الالسنه من عقابها ، وفصحاء المتحدثين يبدون قيم مواهبهم ، انه من المدهش أن يرى المرء كم ان الناس يتبادلون فى مناسبة الحداد والعواطف الحسنة فلنكى يؤدى أحدهم التعزية لايخشى أن يسير ثلاث ساعات ، ولا أن يفقد يوما من أيام عمله . الأصدقاء يسهرون مع الأسرة ويحملون اليها المعونة بحضورهم ، والمساعدة المشجعة بجميع خدماتهم ، ذلك واجب لا يقصر فيه أحد . الموت هو الموحد الاكبر للمستويات ، وهو أحد مراكز الجاذبية ، وعنده تنمحي فروق الديانات ، وتقرب طبقات الهيئة الاجتماعية : فيتآخى المسلمون والمسيحيون فى ذكرى الموت ، ويجتمع الأثرياء والفقراء حول القبر .

المنيا

فيلير اليسوعى

ولولة على شاب

- ٢ -

- (١) يا ناس دا الغايب له حبيب وحبيب
يا ناس دا الغايب له حبيب خلاه في القهر
قضى حياته في دموع ونحيب
وجرح قلبه في يوم مرزى الصبر
- (٢) يا ناس دا الغايب له حبيب ينوح
يا عيني ياللي رحت زى الحشيش الاخضر
وقلبه في يوم الشوم مجروح
وزى الحمامة اللي ريشها صغير
- (٣) قالوا مريض دخلت عشان ألاقه
لقيته مريض والمرض شاف غرضه فيه
لقيته غايب عن وعيه والصراخ حو اليه
حتى الطبيب لما شافه مارضيش يداويه
- (٤) آه ياريتهم كانوا يتباعوا في السوق ونلقاهم
ياريتهم كانوا في السوق مع الدلال
ويقولوا تعالى اشترينهم انبت ياللي عاوزاهم
ويقول تعالى اشترينهم ياللي مامعكيش عيال
- (٥) ان طال غيابي كسروا اقلامي
ان طال غيابي كسروا قلبي
وتكسر حتى الدوايا يا أعز أولادي
حتى الدوايا نكسرها يا نضري
- (٦) ساعة خبر موته لبست الفستان بالمندار
ساعة خبر موته قلبوا لي فستاني
وعقل ست البيت من دماغها طار
وعقل ست البيت ما رجع تاني
- (٧) طريق الكنيسة أعطيتها بالورد
طريق الكنيسة أعطيتها بالياسمين
يا ريتهم يحون لي ليلة الحد
يا ريتهم يحون في عيد الحسين
- (٨) يا حبابي ياللي قاعدين جنبي
يا حبابي ياللي قاعدين جاري
أنا مليون وجع ولا حد يعلم بي
أنا مليون وجع ولا حد بي داري

(٩) كنت سليم والى جراك ايه ياترى انضربت فى الليل ولا حصلك ايه لما قالوا مريض دخلت حداثه لقيت العقل الزكى فقد ما معناه

(١٠) انت عملت ايه ساعة طلوع الروح أنا كنت بسف القندله باللوح
انت عملت ايه ساعة طلوع روحى أنا كنت بسف القندله بلوحي

جمع هذه الولولة من بردنوها اد .. توفيق سنة ١٩٤١ ، وقد ترجمناها بشئ من التصرف ألجأنا اليه اللغة العامية ، من ناحية ، وملاحظة القوافى من ناحية أخرى .

شرح المقاطع

(١) مرارة الفراق

(٢) الالهف على شباب المتوفى

(٣) لوحة مؤثرة تمثل المحتضر - وقد صارت كل وسائل العقل البشرى فى قنوط - مبكيا عليه من أهله . ان الصرخات الحادة الفاجعة هى عند نساء مصر العليا التعبيرات الحقيقية لآلامهن .

(٤) المتوفى هو الولد الوحيد لأمه ... ولكى تواسى الباكية قليلا هذه الام تعبر عن الرغبة الغير القابلة للتحقيق ، وهى أن ترى الاطفال تباع فى السوق ، اذ التبنى هو تسرب أجنبى الى مصر ، وقد ظل الى أيامنا غير معروف فى الصعيد حتى عند المسيحيين ، وهو محظور فى الشريعة الاسلامية

(٥) ان القلم والمحبرة هما ذكرى ان نفستان عند أم المتوفى . انقطعتما ؟ أى شئ أكثرهما من هذا لقلبها المعذب ؟

(٦) فى هذا المقطع تصف الباكية الحالة الغير العادية لدى الام عند إخبارها

بوفاة ابنها . انها قد قلبت كيائها الى حد أنها لم تعد تعرف كيف ترتدى فستانها .

(٧) ان أيام الآحاد والأعياد لدى نساء مصر العليا المسيحيات هي أيام ذكريات للموتى ، فهن - كعلامة من علامات الحداد - يمتنعن عن الذهاب الى الكنيسة أحيانا سنوات عدة . وفي عيدي الميلاد والفصح تكون الكنائس مقفرة منهن . وعلى العكس من ذلك تأتي سحب من النساء يعكرن سلام المقبرة بصرخاتهن الحادة . ولقد تمسحت هذه العادة الوثنية - اذا صح هذا التعبير - بظاهرة توزيع الصدقات على الفقراء (كالفظائر واللحم الخ) لراحة أرواح الموتى .

(٨) تعارض بين حالة المحتضر وصحة الحاضرين .

(٩) ان الباكية الراغبة دائما في اثارة ألم سامعاتها تسأل المتوفى عن تفاصيل احتضاره .

(١٠) القندلة نبات شديد المرارة ، وهل توجد ساعة أمر من ساعة الاحتضار؟

مراجع

- ٢ -

لقد بينا في الكتاب المستندات التي تؤيد هذه النقطة أو تلك ، وهذه المراجع النقدية والعملية الآتية التي لا نذكر منها إلا المصادر الأساسية قد اردنا ان تنحصر في الفلاح في ثلاث برهات من التاريخ وهي :

(١) الفلاح القديم

ويلكينسون (س . جاردنير) . - أخلاق المصريين القدماء وعاداتهم . طبعة جديدة راجعها وأصلحها س . بورش ، لندن ، موريه سنة ١٨٧٨ ثلاثة مجلدات من القطع الثماني ، كل مجلد ٥٠٠ صفحة ، وهو مصور . راجع على الاخص الفصل الرابع عن الحياة الخاصة ، والفصل الحادي عشر عن الزراعة ، والخامس عشر عن الحفلات الشعبية ، موتيه (بيير) . - مناظر الحياة الخاصة في المقابر المصرية في الامبراطورية القديمة ، ستراسبور ، العدد الرابع والعشرون من مطبوعات كلية الآداب سنة ١٩٢٥ من القطع الثماني ، ١٨ صفحة مقدمة و ٤٣٩ أصل وبه ٧٢ صورة .

انظر ما يتعلق بحياة الشعب

هيروودوت . - تاريخ « الكتاب الثاني » نص أثبتة وترجمه ف . ل . ليجران باريس ، مجموعة جامعات فرانس طبعات الآداب الجميلة سنة ١٩٣٦ من القطع الاثني عشرى ، ١٨١ صفحة .

والمائة الاولى من هذا الكتاب الثاني ضرورية لمن يريد ان يرى فلاحى الماضى بطريقة اخرى غير طريقة الصور البارزة .

هارتمان (فيرناند) . - الزراعة في مصر القديمة ، باريس ، رسالة ، سنة ١٩٢٣
من القطع الثماني ٣٣٢ صفحة وبه ٧٧ صورة .

(٢) الفلاح منذ مائة سنة .

في وصف مصر ، مجموعة ملاحظات وبحوث قداجرية في مصر إبان حملة الجيش
الفرنسي ، باريس يانكوك ١٨٢١-١٨٢٩ ، الطبعة الثانية في ٢٦ مجلدًا من القطع الثماني
انظر ما يلي :

جيرار (م . ب . س) مذكرة عن زراعة مصر وصناعاتها وتجارتها .
تختص المائتان الأوليان من صفحاتها بالزراعة . ويوجد هذا المجلد في سلسلة
الدول الحديثة وهو المجلد الثاني .

شابترول دى فولفيك . محاولة عن أخلاق سكان مصر المحدثين . وهو المجلد
السادس من السلسلة السابقة صفحة ٣٤٢ .

لان (س . و .) . - أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم ، كتب في مصر
فيما بين سنتي ١٨٣٣ - ١٨٣٥ لندن ، جاردنير ، ١٨٩٥ من القطع الثماني ، ٥١ صفحة
وبه صور . راجع في هذين المؤلفين الآخرين ما يتعلق بالفلاح

(٣) الفلاح العصري

ستبع هنا النظام الزمني للدراسات التي ظهرت وسنذكر منها كل مانعرفه
وهي ذات قيم شديدة التباين كما أنها عسيرة الوجود وهي :

بيل سان جون - حياة القرية في مصر مع وصف الصعيد ، لندن شابمان
١٨٥٣ ، مجلدان ٢٩٦ صفحة .

طرف من كل شيء ، وملاحظات جيدة

كلونزيجير ، مصر العليا : شعبها ومنتجاتها ، وصف لأخلاق شعب وادي النيل وعاداته وخرافاته ومشاعله ، لندن ، بلاكي ، ١٨٧٨ ، ٤٠٨ ص .

مترجم عن الألمانية مع مقدمة لـ « شوينفورت » .

ييو . بك (ج - ب .) . - محادثة حول أرومة الفلاح ، القاهرة ، مجلة جمعية مضر الجيوغرافية سنة ١٨٩٩ ص ٢٠٣ - ٢٤٨ . نحاس بك (يوسف) . - حالة الفلاح المصرى الاقتصادية والاجتماعية ، باريس ، رسالة فى الحقوق سنة ١٩١٠ من القطع الثمانى ٢٠٠ صفحة .

ليجران (جورج) . - فلاح السكرنك (مصر العليا) . ، باريس ، جمعية الاقتصاد الاجتماعى ، سنة ١٩٠٢ ، السلسلة الثالثة ، العدد الخامس . عن عمال العالمين من القطع الثمانى ص ٢٨٩ - ٣٣٦ . دراسة فردية فحمة حسب منهج « لى بليه » بوجيه (شارل) . - ملاحظات عن مصر ، الفلاح ، مجلة الجيوغرافيا التاريخية والوصفية سنة ١٩٠٦ ، ص ٣٨٨ - ٤١٥ .

صورة كاملة تقريباً وبدون بيان أصل لنص ييو « بك »

شامبيريه (راء ول دى) . - تحقيق عن حالة الفلاح المصرى من الوجهات الثلاث : الحياة الزراعية ، والتربية ، والصحة والاسعاف ، باريس ، شالا ميل ، سنة ١٩٠٩ ، من القطع الثمانى ٢٠٦ ص .

آراء عن السياسة الانجليزية وتقريبات سطحية بين مصر وتونس .

والتيرف . ميفيل . شىء عن الفلاح ، مجلة الخمسة عشر ، يونيو ١٩٠٩ ،

لندن ص ١٠٩٣ - ١١٠٥ .

ساباتان (ف) . - في بلد الفلاح . نظرة الى الوراء ، من القطع الاثنى عشرى ، ٧٢ صفحة ، مطبعة مسينا ، القاهرة بدون تاريخ

التجار (مصطفى صادق) . - محاولة عن الفلاح والعمل اليدوى في مصر ليون ، بونسيه ، سنة ١٩١٣ من القطع الثمانى ، ١٠٠ صفحة . وهو تحقيق عن مديرية المنوفية .

ويلكوكس (س . ولیم) . - الفلاح وزوجته في اراضى مصر الغير المزروعة القاهرة ، مجلة جمعية مصر الجيوغرافية ، يونيو ، سنة ١٩١٧ ص ١٦٧ - ١٨٨ .

ملاحظات شيقة على الفلاحة المعيرة وعلى السخرة .

بلا كان (وينيفريد) ، فلاحو مصر العليا ، ديانتهم ، حياتهم الاجتماعية والصناعية اليوم وصاتها بمابقى حيا من العصور الفرعونية . لندن هاراب ، ١٩٢٧ من القطع الثمانى ، ٣٣٠ صفحة وصور عدة .

هذا الكتاب الذى يبين عنوانه الثانوى مايحتويه بيانا حسنا يروى ماراه المؤلف إبان اقامته خمس سنين بين الفلاحين .

الهلواوى (مصطفى على) . - في الريف المصرى ، القاهرة بدون ناشر سنة ١٩٢٨ من القطع الاثنى عشرى ٢٠٠ صفحة .

شهادة من أحد أهالى القرى المصرية . وبه بعض بيانات نفيسة فى وسط كثير من الجمل الانشائية .

وينكلير (هانس اليكساندر) الفلاحون بين الماء والصحراء ، شعبيات من قرية كيما بمصر العليا ، استوتجبار ، كولهامير ، ١٩٣٤ ، من القطع الثمانى ، ٢١٤ صفحة ومقدمة صفحاتها إحدى عشرة .

دراسة جنسية لقرية اتخذ سكانها الذين هم من أرومة بدوية نوع حياة الفلاحين
ابنة الشاطى . - الريف المصرى ، القاهرة ، مكتبة الوفد سنة ١٩٣٥ من القطع
لاثنى عشرى ٢٤٨ ص .

مؤلف شجاع وبه معلومات ، لماعة خصصت نفسها لقضية الفلاح .

لودويج (اميل) . - النيل ، أو حياة نهر ، المجلد الثانى ، باريس ، بلون سنة
١٩٣٧ من القطع الاثنى عشرى ٢٩٣ ص وبه صور .

تاريخ مصر منظورا اليه من ناحية الفلاح ، وهذه النظرة مع الاسف قد زيفتها
قليلا الأوهام والأخطاء .

كنيتيل (جون) . - الدكتور ابراهيم الحكيم ، ليبزيج ، برنار توشنيز ، ٣٦٠
ص . رقم ٥٢٧٥ سنة ١٩٣٧ .

تاريخ فلاح نشأ من الأرض .

توفيق الحكيم . - يوميات نائب فى الريف ، نشر فى مجلة القاهرة سنة ١٩٣٩
١٥٤١ صفحة ترجمة ج . فييت .

ابنة الشاطى ، قضية الفلاح ، القاهرة سنة ١٩٣٩ من القطع الاثنى عشرى
٢٣١ ص وبه صور .

دوريات للمراجعة

- ٣ -

في مصر

الدليل الإحصائي للمملكة المصرية.

التقويم السنوي للحكومة المصرية.

الاهرام

المصور .

نشرة المعهد المصري.

نشرة الجمعية الملكية الجيوجرافية المصرية .

نشرة اتحاد الزراع المصريين (مصر الزراعية) .

نشرة الجمعية الملكية للاقتصاد السياسى والتشريع : « مصر العصرية » .

الجريدة الرسمية للحكومة المصرية.

جورنال ديجيت .

لابورس ايجيبسيين .

لاباترى .

زميل الفلاح .

مجلة القاهرة .

مجلة الشؤون الاجتماعية .

كل هذه النشرات تظهر في القاهرة .

في فرنسا

الخطط الجيوغرافية .

خطط التاريخ الاقتصادي والاجتماعي

سجل العمل الشعبي .

في أرض الاسلام .

قصص الشرق .

معجم

لم نذكر في هذه القائمة الكلمات التي لا تظهر إلا مرة واحدة أو التي هي مترجمة على أثر ظهورها في النص وأسماء الموازين والمقاييس والمكاييل والنقود مشروحة على حدة.

إردب : انظر قائمة المكاييل	سباخ : سجاد طبيعي
الازهر : جامعة القاهرة القرآنية الكبرى	شادوف : آلة لرفع الماء ذات عود وتدار
أقة : انظر قائمة الموازين	بالاذرعة
برار : أراض مستنقعة أو مالحة	شونة : مستودع للغلات
بلاص : جرة مستديرة لنقل المياه	صراف : من يتقاضى الضرائب
بلغة : حذاء أصفر	طاقية : غطاء للرأس من قماش
بندر : عاصمة مركز أو مديرية	طيلية : مائدة مستديرة منخفضة للأكل
جاروف : مذراة من خشب	عريف : منشد قبلي وهو أعنى عادة
جلبية : ثوب	عزبة : ضيعة خاصة تؤوى العمال الضروريين
حلة : مرجل	لاستغلالها
دائرة : إدارة أملاك	عمدة : حاكم القرية
ريس : رقيب عمال	فدان : انظر قائمة المقاييس
زحافة : أداة تسوى الأرض	قصيبة : أداة لتسوية الأرض
ساقية : آلة لرفع المياه ذات عجل	قنطار : انظر قائمة الموازين
وقوادييس	قيراط : انظر قائمة المقاييس

لبدة : غطاء للرأس من الصوف	الجلوس أو نوم عدة اشخاص
<u>مأذون</u> : من يجرى عقد الزواج ويحرر	<u>معاون</u> : مساعد رئيس الشرطة في المركز
وثيقته للمسلمين	<u>ملاية</u> : مئزر كبير أسود يغطي الرأس
<u>مأمور</u> : حاكم المركز	ويلف الجسم
<u>مدير</u> : حاكم إقليم	<u>موال</u> : أغنية غرامية
<u>مديرية</u> : إقليم	<u>ناظر</u> : مشرف على الضيعة
<u>مركز</u> : قسم من المديرية وعاصمته	<u>نبوت</u> : عصا غليظة
<u>مصعبة</u> : مقعد مبنى مستطيل غالباً ينسع	<u>نورج</u> : آلة تدرس بها الفلال .

المقاييس والمكاييل والموازين والعمله

- ٥ -

الفدان : هو الوحدة للمساحة العقارية ، وهو يساوى ٨٣٣ ، ٤٣٠٠ متر مربع وهو ينقسم إلى ٢٤ قيراط .

القيراط : هو ٣٥ ، ١٧٥ مترا .

الاردب : (١٩٨ لترا) وهو وحدة المكاييل ، وبه تباع بالجملة الفلال والبقول والعدس . وإردب القمح يزن تقريباً ١٥٠ كيلو ، وإردب الذرة ١٤٠ كيلو ، والشعير ١٢٠ كيلو .

القنطار : هو وحدة الموازين ، وهو يوازي ٤٥ كيلو . ومولوزين التجزئة التي تستعمل في السوق هي اجزاء للقنطار .

الزطل : هو $\frac{1}{100}$ من القنطار .

الاقة : هي $\frac{1}{36}$ من القنطار ، أى كيلو وربع تقريباً .

الاقوية : تساوى ٤٤ ، ٣٧ جراماً .

الجنيه : هو وحدة العملة وهو ينقسم الى ١٠٠ قرش أو ١٠٠٠ مليم ، ويوازي تقريباً الجنيه الاسترلينى زائداً نصف (شلن) .

القرش : يؤلف العملة الاساسية فى تجارة التجزئة ، ويسمى القرش الصاغ مقابلة له بالقرش التعريفية (٥ مليات) ويمكن ان يوازن سلطانه فى الشراء بسلطان الفرنك الفرنسى .

المليم : هو العملة السائرة للفقير والفلاح ، وهو يكاد يشبه السولدى

﴿ تم بعون الله وقدرته ﴾

الخطا والصواب

خطأ	صواب	صفحة	سطر
الوفيات	الوفيات	٩	١٣
لملاك	الملاك	١١	٨
للوحة	اللوحة	١٤	٤
لأرض	الأرض	١٦	٣
يونسون	يونسون	١٦	٥
كان	كانا	١٧	٥
شاطىء	شاطئى	٢٦	١٠
بحج	بحج	٢٨	٩
وبالمقارنة	وبالموازنة	٣٢	١٣
مواز	موازنا	٣٢	١٧
ذو	ذوو	٤١	١٨
بمقتضى	وبمقتضى	٤٢	١٧
سيعيدها	سيعيدها	٥٤	٨
الداخلية	الداخلية	٥٥	٧
يعيننا	يعيننا	٥٥	١٩
كثيراً	كثير	٥٦	٦
وهو	وهى	٧٥	١٧
المتسعمرون	المتسعمرون	٩٩	٢١
الجزء	الجزء	١٠٦	١٦
توفر	لا توفر	١١٠	٢٠
القلاحات	الفلاحات	١١١	١١
ليعجلوا	ليعجلوا	١١٢	٢٠
بالبهارسيا	بالبهارسيا	١١٣	٤
لاسرة	الأسرة	١١٧	٢

خطأ	صواب	صفحة	سطر
وإذا كان	وإذا كان	١٢١	٥
تمد	تمتد	١٢٢	٢
تمتلي	تمتلي	١٢٨	٩
يفقنون	يفقنون	١٤٠	١٩
تجتمع	تجتمع	١٤٢	١٧
لابواب	الابواب	١٤٨	٥
أبدعونه	ألا يدعونه	١٦٧	١٠
حد	أحد	١٧١	٨
بادينهم	بدينهم	١٨٣	١١
٢٧٩٠٠٠٠٤١٩٥	٢٧٩٠٤١٥٩	١٨٧	٩
الشراء	الثراء	١٨٧	١٤
قدمات	تقدمات	١٩٠	٨
لجواهر	الجواهر	١٩٠	١٢
لحل	الحل	١٩١	٨
لذای	الذی	١٩١	١٤
صغيرة	الصغيرة	١٩١	١٧
١٠٠٠	١٠٠٠٠	١٩٦	٨
ويأمررون	ويأمررون	١٩٩	١
الصحية	والصحية	٢٠٠	٢
بدرسونه	بدرسونه	٢٠٢	٧
يجود	يجرد	٢٠٣	٤
بلحوقها	بلحوقها	٢٠٣	١٩
الاخفاقات	الاخفاقات	٢٠٤	١٦
الزاي	الزاسي	٢٠٥	٢٠
ولذلك	وذلك	٢٠٦	٩

فهرس الكتاب

صفحة		صفحة	
٧٣	كيف ينجى ثمار الارض	٣	تصدير
٧٦	١ - زراعة القطن	١٢	استهلاك
٧٨	ب - قوت الفقراء	١٣	مقدمة
٨٠	ج - القمح	١٨	الفصل الاول
٨١	د - البرسيم		الثبات
٨٢	هـ - المزروعات الغذائية		الفصل الثاني
٨٤	٢ - حالات العمل	٢٥	الاطار الطبيعي
٨٤	الفلاح قابلا للتسخير		مصر بلد زراعى
٨٧	الفلاح مياوما		١ - الجيوغرافيا
٨٨	الفلاح شريكا	٣١	٢ - الدراسة الاحصائية
٨٩	الفلاح مستأجرا		للمجاعة البشرية
٩١	الفلاح مالكا	٤٠	الفصل الثالث
٩٧	الفصل الخامس		الاطار الاجتماعى والسياسى
	جسم الفلاح		مصر بلد أوليجارشى
٩٧	١ - الارومة والنموذج	٤٢	الدولة والارض
١٠٢	٢ - معاملة الجسم ولباسه	٤٦	الأراضى الموقوفة
١٠٦	كيف يلبس الفلاحون	٤٧	الملكية الخاصة
١٠٩	٣ - الصحة والمرض	٥٤	الحكومة
١١٣	٤ - ما يشربون وما يأكلون	٦٢	الفصل الرابع
	الفصل السادس	٦٢	عمل الفلاح
١٢١	القرية والمجاعة الريفية		١ - أنواع العمل
	الفصل السابع	٦٣	كيف يعد الارض
١٤٥	منزل الفلاح وأمرته	٦٦	عمل الماء
		٧٢	الاسمدة

صفحة

٢١٤

٢ - ولولة على شاب

٢١٥

شرح المقاطع

٢١٧

٣ - مراجع

٢١٧

١ - الفلاح القديم

٢١٨

٢ - الفلاح منذ مائة سنة

٢١٨

٣ - الفلاح العصري

٢٢٢

٣ - دوريات للمراجعة

٢٢٤

٤ - معجم

٥ - المقاييس والموازن والعملة ٢٢٦

صفحة

١٦٦

١٧٢

١٨٦

٢٠٣

٢١٢

الفصل الثامن

التقاليد الريفية

الفصل التاسع

نفس الفلاح

الفصل العاشر

تطور الفلاح

خاتمة

بأسماء الفلاح

ملحقات

١ - ملاحظات على الحداد

١ - أخلاق وعادات

ST. MAL. 2

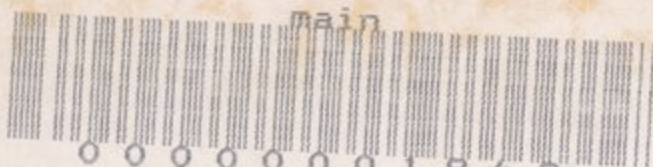
612451861
613809222

DATE DUE

DEC 23 1987

HD
1538
E3
A9512

5 - JAN 1972



00000001843

HD 1538 E3 A9512/c.1

AUC - LIBRARY



DATE DUE

2 JUN 1988



A.U.C

9 NOV 1995



A.U.C

26 NOV 1995



A.U.C

13 DEC 1995



13 DEC

28 DEC 1995

